

السيرة النبوية محمد القدوة

مختارة
في فِكْرَةٍ وَمِنْ هَجْرَةٍ وَأَنْجَازَةٍ الْعَالَمِيَّةِ

المجلد الأول

تأليف
مُجْتَمِعِ مَرَاتِلِ الْبَاحِثِينَ وَالْمُفَكِّرِينَ



السيد الشهيد محمد الصدر

بحوث في فكره ومهجه وانجازاته العلمي

تأليف

نخبة من الباحثين والمفكرين

من إصدارات مؤسسة المتطهرين

إحياء تراث آل الصدر

الجزء الأول



الملتقى الفكري والثقافي الخاص بالمرجع الديني
السيد التنهيد محمد الصدر
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م قم المقدسة

المرجع الديني

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطه بديله < mktba.net



الفهرس

- المقدمة ٩
- كلمة سماحة آية الله العظمى الشيخ جعفر السبحاني (دام ظلّه) ١٢
- التخطيط الإلهي نظرية السيد محمد الصدر في تفسير التاريخ ١٧
- الدكتور صائب عبد الحميد
- الشهيد الصدر الثاني فدّرت صفحات لم تُقرأ ٥٥
- بقلم سماحة العلامة السيد فاضل النوري
- التفسير الصدري قراءة النص بروية كوثية ٨١
- السيد عبد السلام زين العابدين
- المرجعية الصالحة تعدّد أدوار ووحدة هدف مناهج في العمل التغييرى
- السيد الشهيد محمد الصدر نموذجاً ١٢٣
- بقلم الأستاذ مختار الأسدي
- الصدر الثاني محمد الصدر منظومة معارفية فاعلة في السياسة والأدب . ١٥٥
- الاستاذ صادق جعفر الروازق
- السيد الشهيد محمّد محمّد صادق الصدر قراءة في الفكر والمنهج ٢٦١
- الدكتور ضياء نجم الأسدي



الصدر الثاني المرتكزات الكلامية والفقهية في نظرية العمل الاجتماعي ٣١٣

جواد علي كسار

القيم الأخلاقية في حركة السيد محمد الصدر الإصلاحية ٣٥٥

الدكتور سعد علي زاير

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين مولانا أبي القاسم محمد بن عبد الله، وأهل بيته الطاهرين الهداة الميامين.

وبعد ..

لا يخفى على أهل العلم والفضل أن المرجع الديني الكبير السيد الشهيد محمد الصدر رحمته الله يعد من أبرز المراجع الذين تنوعت نتاجاتهم العلمية حتى غطت مساحات واسعة ومختلفة في فروع المعرفة الدينية، يشهد لذلك غزارة نتاجه العلمي وإنجازته المعرفي في علوم مختلفة منهجاً ومضموناً، كالفقه والأصول والتفسير والكلام والأخلاق والفلسفة والتاريخ والعقائد، وقد تصدرت كتبه ومؤلفاته رفوف المكتبة الإسلامية منذ أكثر من أربعة عقود إلى يومنا الحاضر.

وبالرغم من أن هذه المؤلفات كثيرة من جهة الكم، إلا أن ذلك لم يفقدها صفة التجديد والإبداع والعمق ورسالة البحث العلمي في جميع الموضوعات التي تطرقت لبحثها، بل أجمع أهل الاختصاص أن تلك المؤلفات جميعاً قد فتحت أفقاً معرفياً جديداً على مستوى جميع القضايا



والمسائل التي تناولتها بحثاً وتحقيقاً وتجديداً، ولم تتخذ طابع التكرار أو الإعادة، وذلك ما نراه واضحاً في موسوعة الإمام المهدي عليه السلام، ومئة المنان، وموسوعة ما وراء الفقه، وفقه الأخلاق، وفقه الفضاء، وأصواء على ثورة الإمام الحسين عليه السلام والشذرات، وغيرها، الأمر الذي وضع شهيدنا الصدر الثاني قدس سره في مصاف أكابر المجددين والمفكرين والمراجع العظام الذين أغنوا مكتبة أهل البيت عليهم السلام، بل العلوم الإنسانية عموماً بتأجتها العلمية القيمة.

ومن جهة أخرى فقد مثّلت مرجعيته المباركة انعطافة كبيرة في مسيرة المرجعية الدينية والحوزات العلمية بشكل عام، ابتداءً بالمضمون الديني الذي طرحته، ومروراً بالآليات الميدانية التي تبنتها في مخاطبة المجتمع، ومن هنا فقد مثّل الجانب المرجعي إنجازاً كبيراً وعظيماً يضاف إلى إنجازاته العلمي العملاق في خدمة الرسالة المحمدية الخاتمة والدين الإسلامي الحنيف ومسيرة العلم والعلماء.

في ضوء ذلك وأداءً للمسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتق المختصين والباحثين والمفكرين ووفاءً لشهيدنا الكبير انعقد الملتقى الفكري والثقافي الخاص بالسيد الشهيد محمد الصدر قدس سره في مدينة قم المقدسة، وذلك بدعوة من مكتب السيد الشهيد قدس سره لتسليط الضوء على الجوانب الفكرية والعلمية لهذه الشخصية العظيمة التي ختمت مسيرتها المباركة بالشهادة في سبيل الله سبحانه وتعالى.

واستجابة لهذه الدعوة فقد انبرت مجموعة من المفكرين والباحثين المبرزين من داخل العراق وخارجه للمشاركة بدراساتهم وبحوثهم حول هذا الموضوع، وقد بلغ عدد البحوث المشاركة أكثر من خمسين بحثاً

ومقالة تناولت الأبعاد المختلفة في شخصية السيد الشهيد قدس سره.

ونظراً لأهمية هذه البحوث وتعميماً للفائدة، فقد عقدنا العزم على تنظيمها وإخراجها بهذا الشكل المائل بين يدي القارئ الكريم، آمليين أن نكون قد أدينا جزءاً يسيراً من واجبنا تجاه مرجعنا الشهيد قدس سره وسائلين المولى عز وجل أن يوفق الجميع لمرضاته.

ولا يفوتنا في هذه المقدمة أن نتقدم بالشكر الجزيل وأسْمى آيات الشناء والتقدير لجميع المشاركين في إنجاز هذا العمل، نخصّ منهم بالذكر سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيد مقتدى الصدر «حفظه الله» الذي قدّم جميع ما يحتاجه الملتقى من الدعم المعنوي والمادي في سبيل الوصول إلى الهدف الذي رسمته الأمانة العامة للملتقى وقطف ثمار انعقاده، وكذلك نرفع أسْمى آيات الشكر والتقدير إلى السادة الباحثين والمفكرين الذين زيّنت بحوثهم صفحات هذا الكتاب، وكذلك الأخوة الأعزاء أعضاء اللجنة الثقافية والإعلامية في مكتب السيد الشهيد الصدر في قم المقلّسة، الذين تحملوا مسؤولية إقامة هذا الملتقى وإتمامه على أحسن وجه، فجزاهم الله خير جزاء المحسنين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الأمانة العامة للملتقى الفكري والثقافي

الخاص بالمرجع الديني الكبير

السيد الشهيد محمد الصدر

شوال ١٤٢٩ هـ قم المشرفة



مجلس علمي للدراس والبحوث
مؤسسة السيد الشهيد الصدر
١٩٩١

كلمة سماحة آية الله العظمى

الشيخ جعفر السبحاني (دام ظله)

رجل العلم والجهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم رسله، إمام
الرحمة، وقائد الخير، ومفتاح البركة، وعلى آله الهداة الميامين.
علم الشهادة والكرامة والعلو وحليف علم الدين والآثار

نحمد الله الذي رفع منزلة العلماء الصُّلحاء على الشهداء، وفضل
مدادهم على دمائهم، فالشهيد ثمرة من ثمار جهود العالم، استضاء بأنوار
علمه، وسلك درب الجهاد على هدى تعاليمه وإرشاداته، ومن هنا فضل الله
سبحانه جهود العلماء في ميادين التعليم والتربية، على شهادة الشهداء في
مجال الجهاد والنضال.

هذا، إذا كان الشهيد ليس بعالم، والعالم ليس بشهيد، وأما إذا اجتمع
كلا العنوانين في فردٍ، فيكون عالماً محققاً، وكاتباً بارعاً، وخطيباً مرشداً،

وشجاعاً بأسلاً، يحمل هموم المسلمين، ويخوض غمار ساحات الجهاد، ليصون الإسلام من كيد الأعداء، فيحظى بوسام الشهادة، فإن مثل هذا الفرد قد بلغ الغاية في الكمال، وفاز بالقدح المعلى في ميداني العلم والإيثار. وهذا هو شأن العلامة الراحل آية الله السيد محمد محمد صادق الصدر (رضوان الله تعالى عليه).

لقد عاش رحمته في بيت علمي عريق، زانه التقى والفضل، فأثمرت ثمرات يانعة، وفاح شذا أزهاره، فبلغ كل قريب وبعيد. وثمة نكتة نلفت نظر السامع إليها، وهي أن طبيعة العلم والعلماء تقتضي الهدوء والدعة والعيش في أجواء بعيدة عن الضوضاء والضجيج، فالعلماء غالباً ما يتواجدون في المعاهد والمدارس والمختبرات وقاعات الدرس والبحث.

وأما الشهيد فهو يعيش في خضم الحوادث الدامية في ميادين النضال. فكيف يلتقي العلم بالشهادة والشهادة بالعلم، وبالتالي يفوز العالم بمقام الشهادة؟

وما يدفع العجب، هو وقوفنا على هذه المسألة، وهي أن العلم والشهادة يجمعهما أمران:

١- الملكات النفسية السامية والفضائل الأخلاقية العالية، إذ يرى كل منهما أنه مسؤول أمام الله تعالى وأمام الأمة.

٢- إن العالم يقبض قلمه ويسيل فكره ليقارع الظلم والفساد ويدعو إلى الصلاح والفلاح، والشهيد يقبض سلاحه، ويريق دمه، ليستأصل جذور



الظلم والطغيان، ويستقي بدمه شجرة الحرية والإيمان، ليعيش المجتمع تحت راية العدل.

إن الآثار العلمية للمرجع الديني السيد الشهيد محمد الصدر رحمته الله تدلنا على علو كعبه في الفقه والأصول، وهذا ما نراه واضحاً في كتابه القيم «ما وراء الفقه»، فهذا الكتاب مبتكر في موضوعه، جامع لشتات ما يحتاج إليه الفقيه في الدورة الفقهية، إلى قضايا ومعلومات لها صلة وثيقة بالفقه، ولكنها لا تبحث إلا فيه.

وقد أجاد السيد الشهيد كل الإجادة في جمعها وتحقيقها وقدمها للمحققين من الفقهاء والأصوليين في موسوعة ضمت عشرة أجزاء، تثير العجب من بُعد غوره، وغزارة علمه، وسعة اطلاعه على العلوم الكونية والطبيعية والتاريخية.

وأما دوره في الإصلاح والتغيير، فكان فاعلاً ومؤثراً، وقد خطا خطوات جريئة على طريق توعية المجتمع، وشحذ عزيمته، وتوجيهه نحو المبادئ والقيم الإسلامية، ووقف بوجه السلطة الغاشمة الظالمة، التي سلبت كل الحريات وصادرت عامة ثروات الشعب المادية والمعنوية، حتى صار أسوة للآخرين، ورمزاً للأبطال الخالدين.

وفي ختام كلمتنا تمثل بقول الفقيه والشاعر المفلق السيد محمود

البغدادي:

رجلان في دنيا الثبات وهبا الحياة إلى الحياة
رجل الصراع المرّيع ————— صف باللائم وبالطفأة

والعالم الوثاب أمد
عاشا بلا ذات وما كال
عز في سحق الذوات
شعة الشعوب الناهضات

فسلام الله عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حياً.

جعفر السبحاني

قم - مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

الرابع من ربيع الأول ١٤٢٩ هـ



التخطيط الإلهي
نظرية السيد محمد الصدر
في تفسير التاريخ

الدكتور
صائب عبد الحميد

بسم الله الرحمن الرحيم

تعد هذا النظرية مثالا للنظرية الدينية، الكلامية، في التاريخ، تستند في تدعيم محاورها على قضايا علم الكلام وعلى تفسير آيات قرآنية، بدلا من استنادها على التاريخ. وتقوم أساساً على فكرة التوحيد بين الكون والإنسان من خلال وحدة العلة الغائية للخلق، على أساس الحكمة الالهية، وفق الفهم الخاص للحكمة الذي تتبناه هذه النظرية.

يرى السيد محمد الصدر أن الذي يتناسب مع الحكمة الالهية هو وجود علة غائية للكون، بما فيه الإنسان، وهذه العلة تعود للكون نفسه وليس للخالق، بحكم كونه غنياً عن العمل الذي يعود عليه بالمنفعة، فهو الكامل المطلق المستغني عن كل شيء.

هذه العلة الغائية هي «وصول الكون إلى الكمال الممكن له، أي أحسن حالة واقعية يمكن أن يصل إليها الكون في طريق حركة نحو الأفضل. وهذه العلة تنطبق على البشرية أيضاً، فهي سائرة نحو كمالها الممكن لها، والحالة العليا الواقعية المستهدفة لها»^(١).

(١) السيد محمد الصدر / اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني: ٣٩٩-٣٩٨، دار



وبالنسبة للمجتمع البشري فإنّ هذه العلة تتضح في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) الذي يحدد الهدف الأساسي من خلق البشرية في عبادتهم لله عز وجل.

وعندما يكون للمراد من قوله (لِيَعْبُدُونِ) وجهان، تكون اللام بحسب أحدهما للعاقبة، فيكون المراد أن النتيجة أو الغاية التي سيصل إليها البشر هي عبادة الله، دون أن يكون هناك تسبب من قبل الفاعل الخالق.

وتكون اللام بحسب الثاني للغاية، فيكون المراد هو الاستهداف العمدي المقصود من قبل الفاعل. فإنّ محمد الصدر يقطع ببطلان الوجه الأول، وحصر المراد بالوجه الثاني بمقتضى الحكمة، فيقول مختصراً النقاش في هاتين الوجهتين المتباينتين: «ومن الواضح عدم إمكان انطباق معنى لام العاقبة على الخالق الحكيم القدير، فيتعين أن يكون اللام للغاية، فيكون المراد من الآية حينئذ أن هناك استهدافاً عمدياً في خلق البشرية، في أن توجد فيها العبادة»^(٢).

والأمر على حقيقته ليس بهذا القدر من الوضوح إلا حين يختصر بالرجوع إلى قضايا كلامية كمسلمات عقلية لا نقاش فيها. على أن هذه القضايا الكلامية هي محل نزاع جوهرى بين المدارس الكلامية الإسلامية كما هو معلوم.

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) محمد الصدر، اليوم الموعود، ٤١٣.

وأياً كان فإنّ هذا الشرط الثاني هو الذي يؤلف الحلقة المنسجمة، مع الشرط الأول في افتراض العلة الغائية ويكمّله في صورة نظرية منسجمة، لذا فهو يعطي العبادة المقصودة معنى شمولياً يحقق هذا الانسجام، فالمراد من العبادة، بحسب وجهة النظر هذه: هو أن يعبدوا الله بمجموعهم تلك العبادة الكاملة. وهذا هو «المفهوم الصحيح» للعبادة.

وهكذا تقترب خطوة أخرى نحو تقرير العلة الغائية الخاصة بالبشر، فالعبادة وفق هذا المفهوم «تعني بالتحديد إيجاد المجتمع المعصوم برأيه العام، بل المعصوم بكل أفرادها، فإنّ عمق العبادة وعمومها يقتضي هذا المعنى بالضرورة».

وبهذا تتحدد العلة الغائية بالنسبة للبشرية بما مفادها: «أن تكامل البشرية المستهدف بالتخطيط البشري العام، هو إيجاد المجتمع المعصوم»^(١). والمراد بالتخطيط البشري هو التخطيط الإلهي الخاص بالبشر، باعتبار أن هناك تخطيطاً آخر خاصاً بالكون كما سيتضح قريباً.

القوى المحركة للكون

هناك ثلاثة أنواع من القوى المحركة تمثل أسباب حوادث وتطورات الكون بصفة عامة، والمجتمع البشري بصفة خاصة، وهي:

١- الأسباب الطبيعية العامة، أي القوانين الكونية، وهي قوى قهريّة التأثير خارجة عن اختيار الإنسان، شاملة لسائر الكون بما فيه المجتمع

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٤١٣.



البشري.

٢- الأفعال الارادية الاختيارية، الواعية، للبشر أنفسهم.

٣- العلة الغائية من وجود الكون^(١).

وبحسب هذه النظرية فإنّ «القوانين الكونية» و«الارادة الواعية» خاضعان خضوعاً كلياً وقهرياً للقوة الثالثة التي هي «العلة الغائية» باعتبار أن الاهداف التي توخاها الخالق لا بد أن تحدث. فقد أسس الخالق القدير القوانين الكونية، والأفعال الارادية، من أجل أن تكون أفضل الطرق للوصول إلى العلة الغائية والأهداف البعيدة.

فالقوانين الكونية لا يمكن لها أن تتخلف، بصفتها أسباب لتحقيق الأهداف البعيدة المطلوبة للكون والإنسان. وكذلك الأفعال الارادية الاختيارية، فهي مصممة في حدود معينة للنشاط تنسجم مع تلك الأهداف، لذا فإنّ «اختيار الإنسان لا يعقل أن يحول دون الوصول إلى تلك الاهداف». وهذا القانون يشمل الافعال البناءة والهدامة، كما يشمل العقائد كلها باختلافها، «بل إن أي فعل أو أي قول من أي إنسان، صالحاً كان أو باطلاً، ضحلاً كان أو عميقاً، مؤثراً كان أو عاطلاً، واقع لا محالة ضمن الطريق الموصلة إلى تلك الأهداف»^(٢).

تبدو هذه الفكرة مستندة إلى العقيدة الامامية في التوسط بين الجبر

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٣٩٦.

(٢) المصدر السابق: ٣٩٦-٣٩٧.

والتفويض، والتي تعبر عنها مقولتها الشهيرة: «لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين»^(١).

ووفق هذا التفسير فإن الذي يقلل من مساحة الإرادة الواعية والاختيار ليس فقط الحوادث الكونية القهرية، وإنما أيضاً «المشيئة الالهية» التي وضعت هذا الاختيار في حدود معينة تسيّر به صوب وجهة محددة، هي الأهداف البعيدة المرادة في تحقق المجتمع المعصوم.

لكن ثمة بعد آخر قد يتضمنه هذا التفسير يزيد في تقليص مساحة الإرادة الواعية والاختيار إلى حد بعيد، فهو يرى: «أن التصرفات المهمة التي ترتبط بالمصالح العامة وبالحكمة الالهية في تدبير المجتمع وتسيب أسبابه، هي دائماً محل عناية الله سبحانه وتديره، وكل شيء يتوقف على ذلك فهو حاصل لامحالة بقدرته الله سبحانه. وكل مانع عنه فهو متف بقدرته أيضاً. لكن مع حفظ ظاهر الاسباب والمسببات المعهودة بطبيعة الحال.

والمقصود صدق ما ورد من أن الله غايات وبدائيات ونهايات في أفعاله جل جلاله، وأن الأمور تسيّر كنظام الخرز يتبع بعضها بعضاً. الامر الذي ينتج أن ما يريد الله سبحانه في البشر حاصل لا محالة، ولا يستطيع أحد على الاطلاق تغييره، وإن خطر في ذهنه كونه مؤثراً أو

(١) الصدوق / التوحيد: ٢/٨ ٣٦٢، باب نفى الجبر والتفويض، مؤسسة النشر



فاعلا لشيء من الأشياء، قلّ أو كثر، من هذه الجهة أو من جهة أخرى»^(١).
فهذا التسلسل في حوادث الكون والمجتمعات البشرية، وبالنظر إلى وجود العلة الغائية للمخلوق، إنما له معنى واحد، وهو أن الله تعالى هو الذي يوجد الحوادث الجزئية ويخلق أسبابها باستمرار منذ بدء الخلق، وصولاً إلى تلك الغاية.

فالأعداد لظهور المهدي في آخر الزمان، ليملاً الأرض قسطاً وعدلاً، كما هي وظيفته الالهية «يتوقف نجاحه على أسباب، وتلك الأسباب ينبغي أن يعدها الله قبله، وهو جل جلاله فاعل ذلك لا محالة، لأن ظهور المهدي عشيرة وعد الله، والله لا يخلف الميعاد». ولا يكفي لهذا الأعداد أن يتم في السنوات القليلة المتقدمة عليه، لأنّ الحال في هذه السنوات «تحتاج إلى سبب، وسببه يحصل في السنوات التي قبلها، وهكذا إلى أن يصل إلى عصر صدر الإسلام... بل يتصل بما قبل الإسلام، منذ نزول آدم فما بعده، لأنّ ذلك كله نظام واحد متصل، متسلسل يتبع بعضه بعضاً في الحكمة الالهية كنظام الخرز»^(٢).

فنظام العلل والاسباب إذن ليس خاضعاً لقوانين طبيعية مجردة، بل هو خاضع للارادة الالهية التي توجده على نحو معين يفرضه ويحدده لزوم

(١) محمد الصدر، أضواء على ثورة الإمام الحسين: ٣٤-٣٣، انتشارات الشريف

الرضي، قم، ط ١، ١٤١٨هـ

(٢) محمد الصدر، أضواء على ثورة الإمام الحسين: ٣٥.

تحقق الأهداف الإلهية المطلوبة.

فليست العلل والاسباب الطبيعية والاجتماعية - التاريخية، هي التي تفرض نتائجها بحسب طبيعة الاستجابة الانسانية لها، وفق نظام حرية الاختيار والارادة الواعية، بل العكس من هذا هو الذي يحصل تماماً بحسب هذه النظرية، فإنّ «العلة الغائية لاتجري ضمن حدود القوانين الكونية، إنّما هي التي تحدد القوانين الكونية المحركة للكون بالنسبة للتخطيط الخاص بالكون» لأنّ هذه الحركة لا بدّ أن تكون باتجاه تلك الغاية والأهداف البعيدة.



وهذا يجرى على التخطيط الخاص بالبشرية، فإنّ الاستهداف الواقعي لهذا التكامل هو الذي يطبق أفضل الاساليب والمناهج للوصول إليه»^(١).

لكن هذه الأساليب والمناهج التي تحددها العلة الغائية، إنّما تجري وفق نظام الأسباب والمسببات، وفي إطار الارادة والاختيار في إطار التخطيط الخاص بالبشرية، لأنّ البشرية «تعيش تخطيطين مقترنين متعاونين لاجل تكاملها نحو الافضل، فهي تعيش التخطيط الكوني العام بصفقتها جزءاً من الكون، كما تعيش التخطيط الخاص بها القائم على استعمال الاختيار، في تكاملها، بمعنى أنها تتكامل نتيجة لأعمالها وتصرفاتها وردود أفعالها اتجاه الوقائع»^(٢).

وعلينا أن نتذكر أن حرية الاختيار وردود الأفعال هذه ليست مطلقة،

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود، ٤٠٢-٤٠٣.

(٢) المصدر السابق: ٤٠٢.

بل ليست مقيدة فقط بالقوانين الكونية القاهرة، والبيئة الاجتماعية الضاغطة، بل هي محددة قبل كل شيء بالطريقة الموصلة إلى الأهداف الالهية البعيدة. فأياً كانت هذه الأفعال الاختيارية، وأي فرد من الأفراد كان فاعلها، ومع كونها أفعال «اختيارية منسوبة لاصحابها ويستحقون عليها المدح أو القمح؛ إلا أنها بصفتها خلقاً من خلق الله سبحانه، فهي منسوبة إليه جل جلاله. ومن ثم يكون إيجادها ذاكمة وعلّة غائية»^(١).

ولا يهمننا هنا مدى اقتراب هذه النظرية في فقرتها الأخيرة من نظرية «الكسب» الأشعرية، التي وصفت بالجبرية المتوسطة كما سيأتي في بحث لاحق. لا يهمننا هذا بقدر ما يهمننا جوهرها الذي يفرضي إلى أن كل الأفعال الاختيارية، بكل ما تضمنه من تناقضات. إنما تجري وفق التخطيط الالهي، لتمثل مظهر الحكمة الالهية في الوصول إلى الغاية العليا التي من أجلها خلق الله البشر. هذه الصورة تشبه إلى حد ما التصور الذي قدمته الرواقية^(٢) للكون ككل، وصلة العناية الالهية به.

الرواقيون يرون أن كل شيء في الكون هو مرسوم منذ الأزل، ويجري وفق العناية الالهية، التي هي الفعل الشامل المستقر في الكل. ويرون الإنسان مختاراً في دائرة هذه الجبرية التي تحكم الكون^(٣).

(١) محمد الصدر، أضواء على ثورة الإمام الحسين: ١٣-١٤.

(٢) مذهب فلسفي نشأ على الفيلسوف زينون عام ٣٠٠ ق.م.

(٣) البان ج. ويد جيرى، المذاهب الكبرى في التاريخ: ٩٦-٩٧. أبكار السقاف/ الدين

عند الاغريق والرومان والمسيحيين: ٣٦٨، العصور الجديدة، القاهرة، ٢٠٠٠م.

تفصيل التخطيط الإلهي:

المقصود هنا هو التخطيط الخاص بالبشر، فهو معنى التاريخ وضرورته وفق هذه النظرية.

عندما تكون وجهة التاريخ ومغزاه هو تحقق المجتمع المعصوم «الذي يخلو من الشخاء والحروب وتضارب الآراء، يسوده الرفاه الاجتماعي والاقتصادي». وعندما نرى أن هذا الهدف لم يتحقق بعد «إذ لازالت البشرية تعيش التعسف والتحكم والحروب والاستغلال والظلم...

وحيث لا بد للهدف الاعلى للبشرية أن يتحقق ...

وحيث لا يمكن لهذا الهدف أن يتحقق بشكل فوري، أو بزمن

قصير ...

إذن يتعين أن يتم ذلك بشكل بطيء وطويل، يستوعب التقديم والتمهيد له قسماً كبيراً من تاريخ البشرية.

وحيث لا يكفي التخطيط الكوني وحده لتربية البشرية، لأنّ للبشر صفتين لا يمكن للضرورات الكونية أن تؤثر تأثيراً مهماً في تكاملهما، وهما: العقل والارادة، أو التفكير وحرية التصرف.

إذن لا بدّ من التخطيط الخاص بالبشرية، لإيصالها إلى هدفها الأعلى.

ولا بد لهذا التخطيط أن يكون موجهاً توجيهاً خاصاً لتحقيق ذلك

الهدف الأعلى^(١).

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٤١٣-٤١٤.



وهذا يعنى مرة أخرى أن هذا التخطيط لابد له أن يسخر القوتين الكونية، كما يسخر الارادة والاختيار للسیر في وجهته، أي لغرض الوصول بالبشرية إلى غاية كمالها، المجتمع المعصوم.

وهذا التوجيه الذي يستغرق زمناً طويلاً من عمر البشرية إنما يجري بالتربية التدريجية. ومعنى التربية «هو فسح المجال للفرد أو للمجتمع أن يتحرك وأن يستتج وان يتعلم لكي يتكامل على هذا الطريق». فالجبر لا يوجد للآسان تكاملاً ولا نمواً، فلا يتكامل الفرد إلا حين تصدر عنه أفعاله عن قناعة^(١).

وهذه التربية إنما تجري في إطار ذلك التخطيط، لذا «فان البشرية لا يمكن أن تبقى مهملة عن التخطيط لحظة من الزمان أو شبراً من المكان، بل إن التخطيط الذي أعده خالقها القدير لايجاد كمالها يبدأ معها منذ ولادتها، ويبقى معها إلى حين زوالها»^(٢).

فكيف تمّ ما تمّ وياتي ما يأتي من هنا التخطيط؟ يأتي ذلك كله على مراحل:

١- التخطيط الأول:

استناداً إلى استاذہ السيد محمد باقر الصدر، يرى محمد الصدر في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٤١٥.

(٢) المصدر السابق: ٤٢١.

وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿١﴾
 وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ (٢).

أن المجتمع البشري كان في أول وجوده لا يزيد في مميزاته وصفاته عن مجتمع الحيوان، ثم بدأ طبقاتاً لتخطيط التكامل يفتح على الفهم والتفكير.

ففي عصره الفطري كان الإنسان فاقداً للاختلاف في المصالح والعقيدة، لعدم توفره على المستوى الذهني الكافي لفهم ذلك، وعند ما وجد المستوى الذهني الكافي للتفكير وجد النزاع. وحين وجد النزاع كان مقتضى التخطيط العام لتكاملهم أن يعرفوا التشريع الكافي لحل هذه المنازعات، والعقيدة الكافية لزرع الاخوة في ما بينهم. وبذلك بعث الأنبياء وارسلت الرسل.

فالبشرية في مرحلة قصورها الذهني كانت تحتاج إلى تخطيط معين لا يصلها إلى مرحلة الوعي والتفكير لكي يقع ضمناً في طريق تكاملها العام. وحين دخل المجتمع البشري مرحلة الوعي والتفكير كانت الخطوة المهمة من التخطيط العام قد انجزت. وفي هذه المرحلة تحولت الاصوات المشوشة إلى لغة، والفكرة الطارئة إلى تركيز، والمصادفة إلى تجربة، وأصبحت البشرية قابلة للتعليم بالمستوى البسيط من المفاهيم والتشريع،

(١) سورة البقرة: ٢١٣.

(٢) سورة يونس: ١٩.



ومن هنا وجدت محاولات بشرية على مستوى عشائري، وإلهية على مستوى نبوي، لحل الاختلافات الناتجة عن هذا الوعي الجديد.

وبهذا يكون الخالق الحكيم قد بادر لحل الاختلافات البشرية عن طريق أنبيائه ورسله بمفاهيم وتشريعات بسيطة في أول الأمر، ثم تعمقت وتوسعت بالتدريج^(١).

فهذه المرحلة من التخطيط إذن، وهو «التخطيط الأول» لم تستدع وجود أنبياء، وإنما اكتفت بإيكال الإنسان إلى تجاربه الحياتية، لأنّ هذا الأسلوب كاف لوحده لرفع قصور الإنسان وإخراجه إلى مرحلة الوعي والتفكير^(٢). أما بعثة الأنبياء فأصبحت ضرورية لتوجيه الوعي والتفكير، ولايجاد الحلول للاختلافات والمنازعات الحاصلة بسببها.

وليست هذه المرحلة خاصة بمجتمع دون آخر، بل عمت المجتمعات البشرية في زمن تقريبي واحد، ذلك لأنّ البشرية لما كانت قد وجدت وجوداً واحداً، فهي تنحو نحواً واحداً^(٣).

أي ان المجتمعات كلها قد انتقلت من مرحلة القصور إلى مرحلة الوعي والتفكير في زمن تقريبي واحد، لأنّها مهينة جميعاً بالامكانيات ذاتها للافادة من تجاربها. وان كانت قد تختلف في «أسلوب هذا الوعي الجديد»

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٤٢٦ - ٤٢٨.

(٢) المصدر السابق: ٤٤٦.

(٣) المصدر السابق.

كالاختلافات في اللغات وأساليب السكن والمأكل والعلاقات، إلا أن النتيجة المتوخاة، وهي الوعي، أو القدرة على التفكير، أصبحت صفة للجميع.

لذا تنفي هذه النظرية وجود مجتمعات على الحالة البدائية الأولى حتى الآن، أو قبل الآن منذ زمن النبوات، إلا أن يكون إنسان مثل هذه المجتمعات في نفسه قاصراً بصفته الفردية^(١).

إن الأمر بكل بساطة يحتاج إلى أن يستوعب الإنسان مضمون تجاربه بدقة كافية، بحيث يستطيع أن يفيد منها نفسه والآخرين، وهذا الاستيعاب ليس إلا الفكر بدرجته البدائية^(٢).

وإذا كان سبب هذا النمو هو التجربة، فلا يمكن حصر ذلك بالعمل وحده، كما فعلت الماركسية. بل إن الكثير من الظواهر الطبيعية، وعدد كبير من الصدف، وكذلك مشاهدة تجارب الآخرين وأعمالهم، تسهم كلها في صقل هذه التجارب وتعميقها بالتدرج البطيء^(٣).

٢- التخطيط الثاني:

بعد أن ظهر التفكير في مرحلته البدائية، وظهرت إلى جانبه المنازعات، لم يعد بالامكان الاكتفاء بالتجارب الحياتية للارتفاع بمستوى

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٤٤٦.

(٢) المصدر السابق: ٤٤٩-٤٤٨.

(٣) المصدر السابق: ٤٤٧.



التفكير إلى ما يناسب حياة أكثر رشداً ونظماً. فلا بد من «التخطيط المنتج للمستوى الفكري العالي» إذ أصبحت الحياة مثاراً لضرورة إرسال الأنبياء لهداية الناس ورفع اختلافاتهم وزرع روح الاخوة بينهم.

ولما كانت مهمة الأنبياء مهمة تربية بالدرجة الأولى، فإن التربية لا يمكن لها أن تبدأ إلا من مستوى ملامس للواقع الاجتماعي، لذا كانت النبوات نفسها على مراحل متفاوتة بتفاوت المستوى العام للوعي، فكانت على أربع مراحل:

١- مرحلة النبوات العقائدية أو المفهومية.

٢- مرحلة النبوات التشريعية.

٣- مرحلة النبوات القبليّة.

٤- مرحلة النبوات العالمية^(١).

هذه المراحل يستتجها محمد الصدر من خلال متابعة بلاغات الأنبياء الواردة في القرآن الكريم، وبحسب التعاقب التاريخي للأنبياء^(٢). ويمكننا أن نلاحظ في حدود هذا التخطيط الثاني حتى الآن، وباختصار، ملاحظتين مهمتين:

الاولى:

يصلح هذا التصور لان يكون محاولة لتفسير النبوات وتدرجها،

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٤٤٩.

(٢) المصدر نفسه: ٤٥٠-٤٥٥.

وتفسير ما يعود إلى الفترة التي ابتدأت فيها من عمر البشرية بحسب ما هو متيقن من أخبار الأنبياء في القرآن الكريم. وهذا مما يعزز من البعد التفسيري القرآني في هذه النظرية.

والثانية:

إنه تفسير قائم أساساً على الايمان بالنبوات مسبقاً، وإلا لكانت التجربة البشرية التي نقلت الإنسان من مرحلة القصور إلى مرحلة الوعي والتفكير البدائي، قادرة هي نفسها على الارتفاع بمستوى التفكير مع الزمن وتراكم التجارب والخبرات. خصوصاً وأن محمد الصدر لم يشترط لكل مرحلة محددة مراحل التخطيط، أي المراحل التي مرت بها البشرية، أن تكون محددة بزمن^(١)، ويرى أيضاً أنه لا دليل من زاوية التخطيط الإلهي على وجود نبوات في مرحلة القصور، المرحلة الاولى من عمر البشرية، لأن تأثير هذه النبوات لو وجدت لانهصر في الاسراع ينتاج هدف التخطيط. وهذه السرعة، كما يقول الصدر نفسه: «لا دليل على كونها مطلوبة في الاهداف العامة التي سنها الخالق في كونه وبشريته، فإتة طويل الأناة، لا يختلف بالنسبة إليه طول الزمان وقصره»^(٢). وبناء على هذا نستطيع القول إنه كان من الممكن عدم بعث الأنبياء أصلاً، لأن مهمتهم سوف تنحصر هي الاخرى بالاسراع في انتاج أهداف التخطيط، وليس الاسراع مطلوباً في الأصل.

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٤٤٦.

(٢) المصدر نفسه.



فيمكن للتجارب نفسها أن توصل الإنسان إلى الأهداف نفسها ولو في زمن أطول.

نلاحظ من هذا أن الأدلة التي اعتمدها في إثبات هذا التخطيط غير كافية من وجهة النظر التاريخية، وإن كانت صحيحة من وجهة دينية، وكانت القرينة المؤيدة لها، أعني وجود الأنبياء وفق هذا التدرج في مضامين النبوات، مطابقة للواقع التاريخي.

وهناك ناحية أخرى تنبه لها الصدر لسد الثغرة الحاصلة نتيجة كون النبوات المعروفة جميعاً محصورة في بقعة جغرافية واحدة صغيرة بالنسبة للعالم، ولم تكن موزعة على المجتمعات البشرية كافة. فقدم لذلك ثلاثة حلول افتراضية:

الأول: إن التاريخ لا يستطيع أن يقدم الدليل الكافي على وجود بشر على نطاق واسع - يعني قبل عهد النبوات العالمية - في أوروبا وأفريقيا وأستراليا وأمثالها. فإذا كان هناك بشر فهم قليلون ومتخلفون إلى درجة يمكن معها إسقاطهم عن نظر الاعتبار.

والثاني: إن التاريخ لا يستطيع أن يقدم الدليل على عدم وجود الأنبياء فيهم على المستوى المناسب لمستواهم العقلي والحضاري.

ثم يحاول الصدر إثبات هذا وفق المنهج الكلامي، استناداً إلى «قاعدة اللطف» التي تقضي بلزوم وصول الدعوة الإلهية إلى كل البشر دون استثناء. أما من زاوية «التخطيط الإلهي» العام لتكامل البشرية، فليس هناك لزوم لبعثة الأنبياء إلى كل مجتمعات الأرض، مادام التخطيط يهدف إلى

وجود المجتمع المعصوم في المستقبل، وعليه فكل سبب نافع في هذا التخطيط فهو واقع لا محالة، وكل سبب غير منتج من هذه الناحية فهو زائل لا محالة، لاستحالة أن يحتوي التخطيط على ما هو لغو ومهمل من الناحية التخطيطية والواقعية.

لذلك يرى أن كلا الأمرين صالحان لدعم النظرية: فعلى مقتضى قاعدة اللطف، يكون افتراض وجود مجتمع بشري خال من الأنبياء أمراً باطلاً. ولا تخفى موافقة هذه النتيجة لأغراض التخطيط.



أما في حال الازعان إلى عدم وجود الانبياء في هذه المجتمعات، فإن هذا لا يعني انهدام النظرية، بما أن التخطيط يستلزم ما هو لازم ومنتج فقط، من ناحية، ومن ناحية أخرى فلأن التخطيط نفسه يستلزم وجود الظلم والتعسف خلال فترة طويلة من الزمن. فيكون وجود أوربا مثلاً دون أنبياء مما تقتضيه المصلحة في التخطيط العام. ليصل من هذا إلى النتيجة «القدرية» في التخطيط بقوله: «وقد يكون من المقدر لاوريا منذ ذلك العهد القديم أن تكون قائدة الظلم والتعسف في العالم، كما كان الشرق قائد الهداية النبوية في العالم، ويكون الصراع بينهما - كما هو مشاهد في عصورنا الحاضرة - منتجاً لانجاح التخطيط الإلهي»^(١).

والافتراض الثالث:

يتعلق ببلاد فارس والهند والصين، ذات المجتمعات البشرية القديمة،

والتي ظهرت فيها أنماط من الديانات واسعة الانتشار. لكنها ليست من الديانات السماوية كما هو معروف. فتذهب هذه النظرية إلى افتراض وجود أنبياء سابقين في ديانات محدودة، بحسب قاعدة اللطف، وضرورة التخطيط. أما في المرحلة اللاحقة فيقوم الافتراض على احتمال امتداد دعوة إبراهيم الخليل إلى تلك البلاد بشكل أو بآخر، ومنها ابتداء خط التدين العام الذي ساعد على رقي الفكر البشري لتلقي النبوات المتأخرة. وعلى هذا يكون (براهما) الاله الذي تعبده الهند، إنما هو (إله إبراهيم) وذلك لأن هؤلاء توقفوا عند دعوة إبراهيم.

وبعد أن نجح هذا الاتجاه في تربية البشرية، بدأ خط معمق من النبوات ذات المفاهيم العقائدية ومستوى لائق من التشريع. وأبرز هؤلاء (الأنبياء) - بحسب هذه النظرية: زرادشت في فارس، وبوذا في الهند، وكونفوشيوس في الصين.

وإذا كان الاعتراض قائماً على أنه ليس هناك دليل في الإسلام على نبوة هؤلاء، فإنّ القرائن تؤيد هذه الدعوى. بل كما يرى صاحب هذه النظرية: «ان كل القرائن إلى جانبها، وليس هناك من القرائن ما يخالفها». أما أهم هذه القرائن، فهو: «ما يروى في التاريخ من نزاهة هؤلاء الأشخاص في حياتهم الشخصية، ووضوح دعوتهم وصحتها بحسب ما نعرفه من براهين، ولم تكن دعواتهم موجودة قبل زمانهم على المستوى الذي أعلنوه، إذن فهي خطوة إلى التكامل في التخطيط الالهي. إذن فالأنبياء الذين لا بد من وجودهم هناك [بحسب البرهان الكلامي السابق]

هم هؤلاء الأنبياء»^(١).

أما لماذا انقطعت النبوات بعد ذلك؟ فلأن النبوات العالمية التي تواصلت في الشرق الأوسط أصبحت قادرة بحكم تيسر الاتصال على إيصال دعواتها إلى تلك البلاد^(٢).

والفكرة التاريخية المهمة في هذا السياق هي تأكيد صاحب النظرية على أن التاريخ لا يعود إلى الوراء، وأن ما بلغته المجتمعات من وعي ونمو سوف لا يتراجع إلى الخلف عند غياب الأنبياء، بل يبقى بانتظار الدعوة القادمة إلى مستوى أعلى من الوعي والتفكير: «إن التربية لا تنحط مرة أخرى عن المستوى الذي استطاعت تلك النبوة إيصالها إليه»^(٣).

عندئذ فإن وجود النبوات العالمية في أزمان لاحقة وأماكن أخرى أمر منسجم تماماً مع التخطيط العام للبشرية.

لكن ثمة فائدة أخرى - بحسب هذه النظرية - لتمرکز الديانات العالمية في مكان واحد من العالم، تلك هي «توجيه العالم تدريجياً نحو مركز نبوي واحد» الأمر الذي سيكون ضرورياً بالنسبة إلى إنجاح التخطيط العام. بل من الضروري أن يكون ذلك قبل نزول «الاطروحة العادلة الكاملة» الممثلة بالإسلام، لتكون هذه الاطروحة عالمية الاعلان فور نزولها^(٤). وبعد

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٤٩٣-٤٩٥.

(٢) المصدر نفسه: ٤٩٧.

(٣) المصدر نفسه: ٤٩٧.

(٤) المصدر نفسه: ٤٩٧.



أن جاء الإسلام ممثلاً الاطروحة العادلة الكاملة، واستطاع أن يوصل دعوته إلى أقاصي بلاد المعمورة في زمن غير طويل، فقد حقق التخطيط الثاني غرضه، واستعد الفكر البشري لتلقي الاطروحة العادلة الكاملة، وبهذا ابتدأ التخطيط الثالث.

وقبل الانتقال إلى التخطيط الثالث لابد من الاشارة إلى أن إثبات هذه القضايا مازال كلامياً صرفاً، والمنهج الكلامي المجرد لا تعجزه الاجابة على تساؤل من قبيل: أننا قد عرفنا نبوة الأنبياء المعروفين من دعواهم النبوة وتأكيدهم أنهم رسل الله، وهذا ما لا نستطيع العثور عليه في البرهمية والبوذية والكونفوشيوسية والزرذشتية. على فرض صحة ما تدعيه هذه النظرية من أن فكرة الآلهة المتعددة أو فكرة تجسد الآلهة بشراً، التي يقول بها أتباع هذه الديانات، هي أفكار متأخرة وضعها أناس متأخرون مارسوا تحريف تلك الديانات. نعيد: أن المنهج الكلامي لا تعجزه الاجابة على هذا التساؤل مادام باب الافتراضات مفتوحاً، ومادام هذا المنهج غير ملزم بالدليل التاريخي. وعليه «يمكن أن يكونوا قد أهملوا ذلك بأنفسهم لمصلحة معينة، أو لعدم استيعاب المجتمع لفكرة النبوة ... أو أنهم ادعواها ولم تف المصادر بذلك»^(١).

وإذا قيل إن نضائر هذه الديانات قد وجدت في أرض الأنبياء أيضاً، وبكثرة، فبالامكان أيضاً الاجابة على ذلك بعدها من النبوات التي لم نحط بها خبيراً، أو نحو هذا. ومن هذه الديانات الشرق الاوسطية: (الأوزيرية)

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٤٩٦.

و(الإيزبية) كلاهما ظهرتا في وادي النيل، وأصبح لهما امتداد أبعد في أمم أخرى، و(المردوقية) في وادي الرافدين ثم انتشرت في عموم بلاد الشام، وغيرها^(١).

وأيضاً يصح التساؤل عما إذا كان بالامكان الجزم بأن هؤلاء كانوا أنبياء مبعوثين من قبل الله تعالى، فلماذا لا يمكن افتراض مثل ذلك في شأن مشاهير حكماء الاغريق والرومان، قبل الميلاد، الذين كانت لهم دعوات مماثلة، ليكون هؤلاء هم أنبياء أوروبا في هذه المرحلة التي سبقت المسيح عليه السلام. وليلد ذلك على شمول أوروبا بالتخطيط الثاني القائم على تربية البشر عن طريق النبوات؟ الامر الذي يدفع الحاجة إلى اللجوء إلى (القدرية) في توصيف التخطيط الالهي. وهذا ما ذهبت إليه هذه النظرية أيضاً على وجه الاحتمال^(٢).

بل وفق ذلك التفسير نفسه يمكننا أن نعيد كل الديانات التي ظهرت في الشرق وفي الغرب، والتي تقول بتعدد الالهة وأبناء الالهة إلى أنبياء موحدين، جرى بعدهم التحريف في الديانات على هذه الانحاء، لتكون النبوات متواترة في كل بقاع الأرض وفي كل المجتمعات. غير أن الامر سيبقى كلامياً مجرداً، وليس تاريخياً بحال من الاحوال.

(١) أبكار السقاف / الدين عند الاغريق والرومان والمسيحيين: ٣٣٨-٣٣٧، العصور

الجديدة، القاهرة، ٢٠٠٠ م.

(٢) المصدر نفسه: ٤٧٢.



غير أن قضية أخرى يبقى قبولها معضلاً، وهي بعيدة عن تناول التأويل العقلي المجرد، تلك قضية جعل (براهما) هو (إله إبراهيم) لتكون البرهمية هي الإبراهيمية أو بعض امتداداتها، وهي أول ديانة تدخل تلك البلاد لتنمي لدى شعوبها الاستعداد المناسب لتلقي الديانات.

إذ المعلوم أن البرهمية اسم اطلق على الهندوسية حدود سنة ٨٠٠ ق.م، نسبة إلى (براهما) الذي هو الإله المدبر بحسب هذه الديانة، وأن الهندوسية نفسها هي امتداد لديانة موغلة في القدم، هي الديانة الويدية أو (الفيدية)، ومنها اشتق اسم الكتاب المقدس للهندوسية (الفيدا) الذي تكامل تدوينه عبر قرون عديدة، وربما ترجع بدايته إلى نحو ثلاثين ألف سنة مضت بحسب الباحثين الغربيين والمحققين الهندوس^(١).

٣- التخطيط الثالث:

هو التخطيط المنتج لليوم الموعود وقيام دولة العدل العالمية. فبعد أن وسع الإسلام في المفاهيم والشرائع وعمقها، أوضح بجلاء أن «اليوم الموعود» سيكون منطلقاً من شريعته، كما أعطى بوضوح الهدف من وجود البشرية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢)، لبتداً التخطيط الثالث من هنا، على ثلاثة محاور:

(١) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، جمهورية مصر العربية / موسوعة المفاهيم

الهندوسية، يراجع أيضاً: أحمد شلي / أديان الهند الكبرى: ٤٤.

(٢) سورة الذاريات: ٥٦.

المحور الأول: تعميق الفهم العام لهذه الأطروحة في خط تربوي فكري طويل.

المحور الثاني: تحقيق الشرط الثاني من شرائط اليوم الموعود، وهو إيجاد القائد المؤهل للقيادة العالمية العادلة.

المحور الثالث: تحقيق الشرط الثالث من شرائط اليوم الموعود، وهو إيجاد العدد الكافي لغزو العالم في ذلك اليوم، وإقامة دولة العدل العالمية^(١).

وعندما تؤلف هذه المحاور الثلاثة التخطيط الثالث بشكل عام، فهذا لا يعني أن الواجهة الواقعية للعالم بصفة عامة، وللعالم الإسلامي بصفة خاصة، ستسير على نسق منسجم وخط مستقيم ضمن نمط تربوي واحد يرسخ شروط التحقق الواقعي لليوم الموعود.

فهناك نمط آخر من التربية والاعداد، مغاير تماماً في ظاهره وفي جوهره، إلا أنه يسير بالانسانية من ناحية أخرى بالوجهة نفسها، وجهة الاعداد للدولة العالمية العادلة.

ذلك هو الانحراف في تطبيقات التجربة الإسلامية، وانتشار الأفكار المادية والالحادية، والتحلل القيمي والأخلاقي، تلك الظواهر التي يتحقق الغرض التربوي منها عن طريق «التمحيص» المتمثل في ردود الأفعال تجاهها.

لكن كيف يتم ذلك في هذه المرحلة، بعد أن جاء الإسلام باطروحة

(١) اليوم الموعود: ٤٩٩-٥٠٥.



العدل الشامل، وبعد أن عاشت الأمة الإسلامية القيادة العادلة في أول عهدها، في صدر الإسلام؟

يطرح صاحب النظرية هذا السؤال، ثم يجيب عليه بالقول: «إن ذلك يتم بالسماح لعوامل الانحراف بأن تعمل عملها في المجتمع» لكن ليس بالمعنى الجبري الخالص، أي لا بمعنى أن الله هو الذي يخلق عوامل الانحراف هذه، بل «لا بمعنى أن الله عز وجل قد رضي بها وبارك وجودها، بل بمعنى أنه تعالى فسح لها فرصة الوجود، ولم يجعل الموانع الفكرية والاجتماعية ضدها»^(١). وهو إنما يريد بالموانع الفكرية: المستوى التطبيقي الذي يمارسه المجتمع عملياً، وليس المستوى المفهومي الذي تتضمنه الرسالة النبوية.

فهل يتعد هذا التفسير بهذه النظرية عن الجبرية حقاً، عندما يكون السماح لعوامل الانحراف بالظهور إنما هو جزء من التخطيط نفسه؟ نعم، إنه يتعد بها عن الجبرية فقط عندما تكون عوامل الانحراف هذه نتائج لقوانين اجتماعية - تاريخية، هي التي تحدد طبيعة الظواهر التاريخية الناتجة عنها، وليس عندما تكون هذه الظواهر الناتجة هي في نفسها مطلوبة في التخطيط، فهي التي تحدد طبيعة القوانين التي تنتجها، فتكون القوانين والسنن الالهية موضوعة على النحو الذي ينتج تلك الظواهر المطلوبة والمحددة سلفاً، كما ترى هذه النظرية.

(١) اليوم الموعود: ٥٠٦.

أما الفائدة التاريخية القصوى من هذا «التمحيص» فهي ما يترتب على تمحيص المبادئ الوضعية في جوانبها الفكرية والسياسية والاجتماعية، حتى يثبت عجزها عن إيجاد الحلول العادلة للمشكلة الانسانية، الأمر الذي سيستج عنه يأس البشرية من هذه الأطروحات، ولجوتها إلى العدل الكامل المتمثل بالإسلام في اليوم الموعود. لذلك يأتي هذا الانحراف بمثابة خطوة أخرى في مصلحة التطبيق العالمي في اليوم الموعود^(١).



لكن الوصول إلى هذه النتيجة عملياً، أي قيام دولة العدل الشامل، سوف لا يكون تدريجياً وسهلاً، كنتاج طبيعي لتطور الاحساس بالحاجة الماسة إليه، والقناعة بكونه الحل الوحيد لمشاكل الانسانية. لأن هذا الاحساس وهذه القناعة سوف لا يشملان سائر البشرية، بل ولا أكثرها، وإنما الأفراد والشرائح الواعية لهذا والمؤمنة به. من هنا فإن الانتقال إلى دولة العدل العالمية الموعودة سيكون عن طريق الحرب والغزو والفتوحات، بالضرورة.

أي أن التخطيط في هذه المرحلة سوف لا يعتمد على التجربة البشرية وحدها للانتقال إلى مابعدها، وكأن التجربة البشرية ستكون لوحدها قاصرة عن الوصول إلى مستوى تحقيق دولة العدل العالمية الشاملة، حتى مع وجود القائد الذي أعده هذا التخطيط، ووجود الجماعة الكافية لنصرته.

إذن الحروب هي التي ستكون طريقاً إلى الدولة العالمية، وليس الفرار

من الحروب والخلاص من مخاطرها كما رأى ابن نبي في رؤيته التاريخية.
وبعد أن تقوم الدولة العالمية يبدأ (التخطيط الرابع): «المتج للمجتمع المعصوم» عن طريق العدل الشامل والتطبيق الشامل لاحكام الشريعة الإسلامية ومبادئها الاخلاقية^(١).

وبعد أن يتحقق المجتمع المعصوم، يشرع (التخطيط الخامس) الذي يهدف إلى الحفاظ على المجتمع المعصوم وتكامله، وصولاً إلى مجتمع ما بعد العصمة^(٢).

لكن تحقيق المجتمع المعصوم ليس أمراً جبرياً، وإنما هو تدريجي عن طريق التربية المركزة، التي أصبحت أرضيتها الصالحة والمناسبة متوفرة في دولة العدل، حتى يجد الفرد لذته الحقيقية في تطبيق العدل بنفسه، بدلا من الالتذاذ بالشهوات المنحرفة^(٣)، وحتى يصبح احتمال مخالفته للعدل غير معقول^(٤).

هذا المحيط الاجتماعي العام، محيط المجتمع المعصوم في إطاره العام، سوف يكون أرضية صالحة لانتاج أكثرية معصومة بين أفرادها، وهذا هو المراد بقيام المجتمع المعصوم، وبضمان المحافظة عليه. لذلك فإن

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٥٣٠ - ٥٤٨.

(٢) المصدر نفسه: ٥٨٤ - ٥٩٩.

(٣) المصدر نفسه: ٥٨٤.

(٤) المصدر نفسه: ٥٨٧.

«البشرية كلها سوف تصبح على هذا الشكل بالتدرج، طبقاً للتخطيط الإلهي العام، وسيكون هذا التخطيط قد وصل إلى هدفه الأعلى. ولكن حيث أن سلم التكامل لانهائي الدرجات، سيكون تجاه المجتمع العالمي المعصوم فرصة واسعة جداً للتربية والنمو»^(١).

الوحدة الكونية:

تقدم أن هذه النظرية تقوم على التوحيد بين الكون والإنسان من حيث المبدأ ومن حيث الغاية. لذا فإنّ هناك تبادلاً في المشاركة من أجل اكتمال التخطيط العام، بين الكون وبين البشرية. فللكون مشاركته في التخطيط الخاص بالبشرية، كما أن للبشرية مشاركتها الكونية الفعالة. ففي الجانب الأول، مشاركة الكون في التخطيط البشري: «فإنّ القرآن الكريم يحتوي على كثير من حوادث مشاركة الكون أو الطبيعة مشاركة إيجابية مع جانب التكامل البشري والطاعة لله عزّ وجلّ، ومشاركة سلبية مع جانب العصيان على العدل»^(٢).

ومن أمثلة ذلك في الاتجاه الأول، الإيجابي: قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾^(٣). بل حتى ما يعدّ من المعجزات، كجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وخروج يونس من بطن

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٥٨٨.

(٢) المصدر نفسه: ٥٩١.

(٣) سورة العن: ١٦.



الحوت، وانفلاق البحر لموسى، ونحو هذا، تراه هذه النظرية أمثلة على هذا النمط من المشاركة الكونية.

وأمثلة الاتجاه الثاني، السليبي، كثيرة جداً هي الأخرى، كالطوفان الذي استأصل العصاة من قوم نوح، وسيل العرم الذي أهلك سبأ، والحجارة التي امطرت على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل. كل ذلك ونظائره هو من مصاديق المشاركة الكونية في التخطيط البشري.

وقد أكدت السنة النبوية أنه مع العدل يتحقق الأمن على نطاق كوني، وليس اجتماعي فقط، فترعى الشاة مع الذئب، ويلعب الصبيان بالافاعي^(١).

هذا الاتجاه من المشاركة سوف يتأكد في المجتمع المعصوم على أوسع نطاق، قياساً على ما تقدم من أمثلة، حتى يصبح المجتمع المعصوم، بل أفراد المعصومون، قادرين على التصرف في قوانين الطبيعة والكون، كما لو نظرنا إلى أن إيمان إبراهيم هو الذي جعل النار برداً وسلاماً، وكذا إيمان يونس وموسى في الأمثلة المتقدمة هو الذي سخر لهما قوانين الطبيعة، وهكذا حتى يتمكن الفرد المعصوم في المجتمع المعصوم من وضع حد حتى للموت، وفق رؤية في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حَيْثُ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

(١) محمد الصدر / اليوم الموعود: ٥٩٣ - ٥٩٥.

(٢) سورة الواقعة:

فبحسب هذه الرؤية فإن الآية تدل في ما تدل عليه، على أن الفرد إذا كان صادقاً وغير مدين بذنب، يمكن أن يرجع الروح عند فراقها البدن، وإنما يعجز الناس عن ذلك باعتبارهم مدينين بالذنوب، غير صادقين في أعمالهم وأقوالهم. «وهذا من أعظم المشاركات الكونية على سطح الأرض بالنسبة للصالحين، فأحر بالمجتمع المعصوم أن يكون كذلك»^(١).

فنحن هنا إذن لسنا أمام دولة عالمية تقوم على العدل التام الشامل، والفضائل الأخلاقية العالمية، وحسب، بل نحن أمام انفعال كوني أيضاً، يجعل القوانين الطبيعية طيعة بيد الإنسان، مسخرة لأغراضه، لتكتمل بهذه الصورة وحدة الغاية بين الكون والإنسان، وهذه هي الغاية القصوى للتخطيط الإلهي العام في شطريه؛ الكوني، والبشري:

«فان البشرية بعد تكاملها أصبحت عاملاً مباشراً لصيقاً بالتخطيط الكوني وأهدافه العليا، فأحر بها أن يكون لها درجة كافية في التصرف في الكون، وأحر بالكون أن يكون له درجة كافة من الانسجام والتعاون معها، بعد أن كان تخطيطاً واعياً واختيارياً، منطلقاً من الحكمة الازلية، وإن بدت قوانينه اضطرارية قسرية، إلا أننا عرفنا أن الغاية هي التي تحدد الوساطة. إن القسر في قوانين الكون إنما جاء من أجل تلك الغاية العليا، فإذا اقتضت تلك الغاية الاستغناء عن هذه القسرية أحياناً أو في كثير من الأحيان، كان ذلك ضرورياً. وقد عرفنا أن كل ما في الكون منسجم مع تلك الغايات، غير



زائد عليها وغير ناقص عنها»^(١).

وعلى هذا فإن الحضارة التي سوف تصنعها دولة العدل العالمية والمجتمع المعصوم هي أعظم وأطول حضارة منذ مولد البشرية وحتى فنائها^(٢).

بل إن التسلسل الطبيعي لهذه البراهين ينتج أن المجتمع المعصوم يستمر في التكامل، أي تكامل ما بعد العصمة، حتى إذا أصبحت المشاركة الكونية تامة، اندمجت البشرية بالكون العام واستنفدت أغراضها على وجه هذه الأرض، حيث يصبح الجيل الأخير كله كالملائكة تماماً، لا حاجة لهم بالبقاء على سطح الأرض، وإنما لهم الشوق الكامل إلى المشاركة في بناء الكون وإنجاز أهدافه من زوايا أعظم وأهم. وبذلك يحصل الانفصال النسبي بين الأرض وبين البشر^(٣).

وتستبعد هذه النظرية انتكاسة المجتمع المعصوم هذا، وعودة الظلم والشروع إلى البشر^(٤). لتكون نهاية التاريخ في يوم القيامة على أرض ليس فيها بشر، بعد أن انفصلوا عنها بنحو ما، غير معلوم. أو أنه - يوم القيامة - يقع عليهم كحوادث كونية لا يبدل من حدوثها مع استنفاد المجموعة الشمسية

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٥٩٥.

(٢) المصدر نفسه: ٥٩٨.

(٣) المصدر نفسه: ٥٩٨.

(٤) المصدر نفسه: ٥٩٩.

أغراض وجودها حسب التخطيط العام الكوني، وليس على نحو العقاب للبشر، إذ العقاب يأتي على من تكون هذه الحوادث مضادة لوجهاته، لا على من شارك في إيجادها مشاركة فاعلة بعد أن أصبح مندمجاً كلياً بالكون، فإن ذلك يكون من كماله ونفعه، لا من ضرره^(١).

يرى السيد محمد الصدر أن هذه الأطروحة هي الأطروحة الطبيعية الانسجام مع التسلسل الفكري للتخطيط البشري العام، إذ تكون البشرية قد سارت خلاله سيراً تكاملياً «من الصفر إلى المئة، لو صح هذا التعبير». وليس هناك مبرراً معقولاً لانتكاستها في مسار مقلوب يعود بها إلى الوراء. «إذ يستحيل عادةً أن تعود البشرية إلى الفسق والانحراف بعد أن ذاق طعم الحق والعدل، ومارسته بأوضح صورته، وشاركت في البناء الكوني مشاركة حقيقية».

وإنما يكون هذا التراجع محتملاً في حال عدم استمرار المجتمع المعصوم طويلاً ليستمر معه التركيز في التربية المنتجة لمجتمع مابعد العصمة. وفي حال كهذه فإنّ التنازل التدريجي في المستوى الثقافي والمعنوي للبشر سيبدأ منذ المرحلة التي يضعف فيها التركيز التربوي، حتى تخرج البشرية من العصمة التي اكتسبتها ردهاً من الزمن، وتبدأ بالهبوط إلى الانحراف، ومعه لا يكون لمجتمع ما بعد العصمة وجود، إذ لو تحقق وجوده لكان الانحراف عنه مستحيلاً.

(١) محمد الصدر، اليوم الموعود: ٦٠٠-٦٠١.



ولو صحت هذه الأطروحة - وهي مردودة عند صاحب النظرية - فسوف يكون لها تخطيط آخر، هو (التخطيط السادس) الذي يهدف إلى فناء البشرية، بايجاد تنزّل عمدي للتربية البشرية من النواحي العقائدية والقانونية والاخلاقية ... وتبدأ البشرية بالتنازل التربوي بالتدرج حتى تفقد التربية تماماً، تمهيداً ليوم القيامة، الذي لا يقوم وفق هذه الاطروحة إلا على شرار الخلق. وسوف لا يستغرق هذ العهد زمناً طويلاً، لأنّ الانزلاق أسهل على النفس البشرية من التكامل العادل^(١).

هذه النهاية إذن نهاية أبدية لحياة الإنسان على الأرض، ليس بعدها كرة أخرى، ولا دورة جديدة لحياة دنيوية ثانية، كما ذهبت إليه الرواقية، التي بشرت هي الأخرى بالسلام العام، ونادت بالوحدة العالمية، إلا أنها رأت أن لهذه الكائنات التي تسيّرُها العناية الالهية - العقل الشامل - دورة لها نهاية حتمية تعقبها دورة جديدة لوجود جديد: «فسيتهي هذا الوجود بحريق عام، وتسكن في ناره جميع خصائص الموجودات المقبلة وأسبابها ومقاديرها، ومن جديد سيعود الوجود كرة بعد كرة، بفعل هذا العقل وتقديره، هذا العقل الحال في كل شيء، والرابط بين الكائنات بوحدة يجب أن يتنبه إليها كل إنسان، فيعلم أن الكائنات إنّما إخوة، وأن بين الإخوة يجب أن يرفرف الحب ويخيم السلام»^(٢).

(١) المصدر نفسه: ٦٠٣ - ٦٠١.

(٢) أباكار السقاف / الدين عند الاغريق والرومان والمسيحيين: ٣٦٩ - ٣٦٨.

وليس ثمة غرابة في تشابه هذه النظريات، ولا دليل على الاقتباس والافادة في ما بينها، فهي نظريات دينية خالصة، نظرت إلى العناية الإلهية نظرة دينية واحدة، فمن الطبيعي أن تنتج تصورات متشابهة، ولا نقول مطابقة، لاختلاف التفاصيل التي تتضمنها المصادر العقيدية المقدسة التي هي المرجع في انتاج هذه النظريات.

وليس هناك غرابة أن تتطابق هذه النظرية مع نظرية القديس أوغسطين في الكثير من محاورها، لاسيما في وجهتها النهائية نحو دولة العدل العالمية، التي يقودها قائد يتم إعداده منذ مولده وحتى ذلك الحين، ما دامت النظريتان تستندان إلى عقيدتين تجمع بين مقولاتهما الأساسية هذه المشتركة. ليأتي الاختلاف محصوراً في تسمية هذا القائد العالمي الموعود، أهو المسيح الذي بمولده ابتدأ التاريخ الميلادي، والذي يعيش حياً في السماء بانتظار لحظته التاريخية؟ أم هو المهدي المنتظر المولود سنة ٢٥٥ هـ، ٨٦٨ م، بحسب العقيدة الإمامية، والذي يحيا في الخفاء بانتظار لحظته التاريخية؟

وهذه اللحظة أو تلك، أو كلاهما مجتمعتان في لحظة تاريخية واحدة، تشكل مفصلاً أساسياً من مفاصل تخطيط إلهي مقصود منذ الأزل. وسوف لاختلف عن هذا السياق أي نظرية دينية أخرى تنظر إلى هذا اليوم الموعود على أنه هدف مقصود في تخطيط إلهي شامل، يسخر لأجله قوانين الكون وقوانين المجتمع والتاريخ.

إنه وفق هذه النظرة إلى التاريخ سوف لا يبقى للارادة والاختيار



الانسانين معنى حقيقي، إلا في حدود امتثال مقتضيات التخطيط المسبق، والسائر نحو التحقق المحتوم. ولم تعد التجربة البشرية ذات قيمة مادامت القوانين الاجتماعية والتاريخية ليست قوانين ثابتة ومستقلة، وإنما هي مصممة بحسب مقتضيات التخطيط العام، وعندما يقتضي التخطيط العام تغييرها أو تعطيلها فإنها تتغير أو تعطل لا محالة. ولم تكن التجربة نافعة في تغيير واقع الحياة الاجتماعية إلا في المرحلة الأولى الموعلة في البدائية من حياة المجتمعات البسيطة، أي قبل أن يتوفر الإنسان على القدر الأدنى من الوعي والقدرة على التفكير. حتى إذا أصبح قادراً على التعلم من التجارب المتكررة، قادراً على المستوى البدائي من التفكير، عجزت التجارب الحياتية عن أن تحقق له مزيداً من النمو والتقدم.

ولعله لهذا السبب لا تجد هذه النظريات نفسها معنية بالبحث في عوامل نشأة الدولة - الحضارة، وعوامل نموها واتحاطها، وإنما التاريخ كل واحد، تسير به عوامل التربية والتمحيص المرسومة في التخطيط العام له.

لذا فعلى الرغم من أن هذه الرؤية تنطوي على فكرة التقدم في التاريخ، التقدم نحو هدف أعلى، إلا أنها رؤية لا تاريخية، لأنها تفرض - أولاً - ثبات النقطة التي يتحرك نحوها التاريخ، ولأنها تفرض - ثانياً - عدم جدوى الإرادة الانسانية، إذ إنها نهاية ستأتي عن طريق تدخل الله، ولأنها - ثالثاً - لم تنظر إلى التاريخ من خلال ظواهره وصورته الواقعية بقدر ما تنظر إليه من خلال رؤية تجريدية متعالية.

وأخيراً فإننا من وجهة النظر الدينية الإسلامية سوف نكون أمام

اتجاهين مختلفين في تفسير حركة التاريخ، هل هي بفعل الهي مباشر مرسوم منذ الأزل، أم هي نتاج قوانين تاريخية وضع الله الخلق والأشياء بحسب مقتضياتها؟

فأمام مثل قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾^(١)، هل نحن أمام إرادة إلهية سمحت بظهور الطغيان، ثم أنزلت العذاب مجسداً في صورة قوانين الطبيعة؟ أم نحن أمام علاقة فلسفية اجتماعية بين الطغيان ومظاهره المتعددة، بين الهلاك وأسبابه المختلفة؟

وإزاء مثل قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾^(٢)، هل نحن أمام تخطيط مسبق سمح للباطل بالظهور، أو خلقه مباشرة بحسب الجبرية الخالصة، ثم أنشأ الحقّ وقذف به الباطل فدمره؟ أم نحن أمام سنة تاريخية تتحدث عن صراع الحقّ والباطل، فحيث ما استشرى الباطل بأي من مصاديقه، تسبب في ردة فعل تأتي بالحق، يخوض معه صراعاً تاريخياً، تكون فيه النتيجة النهائية في غلبة الحقّ واندحار الباطل؟

ويعبارة أخرى هل أحداث التاريخ مقودة لعلة غائية بعيدة، هي التي تستدعي حدوثها وتحدد وجهاتها سلفاً، أم أنّ لهذه الأحداث عللاً قريبة

(١) سورة طه: ٨١ / ٢٠.

(٢) سورة الأنبياء: ١٨ / ٢١.



وسابقة هي التي أنتجتها وحددت وجهاتها؟

لقد استوفت النظرية التي تناولها هذا البحث جوانب الاجابة على هذا التساؤل وفق الوجة الاولى، فيما جهود أخرى تسعى إلى تركيز الوجة الثانية، باعتبارها تمثل التفسير الإسلامي - القرآنى لحركة التاريخ، كما عند اقبال اللاهوري ومالك بن نبي ومحمد باقر الصدر، مع وجهة ثالثة تسعى للتوفيق بين الاتجاهين مثلتها دراسة عماد الدين خليل في كتابه (التفسير الاسلامي للتاريخ).

الشهيد الصدر الثاني رَضِيَ

صفحات لم تقراً

بقلم

سميحة العلامة

السيد فاضل النوري

تمهيد

في سيرة هداتنا و حياة افذاذنا مواقف باهرة تشكل المعالم الكبرى للخط والمنهج والسلوك، تلك المعالم التي يجب ان يرسمها الافذاذ ومواضع التأسي للسائرين على خطاهم في مدلهما الدروب ومهاها السبل، ما دامت القلوة الحسنة هي ادل الدلائل على الغاية، واقصر المسافات إلى المطلوب، وما دام التزام الاسوة الحسنة هو اوجب الواجبات في فريضة الانقياد والمشايعه، واصدق البراهين على الحب والالترام.

وقد تكون في ذلك التاريخ الشامخ للعظماء صفحات زاهرة حجبتها اطواق التعقيم، او كنوز ثمينة لم يعرفها الطالبون، او جواهر مفردة تغشاها صدا السنين وغبار الغفلة، فبقيت غائبة او مغيبة في زوايا الحجب والاهمال والتضييع، وظل تأثيرها الخلاق في مكمن القوة بعيداً عن جلوة الفعل والظهور المبدع، بانتظار من يلزمه الانصاف والتكليف والوجدان المبادرة إلى الاظهار والعرض، ليأخذ موقعه المرسوم في صنع النفوس، وابداع التيار، ورفد المسيرة الانسانية بمواكب القيم المجسدة في خطى المتأسين الذين يتطلبون الكمال في مشاركته وآفاقه ومستناراته، ليدوقوا لذة التسامي وبهجة الارتقاء في مدارج العلياء.

وربما كانت في تلك الصفحات البليغة كنايات واستعارات لا تفصح عن نفسها الحصان المتمنعة بين اسوار الاستغلاق الا بمفاتيح الفهم المتعمق



المحظوظ بالنباهة الفاردة، ليجد المحلل الفاتح المحبور روعة المقصود في استنطاقها، ويكون في شرحه المراد منها للآخرين قد أدى دوره اللازم في الكشف عن التجليات الرفاعة لتلك الكلمات السلوكية التي عيّت بها العلوم، وتفرد بفهمها الراسخون في علم الابعاد القصوى للمواقف السامية التي كادت ان تكون بشموخها وترفعها مجردات لا تُحسّن في الواقع الجلي، ومثلاً تحلّق في سبحات العقل النظري.

وفي الطليعة من عظامتنا الأبرار الذين رسموا لنا المسار الفذ بفعالهم قبل اقوالهم كان المرجع المصلح الشهيد الصدر الثاني (رضوان الله عليه).

وكان من لطف الله سبحانه بي ان اكرمني بمعاشيته، والتلمذ على يديه، والاستتارة بضياء سلوكه وحكمته وموعظته مدة وجيزة، وقد رأيت منه من الحالات والمواقف، وسمعت منه من التوجيهات والآراء الهادفة المرية التي غاب عني مغزى البعض منها حينها، حتى مرّت الايام لتشهد له فيها أنه كان مع الحق والسداد، وعلى سبيل الرشاد.

وسأحاول جاهداً استحضار سني ما شاهدته وبديع ما سمعته في محضر تلك الاستقامة المحمودة والكرامة المشهوددة، وعرضه في مدى المتاح في هذا البحث الموجز على عشاق هذا الرمز الباهر المبين، ليزدادوا معرفةً وبصيرةً بحقيقة ذلك الانسان النازه الامين، وليستنبهوا بتلك المحاسن الملائكية المشعشة في ذروة البهاء، وليستصبحوا بتلك الكلمات الربانية المفعمة بالصدق والنصيحة والضياء، قد تنفس عنها صبح المكرمات والفضائل، في تجربة ذلك الطهر اللألاء المائل.

الجانب العبادي

الركوع، والسجود، والدعاء، والضراعة، والصبابة المقدسة، والدموع المغرمة السجوم، والذكر الندي الواصب، والبدن المنذور الدائب، وحماسة الاحرام في معارج القرب والرضوان، وحمية الهيام المذيب في مصهر الشوق والعرفان، في تلك العبادة الخاشعة المكلفة بغار العشق واليقين، وذلك الشغف الروحي الذي اذاب فؤاده للهيف في سبحات التبتل المكين، وبدا جلياً على مظهره الوداع المبرور، شاهداً على سره الهفهاف في عرائش الطهر والنور - كل اولئك كان هو الاسم الثاني لهذا العملاق العبادي الذي كان حافزنا الى استذكار عمالقمة العبادة في تأريخ النبوات والحماسات القلبية الشامخة التي جسدت ذلك الألق العرفاني الذي شع في ظلام الحياة اقباساً للسراة، والمدلجين، والباحثين عن مطلع الاصباح في نعيم الوله المقدس، الموصول بذروة المنى، في غمرة الاشواق والاشراق.

وكانت الاسباب القاهرة كالمناسبات وغيرها - من الوشاة الذين كشفوا ستر ذلك الحب الشريف الذي سعى من سامره وهو الصدر العارف، ان تكون مصاديقه وتجلياته من بدائع الخفاء في حرم الخلوص، وقاصرات الطرف في خيام الوحدة، والانفراد، والخلوة الانوس، على انه لم يعلم في هذه ايضاً من يشي به، وهو هذه المرة ابوه (محمد صادق)، متشكياً ولده الاثير الى استاذة (الصدر الاول)، متوجساً من افراطه في العبادة، وقسوته على نفسه في اجوائها المشحونة بالالاحاح والوصوب.

ويكون رد الاستاذ البصير على الشاكي الشفيق:



(دعه وشأنه، لا يتقل عليك ما هو فيه، وحسناً يصنع السيد محمد).

عندما تتوفى والدة هذا العابد المشغوف يظل قرب جنازتها حتى الصباح في المستشفى، في ابهى اطوار عبادته، وعرفانه، وتجرده، وانميائه في سبحات الوصال الفريد، وينقطع بعد ذلك للصيام عنها إلى يوم اربعينها. كان امراً مألوفاً ان نراه عند مرقده امير المؤمنين عليه السلام: زائراً، ومصلياً، او مستغرقاً في الدعاء، لا سيما دعاء كميل ليلة الجمعة، ودعاء السمات قبل غروب يومها.

كان الليل البتول الطافح بالمشاعر البارعة والعبيرات الخاشعة - ربيعه العابق النشوان، وكانت هداة الدجى المسهدة المفعمة باللهفات الضارعة - جنانه الزهر يسامر فيها النجاوى الخضر بالوله الفيضان، وكانت نوافله المستلهمة المفتونة بجلوة الوصال السني البهي تطوف به بعزمة الاشواق الحرى في افضية السحر والبهاء والجلال، منداحة المدى، شديدة القوى، تحدوه قهارة الى رحاب التجرد والكمال، فيمضي متيماً، متين الوجد، واجضاً، لا يلوي على هاجس، ولا يعنو لطائف، يجوب عوالم الانجذاب الوثر، شاعراً، مستوفراً الاحساس، عبقرى الخيال، مستهماً، مسعور الجوى، مستغرقاً في براعة المناجاة الودود التي يحس ان قلبه المشبوب العميد يصوغها لسانه المستأنى تراتيل مثلى تنزلت من بلاغة الوجد والتهيام، ويتأرجح بها في روحه المدلّهة الولهى عبقات جذلى توضع في رياض الانس والسلام.

العجائب الاخلاقي

كان هذا المعلم ظهير المعلم السالف، ونتاجه الطبيعي، فمن اللوازم الاكيدة والقريبة لصدق العبادة - حسن السلوك، والتحلي بأرفع الفضائل والقيم، والتزام محاسن الاخلاق، حقيقة تتجسم فيها قضية القرب من الله معدن الخير والجمال، الذي تشع منه على اوليائه انوار جلاله وبهائه، ليجعل منهم مطالع الضياء ومناهل الرواء.



وكان درسه الاخلاقي في ليالي شهر رمضان، ونفحاته التربوية في المناسبات، وفي اثناء دروسه العلمية ومحاضراته وغيرها - اللسان الناطق بالقيم التي عشقها الصدر، واتخذها شعاراً ودثاراً. وان يكن لسان التطبيق والفعل اشد تأثيراً في نفوسنا نحن تلاميذه في تلك الحلقات الاخلاقية الرفيعة، الا ان علم الاخلاق الذي شاء الصدر ان يجعله الحاضر الفاعل الهادي في منهاج الحوزة التعليمي - كان بتلك اللغات الرائعة، والتوجيهات السديدة، والتحليلات المعمقة، والجهود المبرورة الموفقة - يشد السامع بل يذيبه في فهم حقيقة المطلوب منه في كل تجربة العمر، من ساعة التمييز والتكليف إلى مشهد القبر، ما دام مبتغى الرسائل وهدف بعثتها، وعلى رأسها الرسالة الخاتمة هو:

(انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق)

وما دام المنحى الاخلاقي هو الشرط الاول في صلاح طالب العلم، وتوفيقه، ووصوله إلى كماله الذي ينطلق منه إلى ان يكون مسدداً لنفسه، رائداً لها وسواها نحو الغاية المرسومة، وهي رضا الله بسلوك رسالي ملتزم،

تثيره المثل السامية، وتعطره الشمائل الرضية، فحين يكون هذا الطالب في منأى عن الفضائل الخلقية يتحول بما يتروذ به من طاقة فكرية غير معتممة بعروة القيم إلى قوة مدمرة تنفجر في داخل ذاته المنفلتة، ليستحيل خطراً مفزعاً، ويصير في الناس اسوة شر، وقدوة سوء، ووسيلة صد واصطباد. وعلى هذا شواهد التاريخ في الذين انفصل لديهم العلم عن الالتزام، وباينت الاخلاق فيهم الفقه، وصار فهم الشريعة عندهم وسيلة إلى الدنيا، ومتجراً من متاجر الطامعين، وتحولت الفتوى سلاحاً رهيباً بيد من جانف السجايا النبيلة، ومشى على جادة الهوى.

وتكون النتيجة النهائية كما يصرح الصدر ان يقف هذا الطالب وامثاله أمام مسيرة الظهور، ويتحول إلى جندي من جنود التيار المضاد، الذي تشتد مصيبة الامة فيه حين يكون طالب العلم من اعوانه وابواقه، وما اشد وقع عبارة الصدر في هذا الصدد حين يعلن لنا:

(من قال اننا لهذه الحالة الاخلاقية التي نحيا بها سوف لا نقف في وجه المهدي، ولا نكون اول من يحاربه وينائوه؟ وهل لنا معها إلا بالمكابرة الخادعة وتسويل الغرور ان نحلم بأن نكون من جنوده وانصاره؟)

ولا اريد ان اتعرض في هذا المجال للمفردات الباهرة البادية التي امتلأ بها القاموس المعلن لحياة الصدر المشرقة باتوار الخصائص الخلقية العالية، فهذا تكرار قد يراه القارئ لتلك السيرة الكريمة مُملاً، واكفي هنا ببيان الموارد التي رأيتها، وارى لزاماً ان اعطر بها هذا الجانب من جوانب

الحديث عن ذلك الوجود الشريف المنيف.

لقد كان صبره قدس الله نفسه كما هو المشهود فريداً في الطاعة، وعن المعصية، وعلى المصيبة، وعند الداء والبلاء والظلمة. ويلتعمق في افق هذه السجية البهية صبره على الظلمة التي تجرع كووسها الحنظلية الدهاق منذ الخطوة الاولى التي خطاها عاشقاً واثقاً خلف استاذه ومقتداه الذي احتوشته النوائب والاحزن الغضوب، حافدة اليه من كل صوب، فنال كأسوته نصيبه الوافي من اوجاع القلب في منتهى الالسم بلا بزم، ومن عُصاب النفس المرير، والههم المأزوم، والاسى الموسوم بالتفرد.

ويبرز لهذه السجية ايضاً صبره على ما كان يسميه بعض محبيه بلاء ايوب عليه السلام، وهو داؤه الجلدي الذي تعايا طبيبه، وبلغ به اقتدار هذا الصبر الحصين مبلغ الانصراف عن الدعاء لنفسه بالشفاء كما فعل ايوب، وحين كنت ارجوه وانا اعتقد انه مستجاب الدعوة ان يسأل الله خلاصه من ضره، كان يقول مستمسكاً بعروة اليقين الوثقى، ساكناً غاية السكون الى خيرة ربه، راضياً منتهى الرضا بقضائه:

(الله يعلم حالي، ولو كان يرى صلاحى في شفائى لفعل، وانا لا اطلب منه الا الصلاح الذي يرتضيه لى، والذي قد يكون في ما انا فيه من هذا الداء)

التزهد، والانصراف عن بهارج الحياة الدنيا وزينتها، والظهور بمظهر البساطة والترايبية، كل هذه كانت المعنى الزاهر الآخر لهذا العبد المجتبي المحبور بالقناعة والرضا. وقد كان (رضوان الله عليه) مضرب المثل في



هذه الخصائص الرفيعة، وأسوة الاعم الاغلب من قطاع الحوزة الذي يكابد
الحرمان وشظف العيش، فيجد فيه السلوة والعزاء، ومصدق ما اراده جده
امير المؤمنين لائمة العدل ورموز الامة:

(ان يقدروا انفسهم بضعة الناس كي لا يتبغ - يشتد - بالفقير

(فقره)

ولم اشاهده قط الا في اجواء الروح الصافية، المتعبدة، المتسكة،
المتحررة من قيود الدنيا واغلالها، داعياً إلى العزوف عنها، والقناعة بما قسم
الله من ميسور حلالها، وعدم التفكير بالتزوع اليها، فضلاً عن الاستغراق في
همها وغمها، مؤكداً على تركها لمن يريدونها جاهدين ان يظفروا بزيتها
وطياتها.

وفي تصوري ان هذا المعلم من معالم تلك الحياة الشريفة هو من أبرز
ملامح اليقين في ذلك القلب العامر بحقيقة الإيمان، وروعة الاسلام الحق،
حيث تعاضدت المشاعر والمظاهر لتكوّن التجسيم الفذ للهيام في ذات
المحجوب الاسمى، والسعي الصدوق الى قربه الاذنى ورضاه الاوفى.

كان مألوفاً لدينا جداً ان يعايشنا بلباسه الرث او الممزق أحياناً،
وحذائه المتهاك، وهو يبحث مثلنا في السوق عن اليسير الزهيد مما تعج بها
من لذائذها التي بحث عنها الآخرون بواسطة خدمهم وحشمهم، فجلبوها
لهم، ليتنعموا بها، وهم يحسبون ان في تبرير الشأنية بلا قيود، وفي تسويغ
المكنة بلا حدود، وفي مندوحة الحلية بلا ضوابط - عاذراً عن الملام،
وحجاباً مستوراً عن سوء الكلام.

وكانت طلعتة الملكوتية الساحرة في تلك المعاشة الأخاذة - بلسم القلوب المكلومة، واتيس الأرواح المغمومة، حيث وجدت في دنوه عزاءها المنشود، والفت في مواساته غوثها المفقود.

كان يتقرب إلى الله بدعوة بعض الطلاب إلى مائدة افطار في بعض ليالي شهر رمضان المبارك، وحين كنا نلذ بهذا الافطار منسابين، كان هو في تمنعه المستحوذ يقتنص منه ايسر ما فيه مما يناسب حالة الزهد، ليكون بلغته في افطاره.



حين يهدي اليه احد مرديه عباءة جيدة، يجد انها لا توائم خصيصة تعففه وترفعه عن مظاهر الدنيا، وهو يتذكر أباه الاكبر، قدوة المتعفيين والمترفعين، علياً عليه السلام يقول للرادة الهداة المسلين:

(لقد رَقعت مدرعتي هذه حتى استحيت من راقعها)

ويقوم الصدر الزاهد باهداء هذه العباءة الى فقير في تلاميذه، ليكسب رضوان الله بالتزهد والمعونة، ولا زال هذا التلميذ يحتفظ بهذه العباءة اعز ذكرى من أحب ذاكر.

حين اضطرته الظروف القاسية الى ان يكون حيناً من الدهر مع زوجته مستقلاً عن والديه، يكون دأبه ان يقصدهما في كل يوم كفاء ما يتطلب برهما والاحسان اليهما، ليقوم لهما بفریضة الاكرام والاعظام، وينجز كل ما يحتاجانه من امور البيت من: كنس، وغسل، وطبخ، وتنظيف، ولا يجد الصدر الفدّ في مفاهيمه الاسلامية وسجاياه الخلقية ما يسوّغ له تركهما وشأنهما، او الطلب من زوجته بالالزام او الرجاء ان تقوم مكانه بذلك، او

تشاطره اياه، على رغبتها العارمة في التفرد به او المساهمة فيه، فقد كان يرى ان وظيفة البرّ هي تكليفه لا تكليف غيره، وان واجب الزوجة في شرع الله للزواج يتجسد في امور ليس فيها خدمة له ولا لمن يحب، وان المرأة انيس لا خادم، وهي كما علمه الاسلام ريحانة وليست قهرمانة. ومن هنا كانت ام مصطفى تنعم في ظلاله الفيح بعائدة الوداد، وروح الحنان، وعافية الرفق التي هي لوازم فطرية جبلت عليها النفوس السوية في معاشرة الأزواج:

(وجعل بينكم مودة ورحمة)

ولا غرو بعد ذلك ان تجد هذه المرأة الجليلة نفسها بعد فراقه ملتاعة، تتميزز كأس العلقم، في عناء مفرط، مستشيط، تستثيره عوادي الاسى المشبوب، وتستجيشه مراحل الوحشة في هواجر النوى والحرمان من تلك الظلال الوارفة التي استروحت فيها عبير الهناء باعذب الوانه، ولا عجب ان اراها - وأنا اسلم عليها واعزيتها في (عرعر) على الطريق الى مكة - ملتاعة، اسيانة، في أجلي مظاهر الشجن، لتقول بأبلغ الافصح عن مكنون وجدها الموار في اعماقها:

(لقد بقيت وحدي)

ويا لها عبارة موجزة حاشدة بالمعاني الشعورية الطلسمية التي لا يدرك كنهها الا من عرف حقيقة العلة التي كانت بين ذينك الزوجين الكريمين اللذين وشجت بينهما آصرة الدين والقلب، وجمعتهما علاقة الروح والرحم.

حين ينقل اليه بعض محبيه ان احد رجالات الحوزة يتجنى عليه، يقول له الصدر في تفسير ذلك منطلقاً من صفاء الروح السامية المتطهرة من ادراغ الغل والغیظ والانفعال الظلوم:

(انه بريء في موقفه مني، وهو لم يتجن عليّ بدافع الظلم لي بلا مبرر يراه صحيحاً، بل بما لديه من القناعة التي هو معذور بها امام الله، وان كانت في حقيقتها خاطئة، والله لا يؤاخذها بها لانها حجة له في ساحة العدل، حيث دقة الحساب المحصي المستقصي الذي ينظر الى علل الافعال ودوافعها قبل نظره الى هياكلها الشاخصة).

وعلى هذا المنهج الخلقي السوي كان الصدر رضوان الله عليه يحمل فعال المؤمنين واقوالهم على احسن المحامل.

حينما يُرغب اليه في تسمية الرجال المؤهلين لخلافته بالعلم، يتأبى عليه دينه وضميره الا ان يذكر من تمليه عليه امانة وجدانه، وان لم تكن له في ذلك عائدة ولا فائدة، رغم ان نقرأ من مرديه اوضحوا له بدافع الحب ان في من سمى من اسأوا اليه ولم يحسنوا، او لم يكونوا من انصار مرجعيته على الاقل. لقد كان فذاً في انصافه، ولم يكن في نزاهة عدله وميزانها المعصوب بدمام الورع السيد المستعصم - دور للشنان الحائف، ولا للتأثر الميون، ولم تفتله عن سواء السبيل في حكمه خوادع الهوى والنفس الامارة، فهما مزومان بزمام ضميره المعشوشب بالاستقامة المحيطة المقتدرة، فلا عجب ان يكون في هذه المفردة وسواها على وصف ربه:



قواماً بالقسط، شهيداً لربه ولو على نفسه.

عندما كان يرى امر الوحدة الجامعة بين اعظام الحوزة ثم بين اوساط الامة بالمتابعة - فرضاً حتماً، كان نداؤه بالدعوة اليه جاهراً، يملأ الاسماع من على منبر الكوفة، يحدث القلوب بارق عبائر الالتماس، وكان سعيه في ذلك دؤوباً حتى على مستوى طرق الابواب التي لم تكن مشرعة في وجهه، حيث مدّ يد الاخاء والصفاء نقية بيضاء، وكان سعيه كذلك الى هذا المبتغى حتى بطرائف الذكر الحسن للشخص التي اقترنت في خاطره بالموافق القاسية التي اصمت فؤاده الجليل، وأرقت ليله الطويل، جاهداً ان ينسبها الى معادن الخير من افضل السبل في منهج الانصاف، وينحو بقسوتها على حرمة شطر وثوقها بعذرها في ذلك الاستخفاف.

وكان من لطف الله سبحانه بهذه الانفاس الوحديّة النبيلة الصادقة ان بارك فيها، فانتلفت عليها كلمة الجميع من بعده، وبارك في مشروعه التوحيدي الشامل للامة، المتمثل بعودة الفريضة الغائبة (صلاة الجمعة)، فصارت دأب الجميع حتى من نبزوها، وبارك في قدر ذلك الهمام الفاتح الكبير فترك عليه في الآخرين سلام الثناء وعَبَقَ الاطراء، وبارك في خطه وتياره فصيّر حديث الساحة، وجعله ملء عينها وفمها وميادينها.

اما طيب معاشرته، وعذوبة مجالسته، وسحر تواضعه، وخفض جناحه لاخوانه المؤمنين، ولتلاميذه ومريديه، فهي امور فوق الوصف، وقد رآه القاصي والداني مباشرة وعبر الصور والنقل المتواتر، وهو يضرب اروع الامثلة في السماحة، وسعة الصدر، ولين الجانب، والدمائة، والبشاشة،

والانفتاح، والاستيعاب الشفيق، وعدم الضيق بالآخر، او البرم به مهما كان. وكان رجاؤه من مراجع الحوزة الكرام ان يكون اي واحد منهم إمامه وإمام الجموع في صلاة الجمعة في مسجد الكوفة - برهاناً ساطعاً على ما عنده من روح الصفاء والصدق والوثام، وما يجري في عروقه من طبع التواضع، وما حباه به ربه من لطف السلامة من داء الغرور والكبرياء. وكانت قضية منعه عشاقه من تقبيل يده فريدة فنة من فرائد السمو النفسي والاخلاقي لدى ذلك الرائد المهنّب، الرصين، الذي لا يتعاضم على عباد الله، ولا يشعر في اعماقه السمحة المنقّاة من عاثبة التعالي وشوب الافتتان انه يفوق سواه في ميزان ربه الصارم اللقيق: (ان اكرمكم عند الله اتقاكم).



الجانب الجهادي

تمثل هذا الجانب المهيب في وجود الصدر بعدة مظاهر كان فيها طيّب الله ثراه الفائت الذي لم يلحق، وصاحب السبقة في مضمار المسارعة الى خدمة الرسالة ورضوان الباري سبحانه وتعالى. واهم تلك المظاهر:

المظهر الاول: الجهاد الاكبر (جهاد النفس)

وهذا امر لم يخف على احد من احبائه او خصومه، وكانت مصاديقه وفتوحاته اجلى من رائحة النهار، وان ما سبق من كلام في المجالين العبادي والاخلاقي هو غيض من فيض العطايا الخوالد لذلك الجهاد الوتر المستصعب الذي صارع فيه الصدر نفسه وهواه، فكان الظافر المتوّج باكليل الغلبة والنصر المؤزر.

المظهر الثاني: الجهاد الاصغر (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

وقد مر هذا الجهاد بمرحلة النشاط العلمي التخصصي على صعيد الحوزة لاعداد الكوادر الحوزوية التي تتصدى لتوجيه الامة، ومرحلة النشاط الثقافي العام الذي ابدع فيه الصدر مؤلفاته الفريدة التي كانت فتحاً باهراً سد في مكتبة الثقافة الاسلامية فراغاً كبيراً، واذا كان لخصائص الاستاذ الرشيد دورها المتميز في بناء الطالب النابه الاريب، فان أيادي العبقرية لذلك العملاق الذي يصفه الصدر بانه اعلم الاولين والآخرين بعد اهل البيت وهو استاذ الفاتح المهيب الصدر الاول - لا بد ان تتجلى في منحى التفكير لتلميذه، وفي عوائد قلمه، ومواهب علمه: روعةً، وتميزاً، وانارةً، وتأثيراً، واثراءً.

ثم جاءت مرحلة التصدي القيادي المرجعي، حيث وجد الصدر فرصته السانحة لتحقيق مشروعه الهائل للإصلاح.

ومما يلزم بيانه حول هذه المرحلة عدة مطالب اهمها:

أ- لقد كانت نظرية الشهيد السياسية للتغيير هي القيام بالامة بعد استقطابها، وضمّ شملها تحت لواء المرجعية الناطقة، في عملية توعية شاملة تجد فيها رسالتها، واملها، وطريق خلاصها الوحيد من محنة الضلالات القائمة التي جربتها فلم تلف لديها الا المتاهة والشقاء.

وكان (رض) يصرح لاهل خاصته بنظرته هذه، ويعتبرها البديل الناجح لاساليب التحرك الاخرى التي لم تثبت جدارتها في تحقيق الهدف المنشود. واذكر هنا انني بعد ان ساهمت مع مجموعة كريمة من اهل

العمارة في عملية البيعة التي تمت للشهيد الصدر الاول (رض) من كثير من الوفود المؤمنة الرسالية التي اقبلت من كل بلاد الرافدين الى ساحة المبايعة، حيث شعرتُ كغيري من المبايعين بالانس الذي لا يوصف لهذا العمل الاستثنائي في تاريخ انجذاب الامة الى زعيمها الفذ، وقبل عودتي الى العمارة التي كنت فيها وكيلاً لذلك القائد العظيم، وجدت من واجبي الادبي والذوقي ان اسلم على استاذي السيد محمد الصدر، واثلج صدره بما حصل من أمر البيعة... وحينما سمع كلامي في هذا الصدد واجهني بعدم ارتياحه لذلك، معلنا عدم ثقته بجدواه في هدف استراتيجي ضخم هو اعادة الامور إلى نصابها في رحاب الاسلام، وذكر ان عملاً يتم فيه اظهار الكوادر المؤمنة التي ربيناها بعد لأيٍ وعناء، ووضعها امام شاشة الرقابة الظالمة التي تبحث جهد سعيها عن وسيلة للتعرف عليها وتصفيتها - هو عمل غير سليم - وليس فيه الا الضرر على حركة الوعي الاسلامي صوب الغاية المرجوة، وان العمل الوحيد الذي نستطيع به الوصول الى تلك الغاية هو التحرك نحو الامة بالسبل المدروسة، لتحقيق التفافها حولنا، واسنادها الشامل لنا، وعند ذلك يمكننا ان نسعى بها الى غاية المرام من اوثق الاسباب.

ولم يكن الصدر (رض) ضد النشاطات الحزبية والحركية الاسلامية لايجاد التيار الاسلامي الذي يسعى الى التغيير من خلال برنامج المرحلة والتدرج في الجذب، والاستقطاب، والمواجهة، والثورة. ولم يكن له رأي مناوئ لهذا المنحى السياسي الذي يرى فيه سند المرجعية الرشيدة التي يجب ان تقود الامة على خطى رائدها الكبير وبقيادته .. واذكر لهذا الامر



انه (رض) قال لي في لقاء خاص جمعني بسماحته بناء على رغبته، وذلك في غرفته في مدرسة اليزدي الصغرى في النجف:

(ان السيد الصدر يريد من طلابه في الحوزة عدم الدخول او البقاء في العمل التنظيمي ((حزب الدعوة))، لا لعيب فيه، فهو ((حزب جيد، وله مستقبل))، ولكن السلطة الغاشمة عندما تحس بوجوده في الوسط الحوزوي ستبادر الى الهجوم على الحوزة، واقتلاعها من جذورها، وتدمير كيانها الشريف الذي حمل لواء الاسلام والمعرفة الى الامة على مر القرون، فمن اللازم حياطة لهذا الوجود الاساسي التخلي عن كل ما يعطي الذريعة للنظام الدكتاتوري لطمس معالمه، على ان العدد المنظم الذي ينتمي لهذا الحزب في الحوزة هو عدد ضئيل لا يكون لعدم وجوده أثر ذو بال في هذا الكيان الكبير الذي تقتضي الحكمة عدم التفريط به بوجود تلك الجماعة الحزبية القليلة، ومن الضروري لهذه الغاية ترك امر هذا التنظيم للشباب خارج الحوزة، ويكون همّ طلابها وهمّ العمل الحزبي خارجها هو العمل الرسالي في اطار المرجعية الصالحة، لاسنادها، وجذب الامة نحوها، وترسيخ دعائم نفوذها في اوساطها، وجعلها بعد التعبئة الثقافية والسياسية تشعر انها هي قيادتها الصحيحة التي تأخذ بيدها الى شاطئ السلام الحقيقي).

ولا يغيب عن بالي في صدد ما يعتقد صدر الثاني من (دور الامة في التغيير)، ما نقله لي الثقة من خواصه انه - قدس سره - كان يؤكد لهم ان نظريته في العمل السياسي تركز على ان الامة هي الاساس في قضية قلب

الاضاع الفاسدة، ووضع الامور على المسار الصحيح، وان تجربة السيد (أبي احمد) يقصد (استاذة قائد الثورة الاسلامية في ايران الامام الخميني رضوان الله عليه) شاهد على صواب هذا الاتجاه الذي اثبت فاعليته القسوى في تحقيق الهدف. وحين وجد الشهيد السعيد فرصته الاستثنائية بعد حرب الكويت والاحداث التي اعقبتها، انطلق بمشروعه الفذ الذي لم تترزع ثقته به لحظة واحدة، ومشى في كل الاتجاهات في هذا المسعى الكبير، وخطب الامة بكل مشاربها، ومذاهبها، وفصائلها، وشرائعها، ولم يغفل حتى العجبر من نداءاته الهادية التي وجدت القلوب امامها مفتحة الابواب، فاثرت فيها اثرها الهائل، واتشلتها من مهاوي التيه، واستفدتها من مخالب الشيطان، لتأسو جراحها بيلسم الايمان الشافي، وتفتح عيونها المعصوبة بالديجور على افق الهداية المشرق الرحيب.



لقد اخرج الفريضة الكبرى (صلاة الجمعة) الى الوجود من تحت دثار الحجب والتعتيم، فامتدت كالنور والنسيم، تضيء النفوس، وتنعش القلوب، وصار التيار الصدري بمنابر الجمعة وحشودها هو رائد الساحة، وصاحب الكلمة الفصل فيها، وكانت ظاهرة الحضور الاسلامي في صلاة الجمعة وبالخطبة الحكيمة التي وضعها الشهيد (رض) للحركة - ظاهرة استثنائية، لم تحصل طيلة تاريخ التوجه الاسلامي في ارض العتبات، حيث ثبت بالواقع الملموس صحة النظرية الصدرية التي اسسها الصدر الاول وهي (قيادة المرجعية الصالحة للامة)، وفعلها بالحكمة الفذة تلميذه البار، فارس الميدان (الصدر الثاني) على خطى استاذة الحبيب.

ب- لقد بلغت البراعة الصدرية في الحنكة السياسية حدا لا مثيل له حينما استغل بها لهدفه العظيم حاجة النظام القسوى الى امتصاص الغضب الشيعي المارد الذي عصف به في الانتفاضة الشعبانية المباركة، وعبر فيها عن هويته الاسلامية الصدرية التي هتفت بها الحناجر المليونية، منادية بظلامتها واخذ تأرها، وكان رجاء النظام ان يقوم مرجع من ذلك البيت الكريم بالتصدي، واخذ زمام المبادرة في ذلك الوسط المظلوم، ليصيب بضربة واحدة هدفين اساسيين هما: اسكات الصوت الشيعي الهادر، ثم تحويله بالتدريج بصلاة الجمعة وغيرها الى شبيه الحالة الاسلامية السنية التي لم يجد فيها النظام خطراً جدياً، ولم ير من منابرها في الجمعة وغيرها سوءاً، وكان خطباؤها يدعون لرمز السلطة بالحفظ والبقاء، لانه ولي الامر المفترض الطاعة!

هكذا حُلم النظام، وسوّلت له طموحاته الجامحة، اما الصدر فان فظنته النافذة اوحى اليه ان يغتتم الفرصة التي ان فاتت كانت غصة لا تقطع مدى العمر، فنشط في التحرك، مستغلاً ظروف ضعف الجهاز الحاكم، والضغوط المحيطة به من كل مكان، موهماً اياه انه لا شأن له في النشاط ضده، وما دامت الحرب خدعة كما يقول الدين والمنطق البصير، فان الكياسة الصدرية لا بد ان يكون لها حضورها الفاعل المؤثر الحكيم في توجيه الاوضاع، وادارتها بالطريقة التي تجرها في خطتها الذكية الى المراد، ودخل الصدر بهدفه وخطته في سباق مع هدف النظام وسكوته المؤقت، وكان على عجلة من امره ليصل الى ضالته المنشودة قبل ان يرتكب الجناة

جريرتهم التي كانت واصبة امام ناظره، واستعد لها، واعد الامة لفاعلتها بالكفن الذي كان وسام عزه المهيب، يبقى به على ألسنة القرون والاجيال، رمزاً للهداء والتضحية والاستبسال، يتحدى الموت وهو بين فكيه، متحصناً بعزيمة الصدق، وروح اليقين، وشموخ البصيرة. وحين بدا للصدر ان سيل الامة راح يهدر بين يديه بوثبة الولاء والوفاء - راح ينفذ حلقات الخطة المرسومة في مشروعه البديع، فطرح شعاراته السياسية بعدما كان يبدو رجلاً مهادناً، وادعاً، لا شأن له بالسياسة، ولا بتحدى السلطة، وقام باسماعها من منبر الجمعة مطالب الشعب، ليفهمها انه هو لسان هذه الامة، وداعية حقوقها.



والجدير بالذكر هنا ان النظام حاول بالترهيب اغواء بعض وكلاء الصدر في المناطق، واكراههم على ان يركنوا اليه قليلاً من الركون، ويقوموا بالدعاء لرئيسه وسلطته في صلاة الجمعة، وقد رفض الصدر التقى الباسل هذا الشين المخزي رفضاً صارماً، آمراً ان يترك اي وكيل يراد منه ذلك صلاة الجمعة التي لا يجوز ان تكون منبراً لنصرة الطغاة ولو بشرط كلمة. وقد امر في مقابل ذلك وكلاءه ان يتدرجوا في ثقاتهم صعوداً الى مرحلة الاعراض عنها، وان يبادروا الى طرح الشعارات المعادية للنظام بالكناية التي هي ابلغ من التصريح، وكان على رأسها شعار الرفض المهيب الذي ارتفعت به عقيرة قاندهم الصدر اولاً: (كلا .. كلا .. يا شيطان).

وكان تأسيسه - طيب الله ثراه - (المحاكم الشرعية) تعبيراً صريحاً عن انه يبحث عن حكم بديل يمهد له بهذه المؤسسة الوليدة. وقد اذل

الطاغوت في اعراس ميلاده من خلال الجمعة الموحدة التي جمع فيها الامة في الكوفة، ليخطف بصر الغي بنور الحقيقة الايمانية التي سطعت من افق المجد الصدري الرائد الذي عشقته القلوب، فانقادت مهطعة بحشود مليونية، تسخر من جموع ساقها النظام بالخوف والطمع الى بغداد، لتظاهر بالاحتفاء بيوم ميلاد جلادها.

وتحرك وكلاء الصدر القائد على خطه، وبانفاس شجاعته وجرأته، وعلى هدى وصاياه وتعليماته، واوشكت ارض العراق ان تكون بركان ثورة عارمة، تكون فيها الامة حمم الموت الزؤام الذي يأتي على الجناة والظالمين، ووجد الحكم الجائر نفسه امام داهية في السياسة والتدبير، قد خادع النظام، واستغفله، واتخذ سكوته جسراً الى اخطر مواجهة يمر بها هذا النظام في تاريخه، لانها كانت بسلاح الامة التي عزلها الصدر بتوعيتها عن جناتها، وادرك هؤلاء الجناة انهم ليسوا امام من ظنوا فيه السذاجة، والغفلة، ويسر الانقياد، فعملوا الانتقام منه قبل ان تستفحل أحبولة الصائد فتسد عليهم منافذ الخلاص.

ج- ان اروع ما في حركة الشهيد الصدر عليه السلام انه اعطى مفهوم التقية بعداً حركياً عجبياً، فهي في فهمه الشريف مرحلة انتظار الفرصة، ذلك الانتظار الصبور، الواعي، الكامن في مرصد الوثبة، والمتحيز للفعل المناسب في الوقت المناسب. وحين تواتي الساعة المطلوبة تكون التقية خطوات من التدرج في التعاطي مع استجابة الواقع ورد الفعل المعادي، حتى اذا كان ذلك الواقع بمستوى الطموح اصبحت التقية بتدبير القائد

اللبيب نقطة الصفر لانطلاقته المباركة التي يجب ان تكون بحق درساً مهماً للعاملين الذين فهموا روح الشريعة، واستلهموا حكمة العمل من مسيرة الأئمة الهداة الميامين، في وحدة هدفهم، وتنوع ادوارهم، وطريقة تعاملهم مع الظروف والاحوال والمتغيرات التي لو كان فيها مثل ظرف الصدر لوجد فيه من عاشه منهم ارضية سمحة لمهمة التغيير.

ان التقية التي كانت عند الكثيرين على مر العصور مرتعاً للراحة، ومبرراً للخلاص من همّ العمل الرسالي الذي يعرض صاحبه للمكابدات والمخاطر، وكان عطاؤها لهم اعماراً مديدة، وحياة رغيدة -صارت في قاموس الصدر السياسي فلسفة للحركة البصيرة، المتدبرة، التي تخطط بمتنهى الحكمة لأعلى الظواهر الحركية، واوفرها حظاً من الشمولية والابداع والعتاء على يد ذلك الرجل الذي ظنه الآخرون (درويشاً) قد طلق شأن الحياة، واتزوى في صومعة العزلة، نائياً بنفسه بمندوحة البعد عن الهلكة، وسعة الفرار من مظان الضرر - عن مواجهة الواقع الفاسد، بعزيمة الاصلاح وروح المسؤولية!

والطريف في شواهد السداد في خطى الصدر ان من لمزوا تقيته ومداراته في مشروعه الفذ قد حكموا بالصواب على خطاه الواعية حين خطّوا هم مثلها او اجراً منها على طريق التعاطي مع استحقاقات الاخطر مما استهدفت به العقيدة واهلها في العراق وهو الاحتلال، وفيهم من كان الناس يحسبونهم دراويش ايضاً، ولكنهم استغلوا الفرصة، وبادروا فانتصوا سلاح التقية السياسية، وتدرّعوا بالمدارة، والاستيعاب، والانفتاح، وسعة الصدر



لجميع حتى اعدائهم.

نعم يبقى الفرق بين تلك الخطى الصدرية وهذه، ان تلك كانت على الجمر، تتحدى السيف في مدى سلطانه المهول المنعوت بأنه بلا نظير، وتتجرع صاب التهمة بأفزع مراراتها، اما هذه فقد كانت تتقدم نحو غايتها بعد زوال طاغيتها، وتحت غطاء الديمقراطية المزعومة، وفي نعمة النجاة من الاتهام من بيتها على الاقل.

لقد عاش الصدر مسؤوليته العظمى في مشروع التغيير الكبير في خطب فادح له ثلاث شُعب من الايلام: شفرة سيف الطاغوت المهادن بالمكر، وشفير هاوية التهمة الموفورة الدواعي في الظاهر، وسوط المداراة اللاذع في واقع عصيب موحل، فمن هنا كانت السلطة المحدقة تلوح بالموت الذي قرأ فيه الصدر حسن ختامه فانتظره كل حين، وعدّ به نفسه المقتول صبراً في اشرف الميادين، ومن هناك كان الظاهريون الغافلون عن الحقيقة المخبوءة في عمق الحكمة وبراعة التدبير الصدري يجاهرون ويستخفون بالقول بالظنون السيئة لاسبابها المشهودة، وهنا وهناك وفي كل مكان كانت ضرورات الواقع المعقد الموبوء بجهل الامة، والوان الفساد، ومكر الطغمة الحاكمة، وسوءات اؤلئك المندسين في التيار الذين لم يكن الصدر يجهلهم بل يتجاهلهم، ويتآلف بهم، وكانت مصيبتهم فيهم أنه ان تعاطى بهم جرّحه شائنه بعيهم، رغم ان لديهم امثالهم، وان اعرض عنهم تحسس منه الطغاة الذين دسّوهم، وكان هو يرجو ان يكايدهم بوجودهم في مساره، وقد أخرجته الجزع الاليم يوماً عن صبره المرير عليهم حينما

وصف حاجته اليهم بأنها حاجة من فقد الخيل الى التماس السروج لظهور الكلاب. لقد كانت المداراة هذه هي الاظع في مرارته ألا مرارة أنه ملزم بدواعي فطنة الريادة الكيسة ان يظل في مكنونه سليم النوايا، نقي الجيب، طاهر الذيل، لكنه في ظاهره ممكن المعابة من قبل المتمسكين بحجية الظواهر، محجوب بقهر الحكمة عن المجاهرة بالتفسير، والتبرير، وضرب الامثلة من خطى الهداة الميامين في سيرتهم، حتى اضطرته فورة الغيظ من سهام القذف الداعر الى ازاحة الستار عن بعض سره المقدس الغافل المحصن الذي ما كان صاحبه يتوقع ان يغيب عن ذوي البصيرة حيث استعصى ادراكه على الجاهلين، او ان يخوض فيه اولو الورع حيث انتهز فرصة الوثبة فيه من لا حريجة له في الدين والضمير. وكان في تلك الازاحة المفروضة قرار الاسراع بإنهائه، فكان بذلك قتيل التهمة العسوف، وقد عجل عليه من صوب اليه معابلهها، ففضى بجمر حسراته على أن لم يكن قد مشى في خطته الذكية الى متنهاها، وأن لم تسمح له الدواعي الضاغطة ان يلبث مع رباته المشحونة بالعزم والامل، ومرجعته الناطقة بالحق والحقيقة، ومشروعه الجماهيري المبدع المعطاء (صلاة الجمعة) - الا كفواق ناقة من الفرصة التي لم تكن كافية لانجاز المحاور المفصلية في تلك الخطة البارعة التي تحتاج الى المدى الوافي من الوقت، والصبر، والمداراة، وانتظار المطلوب الذي كانت تتسارع وتيرة اقباله باليمن، والبركات، والنتائج الباهرة.

لقد كان ذلك الرجل المهيب مثار الاعجاب والدهشة في خصائص



اندفاعه المارد العملاق حيث واتاه الظرف المأمول، فاذا به قائد نهضة لا
مثيل لها، ورائد انطلاقة تغييرية شدت اليها نواظر العجب والاكبار بأساليبها،
ومداها، وحنكتها، ودهاء مبدعها، وفورة النشاط الوثاب الذي تجيش به
همته القعساء، وسعة أمله في تحقيق ما يصبو اليه من مرام جسيم، وتخليه
لهذا الأمل عن أي مظهر من مظاهر التردد والحيرة والحياد، وولوجه له
غمرات المزعجات والغصص والخطوب، على يقينه بأن صارم السلطة
المرهف الغرثان، وعرامة غيظ المنفعلين الذين ما استقر بهم وضين، هما من
لوازم هذا المشروع التاريخي الذي يستحق له مدبرة الأمين الظافر وسام
الزعامة، وكرامة الظلامة، ومقعد الصدق في دار المقامة.

التفسير الصدري
قراءة النص برؤية كونية

السيد
عبد السلام زين العابدين

المقدمة

يؤمن المرجع الشهيد محمد صادق الصدر رحمته وفقاً لروايات أهل البيت عليهم أن الإمام المهدي عليه يأتي بـ «كتاب جديد» و«أمر جديد» و«سنة جديدة» و«قضاء جديد»، و«سلطان جديد»، و«دين جديد»^(١)



ويتساءل ما معنى هذا (الكتاب) الجديد الذي سيأتي به الإمام عليه والله كآتي أنظر إليه بين الركن والمقام يبايعُ الناس على كتاب جديد...^(٢) كما جاء عن الإمام الصادق عليه؟

ويجب على ذلك أن التصورات الأولية المحتملة عديدة، منها تصورات باطلة لا يمكن قبولها، وهي:

أن يأتي عليه بـ (قرآن جديد) في مقابل القرآن الكريم، معجزة الإسلام الخالدة. و«هذا باطل بالقطع واليقين، للضرورة القاضية بأن الدين الذي يلتزمه الإمام المهدي عليه هو دين الإسلام، وأنه يسير على كتاب الله

(١) يقول رحمته إنه لم يعثر على رواية تصرّح بهذا اللفظ الأخير «دين جديد»، وإن كان قد

اشتهر على بعض الألسنة. [راجع: تاريخ ما بعد الظهور: ٤٤٤] بيد أن هناك روايات بهذا

المعنى: «يستأنف الإسلام جديداً» الإمام الباقر عليه [الغيبة للنعماني: ٢٣٨]

(٢) بحار الأنوار: ١٣٥/٥٢.

وسنة رسوله»، و«قد تواترت بذلك الروايات، واقتضاه التخطيط الإلهي العام»^(١)

والإتيان بقرآن جديد، مخالف للأدلة «القطعية الضرورية»، ولذا «فمن القطعي أنه لا يأتي مستقلاً ولا بآية جديدة واحدة، فضلاً عن كتاب كامل»^(٢).
أن يعيد القرآن إلى شكله الذي كان عليه في زمن رسول الله ﷺ،
والأشكال المحتملة:

القرآن الكريم فذكر آيات أخرى

القرآن الكريم على ترتيب النزول

القرآن الكريم على ترتيب النبي ﷺ

وهذه المحتملات «غير صحيحة»، لأن «من المؤكد أن القرآن الكريم بشكله الموجود، هو الشكل الذي كان مرتباً بأمر رسول الله ﷺ»، و«الأخبار الدالة على وجود الحذف غير قابلة للإثبات»^(٣)
إذن، ما معنى (الكتاب الجديد) الذي سيأتي به الإمام عليه السلام، ويبيع الناس عليه؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لها تأثيرها على رؤية المفسر الشهيد في التعامل مع القرآن الكريم، وفي بروز أبعاد في عالم التفسير قد نجدها غائبة

(١) تاريخ ما بعد الظهور: ٤٥١.

(٢) تاريخ ما بعد الظهور: ٤٥١.

(٣) تاريخ ما بعد الظهور: ٤٥٢.

عن قراءة النص لدى العديد من المفسرين.

إنها أبعادٌ كونية، دولية، عالمية قلما تتوفر في اتجاهات المفسرين واهتماماتهم التفسيرية، وهمومهم الثورية، ونظراتهم المتألقة إلى مستقبل البشرية على ضوء النصوص القرآنية، والسنة والقوانين الماثوثة فيها وبكثافة، إلى درجة قد تجعل غير المطلع والعارف يبادر إلى اتهام المفسر بالتكلف والتحكم والمذهبية والأفكار المسبقة التي تخرجه عن شرط الموضوعية وعدم التحيز الذي يجب أن يوفره في قراءة النص وآليات التفسير والتأويل.

من هذا المنطلق سيكون موضوعنا: (التفسير الصدري قراءة النص

برؤية كوثية) دولية وعالمية، وستضمن مبحثين هامين:

المبحث الأول: الكتاب الجديد والتفسير الواقعي.

المبحث الثاني: الدولة العالمية والتفسير التطبيقي.



المبحث الأول

الكتاب الجديد والتفسير الواقعي

يرى السيّد المفسّر الصدر أنّ المراد من الكتاب الجديد، الذي يأتي به الإمام عليه السلام ويبايع الناس عليه، هو: التفسير الجديد للقرآن الذي يمتاز بالعمق والسعة والأصالة والمعاصرة والحداثة ومواكبة العصر، لأنّه عليه السلام سيعطي «المقاصد والمعاني الواقعية للقرآن الكريم».

ولذا يقول: «أنّ يكون المراد بالكتاب الجديد، أن المهدي عليه السلام يبرز للملاّ تفسيراً جديداً للقرآن الكريم عميقاً وموسّعاً، أو أنّه عليه السلام يعطي قواعد عامة جديدة تؤسس أسلوباً جديداً من التفسير والفهم للقرآن الكريم». «وهذا أمرٌ صحيح لا محيص عنه، فإنّه يمثّل حقلاً مهماً من العمق والشمول الذي يتصف به الوعي البشري في عهد الدولة العالمية العادلة. ويكون جانب الجدة فيه هو أنّ هذا الفهم الجديد أعمق من كلّ الأفهام السابقة، والناسخ بحقائقه كلّ الاختلاف والتضارب الموجود في فهم القرآن وتفسيره».

ثم يقول: «ولعل هذا هو المراد من الخبر السابق من حيث إنّهُ يراد من «القرآن على ما أنزل الله عزّ وجلّ»، المقاصد والمعاني الواقعية للقرآن الكريم، تلك المقاصد التي لم تكن واضحة بالشكل الكافي في العصر

السابق على الظهور. ويُراد من مخالفة التأليف، مخالفة الفهم التقليدي الاعتيادي الذي كان واضحاً في الأذهان في العصر السابق»^(١).

وفي كتابه (الغيبة الكبرى) يؤكد هذه الفكرة: «تعمق الفكر الإسلامي من حيث الفهم من الكتاب والسنة، سواء في العقائد أو الأحكام، مما يجعل الأذهان مستعدة أكثر فأكثر لتقبل وفهم الأحكام التفصيلية التي يعلنها المهدي عليه السلام في دولته العالمية الموعودة»، لذا فإن العالم الإسلامي سيشهد «مستوى أعلى» عند التطبيق العادل، على صعيد الفكر والثقافة والمعرفة^(٢).



وهذا التفسير للكتاب الجديد - كما يرى السيد المفسر - أوضح من التفسير المحتمل الآخر الذي يرى أن المقصود هو «التشريع الجديد، وإنما عبّر بالكتاب، باعتبار أنه مشابه للكتاب - أعني القرآن الكريم - في احتوائه على التشريع، أو باعتبار أن الكتاب الكريم يحتوي على الأسس الأصلية، ويكون التشريع الجديد مستمداً منه»^(٣).

المعاني الحقيقية والأحكام الواقعية

من المعلوم أن تفسير الآيات المباركة بوجوهه المختلفة، وأقواله المتنوعة، وما ترخر به كتب التفسير من آراء وأفكار وأحكام وتشريعات مستمدة من قراءة الآيات المباركة، لا تمثل - في الكثير منها - الدلالات

(١) تاريخ ما بعد الظهور: ٤٥٣؛ راجع: اليوم الموعود: ٥٣٧.

(٢) الغيبة الكبرى: ٣٣٨.

(٣) تاريخ ما بعد الظهور: ٤٥٣.

الواقعية، والمعاني الحقيقية، بل هي حصيلة ما استطاع المفسرون على اختلاف مناهجهم واتجاهاتهم أن يتوصلوا إليه، بقدر الطاقة البشرية، والوسع الإنساني من قراءة لكتاب الله، واستكشاف لمقاصده واستكناه لمعانيه. ولذا كان من الطبيعي أن تختلف التفسيرات وتتنوع القراءات، وهم يتعاملون مع نصٍّ حمّالٍ ذي وجوه، وبحر لا يدرك له قعر.

لذا فإن التشريعات المستمدة من القرآن الكريم، وكذا من الروايات والأحاديث، لا تمثل - بالضرورة - الأحكام الواقعية، بل هي أحكامٌ ظاهرية تتوخى ملاكات الأحكام الواقعية بقدر الإمكان.

وهذا النوع من الأحكام الظاهرية أصبح بعد الانقطاع عن عصر التشريع وإلى الآن مستوعباً لأكثر مسائل الفقه أو كلها تقريباً، ما عدا الأحكام الواضحة الثبوت في الإسلام^(١).

ولا شكّ فإن الإمام عليه السلام عند ظهوره سيعلن «الأحكام الواقعية الإسلامية بأنفسها»، ويكون كلّ حكم يبرزه «حكماً واقعياً» و«تشريعاً أصلياً»^(٢)، وبذلك تنحسر الأحكام الظاهرية التي كانت سائدة في عصر الغيبة، كما تنحسر معها التفسيرات (الظاهرية) للآيات المباركة التي كانت سائدة في عالم التفسير والتأويل، ليقرأ القرآن قراءةً واقعيةً، جديدة، لا تُخطئ المعاني الأصلية، والدلالات الحقيقية، والأبعاد العالمية، والمقاصد

(١) تاريخ ما بعد الظهور: ٤٤٥

(٢) المصدر السابق.

الكبرى التي ضاعت في زحمة الوسائل وأدوات التفسير التي تحولت إلى غايات، واستغراق المفسرين في الجزئيات بعيداً عن الكليات، وانشغالهم بأهداف ثانوية، وأمور جزئية.

يعتقد السيد المفسر أن هذا الأمر هو أحد الأسباب الأساسية فيما تحدثنا عنه روايات الظهور من أن «الإسلام بدأ غريباً وسعوداً غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء»^(١)، وأنة عليه السلام: «يقومُ بأمرٍ جديد، وسنةٌ جديدة، وقضاء جديد على العرب شديد»^(٢).

المنهج التفسيري الجديد

إن (الكتاب الجديد) لا يكمن بالتفسير الجديد الذي يقدمه الإمام عليه السلام للقرآن الكريم فحسب، وإنما يكمن كذلك - كما يرى السيد - بالمنهج الجديد الذي «بقواعده العامة» الجديدة «يؤسس أسلوباً جديداً من التفسير والفهم للقرآن الكريم».

وقد تحدثت بعض الأخبار أن أصحاب الإمام عليه السلام «يعلمون الناس القرآن كما أنزل»^(٣)، والمراد به - كما يرى السيد المفسر - «المعاني

(١) تاريخ ما بعد الظهور: ٤٤٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) عن الإمام علي عليه السلام: «كأنني أنظر إلى شيعتنا بمسجد الكوفة قد ضربوا الفساطيط يعلمون الناس القرآن كما أنزل» تأريخ ما بعد الظهور: ٥٣٦، عن الغيبة للنعماني بسنده عن حبة العرين: ١٧١.



الواقعية للقرآن، بعد وضوح عدم اختلاف القرآن عن عهد رسول الله ﷺ لفظياً.

وإذا « كانت وظيفة النبي ﷺ هي التنزيل، فإن « وظيفة المهدي عجلت عليه هي التأويل، أي التطبيق. وإن من أهم فقرات التطبيق وخطته: تفهيم الناس المقاصد الواقعية للقرآن الكريم، وتثقيفهم الثقافة العالية عن هذا الطريق، طريق الإمام المهدي عجلت عليه أولاً، وطريق أصحابه ثانياً»^(١).

والأساس في تفسير القرآن تفسيراً واقعياً، هو المنهج المتكامل في التفسير الذي يمتلكه هؤلاء الأصحاب والأنصار بتعليم الإمام عجلت عليه، والذي يتضمن آليات قراءة النص، ومبادئ التفسير، وأصول التأويل، مما يمكنهم من استكشاف الدلالات والمعاني، المنفتحة على الواقع الدولي والعالمي بكل أبعاده ومجالاته وآفاقه، ليكون القرآن هو المصدر الذي تستنبط منه الأحكام التي تتطلبها الدولة العالمية، وما تحتاجه البشرية من أفكار ومفاهيم وتصورات، وأنظمة وقوانين وتشريعات.

وأول ما يصطدم الإمام عجلت عليه مع المتأولين لكتاب الله، الذين جعلوا القرآن في خدمة الطغاة والمستكبرين والأنظمة الحاكمة المستبدة، بوصفهم من (أولي الأمر) الذين تجب طاعتهم، وعدم الخروج على سلطانهم، وفقاً للآية: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٢).

(١) تاريخ ما بعد الظهور: ٥٣٨.

(٢) سورة النساء: ٥٩.

عن الفضيل بن يسار، قال: «سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن قائمنا إذا قام استقبل من جهل الناس أشدَّ مما استقبله رسول الله عليه السلام من جهال الجاهليَّة.

قلتُ: وكيف ذاك؟

قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أتى النَّاسَ وهم يعبدون الحجارة والصخور والعيدان والخشب المنحوتة، وإن قائمنا إذا قام أتى النَّاسَ وكلهم يتأول عليه كتاب الله يحتجُّ عليه به»^(١).

وفي رواية أخرى عن الصادق عليه السلام: «وأن القائم يخرجون عليه فيتأولون عليه كتاب الله ويُقاتلون عليه»^(٢).

اطروحة الماثني: القواعد السبع والمستويات السبعة

في فهم (الماثني) التي تكون في أيدي أصحاب الإمام عليه السلام: «كأنني بشيعة علي في أيديهم الماثني، يَعْلَمُونَ النَّاسَ المِثَالَ المِثْلَ المِثْلَ»^(٣)، بعد أن يفسَّر (الماثني) بأنها «الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ المِثَانِي وَالْقُرْآنَ العَظِيمَ﴾»^(٤)، يرى السيّد الصدر أن التفسير المشهور لها -

(١) الغيبة، النعماني: ٣٠٧.

(٢) الغيبة، النعماني: ٣٠٨.

(٣) الإمام الصادق عليه السلام، مستخبر الأثر: ١٧١.

(٤) سورة الحجر: ٨٧.



وهو آيات القرآن الكريم^(١) - «لا يكاد يكون صحيحاً، فإن الآيات لا تنحصر بسبعة، إلا أن يُراد بها سورة الحمد خاصة، وهو تفسيرٌ وردت به بعض الأخبار إلا أنها لم تثبت، وهو - أيضاً - خلاف ظاهر الآية المباركة»^(٢).
 لذا فإنَّه يُقدِّم تفسيراً كـ «أطروحة محتملة، وإن كانت شاذة»^(٣) في معنى (السبع المثاني) - يراه الأوفق بالقواعد اللغوية والإسلامية معاً - وهو ما يعبّر عنه بـ «المستويات السبعة»، أو «القواعد السبعة العامّة»، التي تكون «متأخرة في الرتبة عن القرآن الكريم، من قواعد الإسلام العامّة». وأن «كل واحد من هذه الأمور السبعة يلي القرآن مباشرةً في الأهميّة، بحيث يعتبر كلُّ واحدٍ منها ثاني القرآن، ليكون الجمع بالمثاني أوضح وأقرب»، ذلك لأن «المثاني في اللغة هو ما بعد الأوّل من الأشياء. ومعه يكون الأوّل هو القرآن العظيم الذي عطفته الآية على المثاني»^(٤).

(١) التفسير المشهور للسبع المثاني سورة الفاتحة، كما جاء في الروايات. يقول العلامة الطباطبائي: «السبع المثاني هي سورة الحمد على ما فسّر في عدة من الروايات المأثورة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت ». [الميزان: ١٢ / ١٩١] وكذا «من طرق أهل السنة عن علي وعده من الصحابة كعمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وأبي هريرة وغيرهم». [الميزان: ١٢ / ١٩٧].

(٢) تاريخ ما بعد الظهور: ٥٣٨.

(٣) راجع بحثنا: منهج الأطروحة في تفسير (منة المنان) تأصيل وتطبيق.

(٤) تاريخ ما بعد الظهور: ٥٣٨.

أما ما هي هذه «القواعد السبعة العامة» التي تشكل المنهج والمبادئ والقواعد التي يفسر القرآن على ضوءها، والآليات التي يقرأ النص بها؟ يرى السيد المفسر أنه يمكننا «أن نعرف قليلاً منها: كالسنة والعقل والسيرة العقلانية ...»

ثم يقول: «والمظنون أن عدداً منها غير معروف أساساً، فإن المثاني إنما أوتيت إلى النبي ﷺ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾، ومن المظنون أن بعضها بلغه النبي ﷺ إلى الناس، وبعضه بقي مذكوراً إلى اليوم الموعود». ثم يقول: «وسواء عرفناها أم لم نعرفها، فاليوم الموعود، هو وقت إعلانها جميعاً»، وسيصبح أصحاب الإمام المهدي عليه السلام «عارفين بكل المثاني السبع، يطبقون متطلباتها ويفهمون الناس موجباتها وآثارها في حدود ما تقتضيه مصالح التكامل البشري يومئذ»^(١)، وذلك بفضل تعليم الإمام عليه السلام وهداه.

وإذا تدبرنا رواية الإمام الصادق عليه السلام: «كأنني بشيعة علي في أيديهم المثاني، يعلمون الناس المثال المستأنف»، نجد فيه - كما يرى السيد المفسر - دلالتين أساسيتين:

الأولى: أن المثاني في أيدي أصحاب الإمام عليه السلام، لا يعلمونها الناس، وإنما «يأخذون المثاني بنظر الاعتبار، من أجل إشاعة الثقافة العليا بين الناس». الثانية: أنهم يعلمون الناس المثال المستأنف، و«هو هذه الثقافة، وهي الأيدولوجية الكبرى التي يبشر بها المهدي في دولته».



«وإنما سَمَّيتِ هذهِ الثقافةَ بالمِثالِ المُستأنَفِ باعتبارِ أمرين: أحدهما: كونها مثالية (أعلى من الواقعِ المعاصرِ بكلِ مستوياته) بالنسبة إلى عصرِ صدورِ هذهِ الأخبارِ، بل بالنسبةِ إلى عصرِ ما قبلِ الظهورِ عموماً. ثانيهما: باعتبارِ كونها جديدةً على الأذهانِ غيرِ معهودةٍ لدى أغلبِ الناسِ، بل جميعهم في عصرِ ما قبلِ الظهورِ. فباعتبارِ الأمرِ الأوَّلِ كانت (مثالاً)، وباعتبارِ الأمرِ الثانيِ كانت أمراً (مستأنفاً)»^(١).

وفي ضوءِ ذلكِ يقرأُ السيدُ المفسِّرُ الرواياتِ والأخبارِ التي تحدَّثت عن جمعِ العقولِ، واكتمالِ الأحلامِ، وإيتاءِ الحكمةِ في عصرِ الظهورِ، «حتَّى أن المرأةَ لتقتضي في بيتها بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ ﷺ»^(٢).

إن حديثَ (المثاني) إن صحَّ أو لم يصح، وكذا الأطروحةُ التي قدَّمها السيدُ المفسِّرُ في تفسيره أو تأويله^(٣)، فإن ذلك لا يؤثر على أصلِ المبدأ الذي يقول بأن الإمامَ عليه السلام يأتى بكتابٍ جديدٍ بمعنى تفسيرٍ جديدٍ للقرآن

(١) تاريخ ما بعد الظهور: ٥٣٩.

(٢) تاريخ ما بعد الظهور: ٥٣٦.

(٣) يرى العلامة الطباطبائي أن الظاهر من المثاني «جمع مثينة اسم مفعول من الثني بمعنى اللَّيِّ والعطف والإعادة... وسمَّيت الآيات القرآنية مثاني لأن بعضها يوضِّح حال البعض، ويلوِّى وينعطف عليه، كما يشعر به قوله: (كُتِّبَتْ مُتَشَابِهًا مَثَانِي) الزمر: ٢٣، حيث جمع بين كون الكتاب متشابهاً يشبه بعض آياته بعضاً، وبين كون آياته مثاني... أو هي جمع مشى بمعنى التكرير والإعادة، كناية عن بيان بعض الآيات ببعض». [الميزان: ١٢ / ١٩١].

ومنهج متطور في فهمه واستكشاف دلالاته ومقاصده، يتناسب مع متطلبات العصر، وحاجات الدولة العالمية، التي تسقط طواغيت العالم وحكومات الجور، في الشرق والغرب، لتقييم العدل والقسط في ربوع الدنيا، تجسداً للحديث المتواتر: (يملاً الأرض قسطاً وعدلاً كما ملأت ظلماً وجوراً) وتأويلاً لقوله تعالى: ﴿لَيْسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَيْمَعْنَنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾^(١).

التفسير العلمي: الآفاق العالمية والدولية

إن الذي يفسر الآيات المباركة وفق قراءة لمستقبل البشرية، وما يشهده من نهضة كبرى، تتمخض عن إقامة دولة عالمية، فإنه يأتي بنظر الكثير من المسلمين بتفسير جديد غريب، وتأويل عجيب، بعيد عن اللغة والسياق والواقع، إلى درجة أنه يصنف مع الذين يحرفون كلام الله عن مواضعه، لمصالح مذهبية وطائفية، ويعيشون الخيالات والأوهام والأحلام، بعيداً عن الحاضر وما يخرجه من مشاكل وعقبات، ومحن وآلام ومعاناة. ذلك لأنه تفسيراً ينظر إلى الكثير من الآيات المباركة بأفق بعيد، ومنظور جديد، ومقاصد كبرى وأهداف عليا، فما بالك بالذين يعيشون عصر الظهور، ويمارسون التجربة العالمية في الواقع، ويسعون ليل نهار في تجسيد مقاصد القرآن وتشريعاته الدولية والسياسية على الأرض.

ولهذا يتعجب هؤلاء مما جاء في روايات أهل البيت من تفسير آيات



آخر الزمان وما يزرخُ به من أحداث ووقائع وعلامات، كما يستغرب هؤلاء إذا ما قرأوا موسوعة الإمام المهدي عليه السلام وطبيعة التفسيرات والتأويلات التي يطرحتها السيِّد المؤلف، على ضوء ما جاء من مدرسة أهل البيت عليهم السلام من أخبار وروايات.

بل إن بعض المتممين إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام يرون في العديد من تلكم التفسيرات والتأويلات التي تزخر بها موسوعة الإمام عليه السلام بعيدة عن مفردات القرآن وسياق آياته!

وهذا ما يجعلنا ندرك في عصر غيبته معنى «الكتاب الجديد» الذي يأتي به الإمام المهدي عليه السلام، في عصر ظهوره!

إن مشكلة التفسير القرآني، وقراءة النص، تكمن في غياب ما يمكن أن نسميه بـ (التفسير المقاصدي) الذي يسمو فيه المفسر إلى مقاصد القرآن الكبرى، وأهدافه العليا وآفاقه العالمية، التي ما نزل إلا من أجل تحقيقها وتجسيدها، على صعيد الفرد والمجتمع والدولة والعالم.

وما من شك فإن الدولة العالمية هي أحد أهداف القرآن ومقاصده، وقد «قام الأنبياء بدورهم في بناء الدولة السليمة، ووضع الله تعالى للدولة أسسها وقواعدها»^(١) ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا

(١) الإسلام يقود الحياة، محمد باقر الصدر: ٤-٥.

بينهم ﴿١﴾.

وعلى أساس هذه الآية يفسر أستاذهُ المرجع الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره نشوء الدولة تاريخياً، ويصفها بأنها «ظاهرة نبوية»، وأنها «تصعيدٌ للعمل النبوي، بدأت في مرحلة معينة من حياة البشرية»^(٢)، ويرفض التفسيرات الأخرى كنظرية القوة والغلبة، ونظرية التفويض الإلهي الإجمالي، ونظرية العقد.

إن الانكماش في الهدف، من المجتمع والدولة إلى الفرد، أدى إلى انكماش التفسير، لينشغل في قضايا فردية، بعيداً كل البعد عن قضايا الأمة الكبرى، وحركة التاريخ، ومستقبل البشرية، مما سبب التعامل مع القرآن تعاملًا ضيقاً، باهتاً، لا يتجاوز التطبيقات الفردية، والمجالات الشخصية^(٣).

(١) سورة البقرة: ٢١٣.

(٢) الإسلام يقود الحياة: ٤-٥.

(٣) راجع: موضوع (الاتجاهات المستقبلية لحركة الاجتهاد)، محمد باقر الصدر (فقه



المبحث الثاني

الدولة العالمية والتفسير التطبيقي

في ممارسات مفسرنا محمد الصدر التفسيرية، وتطبيقاته القرآنية، تتبدى الرؤية الكونية العالمية والدولية بأجلى مظاهرها، وأوضح صورها، لتكون اتجاهاً يعدّ من أبرز اتجاهاته في قراءة النص وتأويله. وسيوضح ذلك من خلال الممارسة التفسيرية وتطبيقاتها.

آية الارتداد: السقوط في التمحيص

في تفسيره لمعنى (الارتداد) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١) يحاول السيد المفسر الشهيد محمد الصدر أن يفهم الآية من منظور «التخطيط العام» لمستقبل البشرية، فيرى:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هم المؤمنون ما قبل التمحيص، والذين يصبحون

بالتمحيص على قسمين:

الذين يرتدون عن الدين جرأء الفشل في التمحيص، وردود الفعل السيئة التي اتخذوها تجاه الواقع^(١).

المؤمنون الناجحون في التمحيص ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ الذين ذخرهم الله لنصرة الإمام المهدي عليه السلام وقد اهتم بهم القرآن اهتماماً بالغاً.

﴿أَذَلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لشعورهم بالأخوة الإيمانية.

﴿أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ والمنحرفين المرتدين أجمعين لفشلهم جميعاً في التمحيص.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ خلال الفتح العالمي بالعدل، ومن أجل تأسيس الدولة العالمية العادلة.

﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ مما يقع منهم من الأعمال المضرة بمصالح المنحرفين والموجبة لغیظ الكافرين. كيف؟ وإن نجاحهم في التمحيص لم يكن إلا نتيجة لأمثال هذه التضحيات، حتى أصبح العدل والهدى هو مقصودهم فوق كل مقصود، لا يزرحهم عنه عتب عاتب ولا تأنيب مؤنب. وإذا كان دينهم السابق على ذلك في عصر الفتن والانحراف، فكيف لا يكون ذلك مسلكهم بين يدي إمامهم وقائدهم..

﴿ذَلِكَ﴾ النجاح في التمحيص بأي درجة من درجاته ﴿فَضَّلُ اللَّهُ

(١) تاريخ ما بعد الظهور: ٣٥٠.



مجلس الشورى الإسلامي
الجمعية التأسيسية
١٣٥٧ هـ

يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿ انطلافاً من إرادة نفس الفرد المؤمن لا قسراً عليه .. حتَّى حين يجد الله تعالى في قلبه السَّلامَةَ وحسن النِّيَّةِ والإخلاص ^(١).

ويرى السَّيِّدُ المفسِّرُ أَنَّهُ يترتب على هذا الإيمان أمران مقترنان:

الأمر الأول: شجاعتهم في تنفيذ أوامر الله وتطبيق أحكامه: «رجالٌ كأن قلوبهم زبر الحديد، لا يشوبها شكٌّ في ذات الله، أشدُّ من الجمر، لو حملوا على الجبال لأزالوها» (الصادق عليه السلام).

الأمر الثاني: عبادتهم وتهجدهم في الأسحار: «فيهم رجالٌ لا ينامون الليل لهم دويٌّ في صلاتهم كدويِّ النحل، يبيتون قياماً على أطرافهم ويصبحون على خيولهم، رهبانٌ بالليل ليوثٌ بالنهار» (الصادق عليه السلام).

والوصف الأخير (رهبان بالليل، ليوثٌ بالنهار) يعبر عن الأمرين معاً خير تعبير ^(٢).

«وبهذه الشجاعة النادرة وارتفاع المعنويات الضخم، يمكنهم القيام بالمسؤولية العالمية، من فتحه والمحافظة على عدله، وتغيير مجرى التاريخ تماماً، ويكتبون بأيديهم على كُلِّ ظلم وفساد سطور الخيبة والزوال» ^(٣).

ولقد لفت بعض المفسرين المعاصرين إلى خطأ ما قد ينسب إلى الذهن من كلمة (الارتداد) في الآية، وهو المعنى الفقهي المعبر عنه

(١) تاريخ ما بعد الظهور: ٣٥٠.

(٢) تاريخ ما بعد الإسلام: ٣٥٠.

(٣) تاريخ ما بعد الظهور: ٣٥٣.

بالارتداد (الفطري) و(الملكي)، بأن يتحول المسلم إلى المسيحية أو اليهودية، لأن الآية بقرينة السياق تتحدث عن ما يمكن أن نعبر عنه بـ (ارتداد الولاء) الذي يقع فيه المسلمون المنافقون وضعفاء الإيمان من حاكمين ومتصددين لشؤون الأمة، بموالاتة اليهود الغاصبين المعتدين والنصارى المؤازرين لهم، والسعي إلى (تطبيع) العلاقات معهم، والاستسلام لمخططاتهم وإراداتهم، في الوقت الذي يناصبون العداء للمؤمنين المخلصين ودولتهم!

يقول العلامة الطباطبائي: «رُيِّمًا يسبق إلى الذهن أن المراد بالارتداد في الآية هو ما اصطلح عليه أهل الدين... لكن التدبر في الآية وما تقدم عليها من الآيات يدفع هذا الاحتمال»^(١).

أمر الله: الدولة العالمية وسنة الاستبدال

(أمر الله)، في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾^(٢)، هُوَ - بنظر السيّد المفسّر - تحقق «الدولة العالمية العادلة تحت قيادة الإمام المهدي (ع)»، إذ يأتي المؤمنون المخلصون بديلاً عن أولئك الذين كانوا يعيشون الذاتية والمصلحة الشخصية وتقديم العلاقات الخاصة على حساب (العلاقات العامة): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

(١) الميزان: ٣٧٩/٥.

(٢) سورة التوبة: ٢٤.



وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ افْتَرَقْتُمُوهَا وَبِجَارَةٍ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١﴾

إن الذين يقيمون ولاءهم على حساب دينهم فيوالون أعداء الله، ويحرصون على علاقاتهم الخاصة على حساب نصره دين الله، لا يصلحون أن يكونوا المدافع عن الدين، والحامي للرسالة، مهما رفعوا من شعارات إسلامية لذر الرماد في العيون، ولتغطية تلك الولاءات التي بات يعرفها الجميع، ولذا فإن هؤلاء سيكون مصيرهم الزوال والفناء والاضمحلال، بفعل سنة الاستبدال، التي هي من أكبر السنن الحاكمة في حركة التاريخ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ

(١) سورة التوبة: ٢٣-٢٤..

(٢) سورة المائدة: ٥٤.

(٣) سورة التوبة: ٣٩.

وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا
يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿١﴾

تفسير الميزان: تربص الاستبدال

وقد ذهب العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان إلى هذا المعنى -
بقرينة السياق - في تفسير (أمر الله) و(التربص)، بقوله: «فالمراد - والله أعلم
- إن اتخذتم هؤلاء أولياء، واستنكفتم عن إطاعة الله ورسوله والجهاد في
سبيل الله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره، ويبعث قوماً لا يحبون إلا الله ولا
يوالون أعداءه، ويقومون بنصرة الدين والجهاد في سبيل الله أفضل قيام»^(٢).

ذلك لأن (الأمر) الإلهي في الآية «متعلقٌ بنصرة دينه وإعلاء كلمته،
فينطبق على مثل قوله تعالى في سورة المائدة بعد آيات ينهى فيها عن تولي
الكافرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي
اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ
يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣)، فإن هذه الآية «بقيودها وخصوصياتها -
كما ترى - تنطبق على ما تفيدته الآية»^(٤)، في سورة التوبة.

(١) سورة محمد: ٣٨.

(٢) الميزان: ٢٠٩/٩.

(٣) سورة المائدة: ٥٤.

(٤) الميزان: ٢٠٨/٩ - ٢٠٩.



وآية (التربُّص) وإن كانت جارية في كلِّ عصر وجيل، وهكذا هي طبيعة السنن التاريخية، بيد أن مصداقها الأكبر هوَّ عصر الظهور، وقيام الدولة العالميَّة بقيادة الإمام المهدي عليه السلام، حيث يتبدلُ زيف المدَّعين لحماية الدين، من السفينيين والبتريين وغيرهم، الذين سيقولون للقائم عليه السلام: «ارجع من حيث جئت، فلا حاجة لنا ببني فاطمة. فيضع فيهم السيف حتَّى يأتي على آخرهم»^(١).

العرق والعلق!

إن الإمام عليه السلام إذا قام، لا تستقيم له الأمور عفواً، ولا ينزل عليه النصر بالمعجزة المطلقة، وإن كانت حاضرة في التسديد الإلهي، كالخسف وغيره.

يذكر السيِّد المفسِّر محمد الصدر أحاديث يعبر عنها بأنها «متواترة قطعية»، تدلُّ على هذه الحقيقة، منها: عن بشير التَّبَّان، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنهم يقولون: إن المهدي عليه السلام لو قام لاستقامت له الأمور عفواً، لا يهريق محجمة دم.

فقال عليه السلام: كلا، والذي نفسي بيده، لو استقامت عفواً لاستقامت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حين أدميت رباعيته وشُجَّ في وجهه. كلا، والذي نفسي بيده، حتى نَمَسَحَ نحنُ وأنتم العرق والعلق. ثم مَسَحَ جبهته^(٢).

(١) تاريخ ما بعد الظهور: ٣٩٦؛ عن الإرشاد، للمفيد: ٣٤٣؛ رواية الإمام الباقر.

(٢) تاريخ ما بعد الظهور: ٣٩٧؛ عن: غيبة النعماني: ١٥٢.

مع المفسرين: مصاديق التربص

وقد اختصر بعض المفسرين (الأمر) الإلهي في آية «التربص» بمصداق واحد، وهو فتح مكة، فقد نقل العلامة الطبري في تفسيره روايتين في هذا المعنى عن مجاهد^(١)، فحسب. مع أنه من ديدنه ذكر تأويلات عديدة في تفسير الآيات. ومع أن التفسير يفتح مكة «ليس بسديد» - على حدّ تعبير العلامة الطباطبائي - «فإن الخطاب في الآية للمؤمنين من المهاجرين والأنصار وخاصة المهاجرين، وهؤلاء هم الذين فتح الله مكة بأيديهم، ولا معنى لأن يُخاطبوا ويقال لهم: إن كان آباؤكم وأبناؤكم ... أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فواليتموهم واستكفتم عن إطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله فتربصوا حتى يفتح الله مكة بأيديكم، والله لا يهدي القوم الفاسقين، أو فتربصوا حتى يفتح الله مكة والله لا يهديكم لمكان فسقكم، فتأمل»^(٢).

وقد ذهب تفسير الطبري - تخلصاً من هذا الإشكال - إلى أن المخاطبين هم المتخلفون عن الهجرة إلى دار السلام^(٣) وهكذا فعل تفسير (البيان)^(٤) و (مجمع البيان)^(٥) وكان الآية - إن صح ما يقولون - تقف عند

(١) راجع: تفسير الطبري: ٣٣٩/٦.

(٢) الميزان: ٢٠٩/٩.

(٣) راجع: تفسير الطبري: ٣٣٩/٦.

(٤) راجع: البيان: ١٩٦/٥.

(٥) راجع: مجمع البيان ٣٠/٥.



سبب نزولها وموردها.

وهكذا تحجَّم الآيات المباركة في مصاديق تأريخية، وتحصّر في الماضي، بعيداً عن الحاضر والمستقبل.

وهكذا تحوّل السنن التاريخية المطردة إلى وقائع خارجيّة قد مضت وانقضت، ولا علاقة لها بحركة التاريخ وسنن الصراع.

من هنا نرى مدى أهميّة التفسير الصدري لهذه الآية المباركة وأمثالها، المنطلق من رؤية كونية مستقبلية، وفقاً لما يسميه بـ «التخطيط العام» لمستقبل البشرية، وإقامة الدولة العالمية.

يأجوج وماجوج: الحضارة الطاغية والصراع الداخلي

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾^(١)، هذه الآية المباركة، من سورة الأنبياء تتحدث عن مستقبل البشرية، بعد اختراق السد القديم الذي بناه القائد العالمي ذو القرنين لحماية المستضعفين من المستكبرين المعتدين، «ولم يعد - ذلك السد - كافياً للسيطرة عليهم وكبح جماحهم»، ذلك لأنّه «كان مناسباً مع مستوى عصره العقلي والثقافي والعسكري، ولم يعد الآن كافياً: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾، أي: من كل جهة يتشرون، كذلك انتشرت المادية الحديثة»^(٢).

(١) سورة الأنبياء: ٩٦.

(٢) تاريخ ما بعد الظهور: ١٥٢.

إن (الحضارة المادية) الطاغية في واقعنا المعاصر تسيطر «على خيرات البلاد الإسلامية، في ضمن سيطرتها على العالم كله، وتستولي (على) مصادرها الطبيعية، فتشرب البحيرات، والأنهار - كما أشارت الأخبار - بمعنى أنها تستغلها تماماً لصالحها، وتمنع أهلها من الاستفادة منها، فيحصل الفقر والقحط في البلاد المحكومة المستعمرة».

أخرج ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ، قال: «تفتحُ يأجوج ومأجوج، فيخرجون، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ فيعمون الأرض وينحاز منهم المسلمون، حتى تصير بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، حتى أنهم ليمرون بالنهر فيشربونه، حتى ما يذرون فيه شيئاً، فيمرّ آخرهم على أثرهم، فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان مرّة ماء. ويظهرون على الأرض، فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، ولتنازلن أهل السماء...»^(١).

وإن السدّ الذي بناه ذو القرنين - كما يقول السيد الصدر - وإن كان ضخماً ومهماً، يكفي لكبح جماح البدائين الملحدّين وردّ عاديّتهم: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾^(٢)، بيد أنه لم يستطع القضاء عليه نهائياً ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾^(٣)، لأنه «لم يكن

(١) تاريخ ما بعد الظهر: ١٤٧.

(٢) سورة الكهف: ٩٧.

(٣) سورة الكهف: ٢٠.



مقدراً في التخطيط الإلهي استصاله عن الوجود، لإمكان مشاركته في التمحيص العام»^(١).

«ومن هنا بقي هذا الاتجاه (الملحد) في التأريخ، لكي يتمخض بعد حوالي ثلاثة آلاف عام عن السيطرة الجديدة للمادية على البشر للمرة الثانية، ولكنها في هذه المرة ليست بدائية، وإنما هي مادية (تقدمية) ومعقدة ومفلسفة وذات شعارات براقية، وذات قوة ومنعة بحيث يصعب مجرد التفكير في منازلهم فضلاً عن القضاء عليهم. وهو معنى قوله في أحد الأخبار السابقة: لا يُدان لأحد في قتالهم»^(٢).

بيد أنه يرى - في الوقت نفسه - مدى الصراع الداخلي الذي تعاني منه الجبهة المعادية المتمثلة بالحضارة المادية المعبر عنه بمفهوم (أجوج) مرة، ومفهوم (مأجوج) أخرى، والذي يكون في الأعم الأغلب عنيفاً وعميقاً^(٣).

ويرى السيد المفسر أن التفاسير قد «تطاحت» في ما جاء في القرآن عن أجوج ومأجوج، «حتى لم تكد ترسو على أمر مشترك»، بيد أن الأمر المهم يكمن في مدى ارتباط هذه المسألة المهمة بمستقبل البشرية، والدولة العالمية^(٤).

(١) تاريخ ما بعد الظهور: ١٥٢.

(٢) تاريخ ما بعد الظهور: ١٥٢.

(٣) المصدر السابق: ١٥٦.

(٤) المصدر السابق: ١٤٦-١٤٧.

سقوط الحضارات: سنة الغرور والاندثار

﴿... حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

هذه الآية المباركة - كما يرى مفسرنا - تعطي سنة تاريخية في حركة التاريخ، ومسيرة الصراع، وسقوط الحضارات، ذلك لأنها تقرر سنة الغرور والاندثار، فإن «كل حضارة ينالها الغرور، وتفشل في التمحيص الإلهي العام للبشرية، لا بد أن يُحكَم عليها بالزوال، ويكون غرورها نذير فئاتها واندثارها، طبقاً للقانون الذي يعرب عنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾»^(٢).

كما يرى أن هذه الآية تنذر بحرب عالمية ثالثة، يوقدها المستكبرون والكبراء المستبدون في العالم، بعد أن يصل بهم الغرور إلى انعدام الضمير والأخلاق، تكريساً لأنانيتهم المتعلقة، التي تجعل كل طرف منهم ينظر إلى نفسه - بما يرى لها من استغناء - بأنه الربُّ الأعلى، والإله الأوحد: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾.

(١) سورة يونس: ٢٤.

(٢) تاريخ ما بعد الظهور: ١٥٣.



«وإذا حدثت هذه الحرب [العالمية الثالثة]، فستكون نتيجة للتخطيط العام الذي تمرُّ به البشرية، وهذه الدول [الأوربية المستكبرة] بالذات، طبقاً لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١)»^(٢).

إن التمحيص كما هو شاملٌ للأفراد، شاملٌ للجماعات والدول، وكما يفشل الأفراد في التمحيص كذلك تفشل الدول. وفشلها عبارة عن انعدام الضمير والأخلاق فيها، وتوَلَّد الأنايية وسوء الظن ببعضها... الأمر الذي يوَلِّد على الصعيد الداخلي أفسى أنواع الظلم والتعسف، وعلى الصعيد الخارجي الحرب العالمية المدمرة»^(٣).

يعتقد السيد الصدر أن «الحضارة الأوربية» تمثل المصداق الحي لآية سورة يونس، لتوفّر شروطها فيهم، «فقد ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ بأنواع التقدّم الحضاري والمدني في مختلف الحقول الإنسانية واللاإنسانية، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ وأنهم مسيطرون على الطبيعة، قادرون على تذليلها لمصالحهم وتوفير سعادتهم. وإذا وجد هذان الشرطان وجدت النتيجة: ﴿أَنَاهَا أَمْرُنَا...﴾ بالفناء ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾»

(١) سورة يونس: ٢٤.

(٢) تاريخ ما بعد الظهور: ٣٣٧ - ٣٣٨.

(٣) تاريخ ما بعد الظهور: ٣٣٨.

لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ ﴿١﴾.

ويلفتُ أنظارنا إلى ما قد يتبادر خطأ من الآية بانحصار الهلاك والفناء عن الطريق المعجز، فيقول: «وليس الأمر الإلهي بالفناء منحصرأً بالطريقة الإعجازية، بل تشمل النتيجة التي قلناها، وهي أن فشل الدول في التمحيص يوُلِّد بينها الحرب المدمرة الماحقة التي لا تُبقي للدول المتحاربة ولا لأسلحتها ولا لكبريائها أي وجود»^(٢).

ويؤكد أن «التنبؤ بحدوث الحرب المدمرة قبل الظهور، موجودٌ في الروايات، بشكل وآخر، مروية من قبل المحلِّثين من الفريقين».

ويذكر العديد من الروايات التي تنبئ بحرب عالمية مدمرة^(٣).

«يذهب الرجال ويبقى النساء، حتى يكون لخمسين امرأة قِيم واحد».

«لا يخرج المهدي حتى يُقتل من كل تسعة سبعة».

«لا يكون هذا الأمر حتى يذهب تسعة أعشار الناس».

«لا يكون هذا الأمر حتى يذهب ثلثا الناس».

«ومن الواضح أن ذهاب الرجال أو فنائهم، لا يكون لمرض أو فقر أو نحوه، وإلا لشمَل النساء أيضاً، وإنما يكون نتيجة للحرب خاصة، إذ أن الأعم الأغلب من المحاربين هم من الرجال على مرِّ الأجيال»^(٤).

(١) تاريخ ما بعد الظهور: ٣٣٨.

(٢) المصدر السابق: ٣٣٨-٣٣٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق: ٣٣٧.



سئل (برناردشو) عن نوع الأسلحة التي تستعمل في الحرب العالمية الثالثة.

فقال: إن هذا مما لا أعلمه، وإنما أعلم أنه إن وقعت حرب رابعة، فسوف يكون السلاح فيها هو العصي والحجارة^(١).

«وهذه الصورة لا تخلو من مبالغة، إلا أن طبع الحضارة الأوربية بكل أشكالها تتجه نحو الحرب لا محالة ... ولا زال شبح الحرب العالمية ماثلاً، والخوف منها يأكل قلوب الساسة الكبراء في عالم اليوم، فضلاً عن الشعوب الضعيفة»^(٢).

العبادة الحقيقية: الأبعاد الثلاثة (الفردية، الاجتماعية، الدولية العالمي)

في تفسيره لمعنى (العبادة) في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٣)، يرى السيد المفسر الصدر أن الآية توضح أموراً عديدة، كحقائق تاريخية في ساحة الصراع^(٤).

أولاً: الهدف «الوحيد المنحصر»، و«الغاية الأساسية» و«الغرض الأصلي»، من إيجاد البشرية وخلقها على الأرض هو (العبادة). حيث جاءت الآية بأسلوب الحصر (ما ... إلا).

(١) راجع: تاريخ ما بعد الظهور: ٣٣٧.

(٢) تاريخ ما بعد الظهور: ٣٣٧.

(٣) سورة الذاريات: ٥٦.

(٤) راجع: الغيبة الكبرى: ٢٠٢ - ٢٠٤.

ثانياً: حتمية تحقق الغرض الإلهي على الأرض، سواء عن طريق القوانين الطبيعية أو عن طريق المعجزات الخارقة، فيما إذا قصرت تلك القوانين عن إيجاد الغاية الربانية، والهدف الإلهي.

ثالثاً: إن هذا الهدف الوحيد (إلا ليعبدون) لم يحدث بعد في تاريخ البشرية على الإطلاق منذ وجودها إلى العصر الحاضر. ولا بدّ من يوم يتحقق فيه هذا الهدف، وتتجسد فيه هذه الغاية.

رابعاً: إن العبادة تمثل الكمال بجميع أبعاده وجوانبه الفردية والاجتماعية والدولية، ولا يتحقق ذلك إلا في إيجاد الثلاثي: الفرد الكامل، المجتمع الكامل، الدولة العالمية العادلة، التي تكون مسؤولة عن إقامة الحقّ في العالم أجمع، والقضاء على الظلم والجور والعدوان والظغيان.

«هذا هو معنى العبادة المقصود في الآية، وكلّ ما كان على خلاف ذلك فهو تقصير في العبادة الحقيقية تجاه الله عزّ وجل. ولا يمكن أن نفهم من الآية هذا المعنى القاصر بطبيعة الحال»^(١)

٦. آية الاستخلاف والتمكين: الدولة العالمية العادلة

إن آية الاستخلاف والتمكين - كما يرى السيد المفسر - من تطبيقات آية الخلق والعبادة الآتية، وتعبير آخر: «من تطبيقات الغرض الاسمي الذي نطقت به»^(٢)، وآية الاستخلاف هي: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

(١) الغيبة الكبرى: ٢٠٤.

(٢) الغيبة الكبرى: ٢٠٦.



مِنْكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ
مَنْ قَبْلَهُمْ وَكَيْمَكُنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ
خَوْفِهِمْ أُمَّتًا يُعْبُدُونََنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١﴾.

يقرأ سيّدنا الصدر في هذه الآية المباركة الأمور التالية:

أولاً: إنها «وعدٌ صريحٌ من الله عزّ وجلّ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْمِيعَادَ﴾ (٢)،
لل بشرية المؤمنة الصالحة التي قاست الظلم والعذاب في عصور الانحراف،
وبلغت من التضحيات الشيء الكثير، بأن يستخلفهم في الأرض، بمعنى أن
يوقعهم إلى السلطة الفعلية على البشرية وممارسة الولاية الحقيقية فيهم» (٣).

ثانياً: إن هذا المعنى العالمي الشامل هو المناسب مع مفردات الآية
وسياقها: ﴿وَكَيْمَكُنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾، ﴿وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ
بَعْدِ خَوْفِهِمْ أُمَّتًا﴾.

ثالثاً: إن فكرة الاستهداف العام لخلق البشرية بتكوين المجتمع
الصالح، أصبحت بهذه الآية المباركة «وعداً قرآنياً»، «فقد أصبح
الاستهدافُ وعداً»، «والوعدُ أكثرُ فاعليةً وحركيةً من مجرد الإخبار، لأنه
يتخذُ درجة الإلزام للوعد، وخاصة على مستوى الحكيم المطلق» (٤).

(١) سورة النور: ٥٥.

(٢) سورة آل عمران: ٩.

(٣) الغيبة الكبرى: ٢٠٦.

(٤) اليوم الموعود: ٥٢٥-٥٢٦.

٧. آية إظهار الدين: ما نزل تأويلها بعد!

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾^(١).

وهذه الآية - كذلك - تمثل تطبيقاً لآية الخلق والعبادة، «وهي تعطينا بوضوح الغاية والغرض الرئيسي من إرسال رسول الإسلام ﷺ بالهدى ودين الحق. يدلنا على ذلك قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾، حيث دلت لام التعليل على الغاية، والسبب في إنزال شريعة الإسلام، وهو أن يظهره أي يجعله منتصراً ومسيطرأ على غيره من الأديان والعقائد كلها، وذلك لا يكون إلا بسيطرة دين الحق على العالم كله»^(٢).

ولذا فقد نصت الروايات أنه لم يأت تأويلها بعد:

الشيخ الصدوق بإسناده عن أبي بصير، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: (هو الذي أرسل رسوله ...) «والله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم عليه السلام ..»^(٣).

وعنه عليه السلام: «والله ما نزل تأويلها بعد، فقال له أبو بصير (راوي الحديث): جعلت فداك، ومتى ينزل تأويلها؟ قال عليه السلام: حتى يقوم

(١) سورة التوبة: ٣٣.

(٢) الغيبة الكبرى: ٢٠٥.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق: ٢ / ٦٧٠. إيران: مؤسسة النشر الإسلامي،



القائم عليه السلام إن شاء الله تعالى، فإذا خرج القائم عليه السلام لم يبق كافر أو مشرك إلا كره خروجه...»^(١).

وهناك العديد من الآيات المباركة التي وردت أنها «لم يجيء تأويلها بعد» أو «لم ينزل تأويلها بعد» كما في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢).

عن الإمام الباقر عليه السلام: «لم يجيء تأويل هذه الآية بعد»^(٣). وفي العياشي باسناده عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام: «أنه لم يجيء تأويل هذه الآية، ولو قد قام قائمنا عليه السلام بعد سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغن دين محمد ما بلغ الليل حتى لا يكون شرك على ظهر الأرض كما قال الله»^(٤).

٨ قانون التمحيص العام: الفرد والعالم

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ

(١) المحجة فيما نزل في القائم الحجة، هاشم البحراني: ٨٦

(٢) سورة الأنفال: ٣٩.

(٣) روضة الكافي: ٢٠١.

(٤) تفسير العياشي: ٥٦ / ٢؛ تاريخ ما بعد الظهور: ٣١٨؛ عن: ينابيع المودة للقندوزي:

نُذِرُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ
الْكَافِرِينَ ﴿١﴾

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ
مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مَنْ
رُسُلَهُ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ
عَظِيمٌ﴾ (٢)

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ
بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٣)

يرى السيد المفسر محمد الصدر، وفقاً لآيات التمهيص الأمور التالية:

أولاً: التمهيص قانونٌ عام للبشرية، مرافق لها في عمرها الطويل (٤)،

المليء بالظلم والاضطهاد، والمصائب والمصاعب.

ثانياً: إن هذا القانون يكون «أشدّ وأكثراً إذا اقترن بالإعداد لليوم

الموعود، إعداداً يمكن به حمل التبعة والشعور بالمسؤولية تجاه العالم كله» (٥).

(١) سورة آل عمران: ١٤٠ - ١٤١.

(٢) سورة آل عمران: ١٧٩.

(٣) سورة الأنفال: ٧٨.

(٤) الغيبة الكبرى: ٢٦٢.

(٥) الغيبة الكبرى: ٢٦٢.



مجلس الشورى الإسلامي
الجمعية التمهيصية للتفسير
٢٠٠٩ هـ

ثالثاً: إن التمحيص ليس للكشف والإظهار أمام الآخرين والتأريخ فحسب، وإنما يتضمَّنُ - في الحقيقة - تغييراً حقيقياً وتأثيراً جوهرياً في ذات الفرد^(١).

رابعاً: يتمخض قانون التمحيص تقسيم العالم إلى معسكرين وفسطاطين: فسطاط كفر لا إيمان فيه، وفسطاط إيمان لا كفر فيه^(٢).

خامساً: النتائج الصالحة التي يتمخض عنها قانون التمحيص الإلهي الكبير في عصر ما قبل الظهور، على أربعة درجات:

الدرجة ١: الإخلاص التام والوعي الكامل، الذي يتمثل باستعداد الفرد للتضحية بكلِّ غالٍ ورخيص، على الإطلاق، في سبيل العدل الإلهي، وتطبيق الأهداف الكبرى.

الدرجة ٢: الإخلاص الثابت، الذي يتمثل في قدرة الفرد على السيطرة بإرادته على كلِّ صعوبة وإغراء .. والذي تؤهله لأن يكون من القواعد الشعبية الصالحة لدولة الحق في اليوم الموعود، أو أن يكون جندياً محارباً خلال الفتح العالمي في ذلك اليوم.

الدرجة ٣: الإخلاص الإقتضائي: وهو أن يكون الفرد محبباً للحقِّ والعدل الإلهي في نفسه، ومسائراً - في الوقت نفسه - لظروف الظلم أو الإغراء إلى حدِّ ما!

(١) الغيبة الكبرى: ٢٦٢.

(٢) المصدر السابق: ٢١٣.

الدرجة ٤: الذين يشعرون، جرّاء التمحيص العالمي، بفشل التجارب التي عاشتها المبادئ والفلسفات التي ادّعت حل مشاكل العالم ونشر العدالة والرفاه في ربوعه. وهو شعورٌ خفي، في اللاشعور، بالحاجة الماسة إلى المنقذ العالمي^(١) والأطروحة الشاملة العادلة^(٢).

سادساً: سقوط الكثير من الناس بقانون التمحيص، لما يواجهون من فتنة، وهرج ومرج، وحيرة وبلبلة، وفرقة واختلاف، وتحاسد وتدابير وتباغض، وطغاة ومستبدين، وعلماء سوء ووعاظ سلاطين، كما جاء في الروايات:

«والله لتميِّزَن، والله لتمحصُن، والله لتغرِبُن كما يغربل الزِوان من القمح»^(٣). [الإمام الباقر عليه السلام].

«لابدَّ للناس من أن يمحصّوا ويميّزوا ويغربلوا، وسيخرجُ من الغربال خلقٌ كثير»^(٤). [الإمام الصادق عليه السلام].

«والذي بعثه بالحقّ لتبليبلن بلبلة، ولتغربلن غربة، حتى يصير أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم، وليسبقن سابقون كانوا قد قصروا، وليقصرن سابقون كانوا قد سبقوا»^(٥). [الإمام علي عليه السلام].

(١) راجع: الغيبة الكبرى: ٢١٣ - ٢١٤.

(٢) راجع: الغيبة الكبرى: ٤٠٨.

(٣) الغيبة الكبرى: ٢٦٠؛ عن غيبة النعماني.

(٤) الغيبة الكبرى: ٢٦٠؛ عن غيبة النعماني، والكافي للكليني.

(٥) الغيبة الكبرى: ٢٦١؛ عن غيبة النعماني.



«فوالذي نفسي بيده ما ترون ما تُحِبُّونَ حَتَّى يَتَفَلَّ بعضكم في وجوه بعض، وَحَتَّى يُسَمِّي بعضكم بعضاً كذابين»^(١). [الإمام علي عليه السلام].

«كيف بكم ويزمان يوشك أن يأتي، يغربل الناس فيه غربلةً، وتبقى حثالة من الناس قد مرجت عهدهم وأماناتهم، فاختلفوا، وكانوا هكذا (وشبك بين أصابعه)»^(٢). [الرسول الأكرم ﷺ].

يسلِّط السيد الصدر بعض الأضواء على بعض الروايات الآتية:

«والتمحيص هو التنقية وإبعاد الرديء، والغربلة هي النخل بالغربال حَتَّى يخرج الزِوَان، وهو الحبُّ الغريب عن الحنطة يكون على شكلها وليس منها».

«وغربلة البشر تكون بقانون التمهيص الذي عرفناه، وغربالهم فيها هي الظروف الصعبة والظلم الذي يعيشه الفرد والمجتمع من ناحية، والشهوات والمغريات والمصالح الضيقة من ناحية أخرى: «وسيجرُّ من الغربال خلقٌ كثير» بمعنى أن أكثر البشر يتبعون الباطل وينحرفون مع الشهوات والمصالح، أو مع الظالمين المنحرفين، فيصبحون «حثالة قد مرجت [اضطربت والتبست وفسدت] عهدهم وأماناتهم» والمراد بها: الدِّين والالتزام بالإسلام، وما يستتبعه من خلق كريم وسلوك قويم».

«وتبقى في نتيجة التمهيص الطويل (عصابةٌ لا تضرُّها الفتة شيئاً)؛

(١) الغيبة الكبرى: ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢) الغيبة الكبرى: ٢٦٠؛ عن: سنن أبي داود، وابن ماجه.

لأنهم يمثلون الحقّ صرفاً، وينتمون إلى فسطاط الحق الذي لا كفر فيه، كما سبق أن سمعنا من الأخبار»^(١).

العراق: عاصمة العالم!

«إن العراق - كما يرى المرجع الصدر - سيصبح الأرض التي تتمخّض عن عددٍ غير قليل من القواد الرئيسيين للمهدي عليه السلام بعد ظهوره... والسّرّ في ذلك: ليس هو أفضلية العراق ككل على غيره، وإنما ذلك باعتبار ما يمرّ به الشعب هناك من مآسٍ ومظالم أكثر من غيره من الشعوب المسلمة!!»، و«زيادة الظلم تتمخض عن كثرة الإخلاص والمخلصين»^(٢)!

ولعل الخطبة (٤٧) في نهج البلاغة تلخص معاناة العراق ومخاضاته، وما سيؤول إليه مصير أعدائه:

«كأنّي بك يا كوفة تُمدّين مدّ الأديم^(٣) العكاظي، تُعركين بالنوازل، وتُرْكبين بالزلازل. وإني لأعلم أنه ما أراد بك جبارٌ سوءاً إلا ابتلاه الله بشاغل، ورماهُ بقاتل»!!

(١) الغيبة الكبرى: ٢٦٠ - ٢٦١.

(٢) الغيبة الكبرى: ١٠٥.

(٣) الأديم: الجلد المدبوغ.



المرجعية الصالحة
تعدد أدوار ووحدة هدف
مناهج في العمل التغييري
السيد الشهيد محمد الصدر نموذجاً

بقلم
الأستاذ مختار الأسدي

مقدمة أولى

التقيية وتعددية المناهج



هنالك أكثر من منهج، وربما أكثر من منهجين في العمل التغيري الذي أتبعه علماء الدين الكبار في مسيرتهم اللاحبة لتحكيم دين الله والمحافظة على قيمه وحدوده. هذه المناهج تخضع بطبيعة الحال الى الظروف المحلية أولاً والاقليمية ثانياً وربما الدولية أو العالمية ثالثاً، أو كما يقال اليوم الى محددات الزمان والمكان أي التاريخ والجغرافية، هذا إذا لم يدخل العنصر الذاتي أو السليقة أو السيرة الذاتية لهذا المرجع أو ذاك، في هذه الفترة الزمانية أو تلك، في صياغة هذا المنهج الإصلاحى أو ذاك.

وإذا اقتصرنا في هذا البحث الموجز على منهجين ومنهجين فقط لمقاربة العمل التغيري الذي أتبعه علماؤنا الاعلام، فلا ينبغي إغفال الأبعاد الثلاثة المذكورة أي الزمان والمكان والسيرة عند تقييم كل منهج من المناهج على حدة، تماماً كما هو شأننا في تقييم مسيرة العمل التغيري الذي انتهجه أئمة أهل البيت عليهم السلام في تعاملهم مع حكام زمانهم دون إسقاط الدلالات التاريخية أو استظهارها قهرياً وانتقائياً على العلماء بأحكام مسبقة أو جاهزة والعياذ بالله.

وقبل الدخول في تفاصيل هذين المنهجين، ومحاكمتهما أو

مقاربتهما أو الترويج لهما، أو ترجيح أحدهما على الآخر، أو على الأقلّ الدعوة للترجيح، لا بدّ من الإشارة - ولو العابرة - الى منهج القرآن الكريم في تفضيل نبيّ على نبيّ أو رسول على رسول دون أن يعني هذا التفضيل تسقيط هذا النبي أو التشهير بذلك الرسول - كما يفهم البعض مع الأسف أو يحاول أن يفهم عن قصد أو غير قصد.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١).

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢). ودون تمخّل أو لِي

لفظة (فضّلنا) في هاتين الآيتين الكريميتين..

وقبل الدخول أيضاً في صلب الموضوع، لا بدّ من القول أن الحكم في النظرية الاسلامية ليس هدفاً بحدّ ذاته، أو غاية بحدّ ذاتها، بمعنى إنه ليس رغبة أو هواية أو احترام. وإنما وسيلة شريفة ودعوة صادقة لتحكيم دين لله في عباد الله، ومحاولة جادة لإقامة المعطّلة من حدود الله - كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام. ولا يعني بأيّ حال من الأحوال احتكار السلطة أو الاستئثار بالقدرة والثروة، أو التعالي على الناس أثناء الحوار أو صناعة القرار، وإنما لإظهار العلم للناس والبقاء الحجة عليهم لكي لا تبقى لهم حجة على الله يوم القيامة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِنَا﴾^(٣).

(١) سورة البقرة: ٢٥٣.

(٢) سورة الإسراء: ٥٥.

(٣) سورة الأنفال: ٤٢.

وكذلك لكي يفهم تفسير الآية القرآنية الكريمة:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١)، وبالتالي تبقى الحجة لله جميعاً ﴿لَأَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾^(٢) والحكم أخيراً لله وحده و﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣).



وما دمتا معتقدين بأن الله تعالى (يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) وأن قوله أمير المؤمنين عليه السلام (الدين أس والسلطان حارس، فما لا أس له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع) معقولة ومقبولة من جميع المسلمين، فإن الحكم لن يكون هدفاً إلا بهذا المقدار فقط و فقط. ولا يصح تجاوز هذا الهدف بأي شكلٍ من الأشكال.

تأسيساً على ذلك، وفي مقاربة أكثر دلالة يمكن القول بأن هناك منهجين على الأقل في العمل التغييرى الاسلامى.

الأول: هو المنهج السلمى القائم على أساس (نقل الإيمان الى قلوب الحكّام) وتحت شعار: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٤) أو ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ *﴾

(١) سورة الإسراء: ١٥.

(٢) سورة النساء: ١٦٥.

(٣) سورة الأنعام: ١٤٩.

(٤) سورة النحل: ١٢٥.

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿١﴾ أو ﴿وَإِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ، وأمثال ذلك من هذه الآيات البيّنات.

أما الثاني: فهو المنهج الثوري القائم على أساس ((نقل الحكم إلى أيدي المؤمنين)) وشعاره: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ ﴿٢﴾ أو ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ ﴿٣﴾ ﴿حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ ﴿٤﴾ وأمثال ذلك من آيات الجهاد.

ويبدو أن بين هذين المنهجين مسافة شاسعة تتسع في كثير من الأحيان إلى استيعاب مساحات وآفاق كثيرة في العمل التغييري يقترب من إحداهما هذا العالم وبيتعد عن الآخر ذاك، وكلُّ حسب تقديره وفهمه واجتهاده ورؤيته.

وبين هذين المنهجين أيضاً. قد تأتي استظهارات ربما تكون متباينة لمفهوم التقية مثلاً الذي يقاربه البعض إلى المبدأ القرآني القائل ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُوا مِنْهُمْ تَقَاةً﴾ ﴿٥﴾ وربما يصل إلى قصة تعذيب عمار بن ياسر الذي نزلت

(١) سورة الغاشية: ٢١ - ٢٢.

(٢) سورة الأنفال: ٣٩.

(٣) سورة النساء: ٧٥.

(٤) سورة الأنفال: ٦٥.

(٥) سورة آل عمران: ٢٨.

فيه هذه الآية ، كما يقول المفسرون وتطبيقهم مبدأ ﴿إِلَّا مَنْ أْكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾^(١). أو المنهج الآخر الذي يستظهر الشهادة في سبيل الله من آيات الله البينات أيضاً ، ويستحضر مرتكزاً فقهياً يستنبطه من حديث رسول الله ﷺ القائل: ((إن الله عز وجل ليغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له ... قيل وما المؤمن الضعيف الذي لا دين له يار سول الله ؟ قال: الذي لا ينهى عن المنكر (...))^(٢) وبين ذلك المقاربتين يأتي حديث التقيّة المذكور بشعبتين أيضاً.



الأولى: ((التقية ديني ودين آبائي وأجدادي ... ومن لا تقية له لا دين له)) ويكون هذا الفهم (رخصة) لالتقاء الأعداء وكف شرهم وأذاهم ...
والثانية: ((وأيم الله لو دُعيتم لتنصرونا ، قلتتم: إنما نتقي، ولكانت التقيّة أحبّ إليكم من آبائكم وأمهاتكم ولو قد قام القائم ما احتاج الى مسائلتكم عن ذلك ولأقام في كثير منكم من أهل النفاق حدّ الله))^(٣) ويكون هذا الفهم ، (رخصة) هي الأخرى للتمييز بين (تقية الشجعان) و (تقية الجبناء) - كما يسميها الشهيد المرحوم علي شريعتي. وعلى أساس هذين الفهمين ابنتيت مباني عديدة انتهت في خلاصتها

(١) سورة النحل: ١٠٦.

(٢) وسائل الشيعة: ج ١١، ص ٣٩٧.

(٣) الحديثان كلاهما منسوبان للامام الصادق عليه السلام، راجع وسائل الشيعة ج ١١ ص ٤٨٣

الإيجابية طبعاً - ان لم نُقل التوفيقية - إن صاحب الأولى: (متفقهٌ في دينه) فيما صاحب الثانية: شهيد تعجّل الفردوس الأعلى الى (روح وريحان وجنة ورضوان) كما يرى الفقهاء ويوضحون ويستدلون ويستنبطون ، ولا يرون ضيراً في السعي لاحتواء الكلّ وتفهم مواقفهم وظروفهم وقدراتهم دون حيف أو تمخّل أو أجحاف.

هذه هي المقدمة الأولى التي أردناها مدخلاً لدراسة أو توصيف منهجيه شهيدنا الصدر الثاني عند دراسة أو تحليل المناهج التغييرية في العمل الاسلامي.

نعم، بين هذين المنهجين أو هاتين (التقيتين) - اذا جاز التعبير - تأتي الى منهج شهيدنا الكبير السيد محمد صادق الصدر رحمته، وكيف تعاطى مع ظروف زمانه ومكانه واستخدمهما معاً في ما سمّاه فترة (تقيّة مكثّفة) عاشها حقبةً من حياته رحمته ليمارس نقيضها تماماً في فترة لاحقة بعد أن وجد أن دين الله ضاع أو يكاد يُضيّع، فانبرى كما سمّاه محبوه (ليثاً أيضاً) يرتدي كفته يواجه الطغاة ويتحدّى الظالمين.

ولعلنا هنا في هذا البحث الموجز لا نستطيع التأكيد والإحاطة بكافة أبعاد وملامح المنهج التغييري الذي سار عليه السيد الشهيد ، او وجد نفسه ملزماً بتحكّمه في فترة عصيبة لم يمرّ بها مرجع من مراجع المسلمين على امتداد التاريخ لا سيما وهو يواجه طاغوتاً ظالماً وعدواً شرساً لم تعرف البشرية له نظيراً أيضاً على امتداد عصور الطواغيت والظالمين.

ولكننا نقول إنّ السيد الشهيد (رضوان الله تعالى عليه) تقحّم ميداناً

وعراً ما كان غيره قادراً على تفحّمه في زمانه فأقام من قيم الدين وأرسي من معالمه وحدوده ، وفي فترة وجيزة ، ما لم يستطع إرساءه أو إقامته العشرات من العظماء في العشرات من السنين ، حتى قيل حينها انه لم تسجّل في البصرة مثلاً ولا حتى حادثة اعتداء واحده أو سرقة واحدة على امتداد شهور من تلك الفترة لما كان أبناء هذه المدينة الطيبة يعيشونه من أجواء روحية استبدلوا فيها عبارة (قال القائد) بعبارة (يقول السيد) وبشكل لم يعهد تأريخ الطغاة والمراجع على امتداد العصور والأزمان أيضاً ، وبمعلم صارخ وواضح ، ومواجهة صريحة وإن غير معلنة ، لم يبق فيها إلا خيار التصفية والدم أمام صدام وأزلامه ومرترقته.

وإذا لم نسجّل شيئاً في هذه المواجهة أو هذا المنهج فيكفي أن نسجّل ما أكّدها حينها في كتابنا (الشاهد والشهيد) وكيف قلنا أن شهيدنا دونّ أروع ما يمكن تسجيله في سجلّ الحركات الاسلامية المعاصرة ، وهو قدرته الفائقة على استثمار الهدنة بينه وبين النظام الدكتاتوري الحاكم في بغداد، ونجاحه في استقطاب الشارع العراقي بملايينه الغاضبة، وتوجيه هذه الملايين في مشروع إصلاحى تغييري شهد ويشهد وسيظلّ يشهد عليه تأريخ العراق السياسي الحديث.

نعم، لقد تقدّم هذا المرجع الكبير بخطاب شعبي مفهوم، ولهجة تعبوية غير مألوفة (مرجعياً) عابراً من مرحلة الخطاب المكتوب، والاستفتاء الجاهز، والجواب (الفقهي) الغامض، الى مرحلة الخطاب المسموع واللهجة الواضحة والجواب الصريح. حتى كاد أن يقلب كل معادلات السلطة



الحاكمة ويعصف بأطروحتها الأيديولوجية والسياسية معاً، لولا تدخل
أجندات خارجية وإقليمية في إصدار قرار عاجل بالاجهاز على السيد
وتصفية شخصه الكبير بل مشروعه الكبير الذي أرادته للعراق والعراقيين.
هذا هو المعلم الأول من معالم منهج السيد الصدر، وهذه هي المقدمة
الأولى في معالم مشروعه التغييري الإحيائي.

مقدمة ثانية

الصلاح والإصلاح



المعلم الثاني: أو المقدمة الثانية، التي أردنا التوقف عندها قليلاً أيضاً، كما استظهرناها من نص الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾^(١) وهنا إشارة لافتة جداً لكلمة (مصلحون) إذ إنه سبحانه وتعالى لم يقل (صالحون) وإنما (مصلحون)، بمعنى، إنه عز وجلّ يمكن أن يهلكهم وإن كانوا صالحين، ولكنه أبقى أن يهلك قريةً وأهلها (مصلحون). وكلنا يعلم كم هي المسافة بين الصالحين والمصلحين أو بين الصلاح والإصلاح وهو ما شرحناه مفصلاً في كتابنا (التفسير الكبير بين الصلاح والإصلاح)، وهي الآثار التي ترتبت على ترك عملية الإصلاح والنتائج التي آلت إليها الأوضاع في العراق بعد استشهاد الصدر الأول، وما جرّه التخلف عن هذه الفريضة من أوضاع وتدابير انتهت إلى ما يعرفه العراقيون جميعهم بل العالم كله.

أقول وباختصار شديد، وبحسن الظن طبعاً أنّ كلّ مصلح من مراجعنا العظام هو صالح بالتأكيد، ولكن ليس بالضرورة أن يكون كل صالح

مصلحاً. بمعنى إن الإصلاح ظاهرة عامة يتّصف بها أو يشترك فيها كل الخيرين من أبناء الأمة وعلماؤها ومراجعها، ولكن الصفة التي استثنى فيها الباري جل وعلا إهلاك الأمة هي صفة الإصلاح وليس الصلاح، ولعلها هي التي ارتكز عليها الفقهاء واعتبروها أم الفرائض وبغيرها لا تقوم الفرائض الأخرى، (أي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). وهي مسؤولية الأمة في التغيير - كما في المصطلحات الحديثة-.

وهنا أيضاً تأتي شعبتان في تحديد مواصفات هذه الفريضة ودورها ومساحتها، فبعضهم يضعفها الى درجة قد تقترب من الصفر وتحت عنوان ((ضمان الأثر وحرز الأمن الضروري)) كما يقول الذهن الفقهي ... وبعضهم يصل بأبعادها الى نهاية الشوط وهي تقديم النفس والدم تأكيداً لها وامثالاً للأمر بها ... وهي مساحة شاسعة أيضاً قد تصل بنا أحياناً الى توصيف الشهادة نفسها وتحديد أصنافها، فالبعض يُقدم عليها مع العمد وسبق الإصرار - كما يقولون - كما هو الحال في العمليات الاستشهادية، وبعضها تأتيه الشهادة وهو في ميدان معركة ربما في خط متقدم أو خط إسناد أو خط خلفي أو أي مكان آخر في الجبهة.

بهذه الدقّة يُفترض بدعاة المنهج التغييرى ملاحظة عملية الإصلاح نفسها قبل تبنيها أو الترويج لها أو الدعوة إليها، بل حتى قبل مناقشة عملية الصلاح وربما الجنوح الى التحامل على أصحابها أو التعريض بهم والتنديد - والعياذ بالله.

وعند مناقشة منهج شهيدنا الذي كان مصلحاً بالتأكيد، نريد التوقف

مرة أخرى، وقليلاً أيضاً، عند قوله تعالى المارّ الذكر: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ونقول: إنّ الباري سبحانه آل على نفسه ألا يهلك أمةً أهلها مصلحون، ولكنه قد يهلكها إذا توقفت عند حدود الصلاح، ولم تتقدّم نحو الإصلاح ... بمعنى إنها آثرت الدعة والراحة والاسترخاء ولم تتحمّل مسؤوليتها في هذه الانتقال التي يريدها الشارع المقدس لنقل النموذج المسلم من مرحلة الصلاح الى مرحلة الإصلاح، وتحمّل مسؤولية التغيير وعدم الاكتفاء بالصلاح وحده تعكراً على الآية الكريمة طبعاً ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾^(١). التي لها تأويلاتها وتفسيراتها وفضاءاتها وآثارها التي قد تنتهي الى ما انتهينا إليه في مسألة الهلاك والإهلاك، وما شرحناه مفصلاً وبالمصدايق والأرقام والوثائق في كتابنا المذكور.

أقول: ان السيد الشهيد لم يكتف بأن يكون صالحاً، أو ولياً من أولياء الله وحسب كما يستريح البعض^(٢)، وإنما رأى أن يكون مصلحاً واثراً ومتصدياً ومبادراً، فتعجل الجنة وترك الأمة لمصير آخر عرفناه بعد حين، فيما آثر الصالحون منهجاً آخر عرفنا ماذا جرى علينا وعليهم وبعد قليل من

(١) سورة المائدة: ١٠٥.

(٢) ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾



الحين أيضاً، لا سيما فيما يتعلق بمسألة الهلاك والإهلاك.

نعم، لقد دفع السيد الشهيد ضريبة الإصلاح، وها نحن اليوم ندفع ضريبة الصلاح - إذا جاز لنا هذا التوصيف - وبين هذين الدفعين أو هاتين الضريبتين تتشكل إرادة الأمة ويتحدد مستقبلها ... فكلما زاد عدد المصلحين قلّ خطر محقتها أو هلاكها بالتأكيد، وكلما اتكمش هذا العدد، أو قلّ تراجع وتقلص، وحتى لو كان الصالحون رواد الأمة وحملة مشاعلها، فإنه سبحانه لا يريد من الأمة الرسالية صلاحاً فقط وإنما إصلاحاً، وإصلاحاً كبيراً، ولكن ضمن محدّدات الشريعة ودوائر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي قلنا أنه يقترب ويتعد بين درجة دنيا ربما تصل الى الصفر، أو درجة عليا تقترب من الشهادة أو الإقدام عليها، أي بين ممانعة واضحة وسبق إصرار واضح وصريح، وبين مقاومة خجولة قد تنداح الى التسليم وربما الاستسلام في نهاية المطاف .

المقدمة الثانية هذه هي التي يُفترض بهدأة الأمة وحاملي ألوية التغيير والإصلاح فيها تفهمها واستيعابها والتعاطي معها بحذر ومسؤولية كبيرين وبلا إفراط أو تفريط.

ولعلّ أخطر ما في هذا الحذر هو تشخيص دائرة (الإصلاح أو الاقتحام) لموقع الحاكم الظالم، وهذه لا يحددها إلا المرجع المتصدي للمسؤولية، أي إنه وحده هو الذي يحدّد شكل المواجهة أو سلّمها أو درجتها، وهو وحده الذي يقدر دائرة الأثر والأمن من الضرر، لأنه الأكثر حرصاً - أو يُفترض هكذا - على الدماء والأموال والأعراض، ما دام في

موقع المسؤولية أو في موقع التصلي، ولا يحق لأحد غيره - باعتباره إماماً قائماً - الوقوف في عرض مواقفه، وخاصةً في الخيارات الصعبة والحساسة، وإن صحَّ له أن يقف في طولها حين تتشابك الآراء وتتقاطع الاجتهادات. ولا يُفترض بأي مسلم متشرع الإساءة لأحد أو التعريض بأيٍّ من الاجتهادين (أي اجتهاد التصدي أو عدمه) إلا في حال وجود مرجع متصدي قائم يناهضه مرجع آخر ويقف في عرض قراراته في ذات الزمان والمكان. وفي حال تعادل الرؤيتين فلا إشكال بالتأكيد من تبني إحدى الرؤيتين وفق الأصول الشرعية. وفي حالة تبني رأي المتصدي أو الترويج له والدعوة إليه، تأتي درجة التعاطي مع الآخر المغاير وفق الرؤيتين المطروحتين باعتبار أن كلاً منهما اجتهاد معتبر، لإمام محترم (قام أو قعد) وإنَّ كلاً منهما ارتكز على مبانٍ فقهية سواء في تحركه السياسي أو مشروعه التغييري والاصلاحي.

وربما يُثار سؤال حساس هنا: إذن لماذا نثير غباراً على هذا الإشكال، ولماذا يُطوَّع الترجيح أو يُراد له التطويع أو الترجيح إذا كان لكلٍ منهما رؤيته في إطار الشريعة؟

نقول: إنَّ هذا الترجيح لا ينبغي أن يُفهم أنه تعريضٌ بأحد أو إشادة بآخر. ماذا إذن؟

إنه كشفٌ مطلوب لمعالم مدرستين في مذهب واحد وزمان واحد يُفترض بأبناء الأمة الإسلامية التحرش بمباهما العذبة والغوص فيهما واكتشاف عمقهما، أي عمق كل من المدرستين، وذلك لاستجلاء الأصح



من الصحيح، والأفضل من الفاضل، والأحسن من الحسن، وهذا هو الفرق بين مدارس تعميق الوعي ومدارس التسطیح، وهذا ما تعكسه طبعاً النوايا المخلصة في سعيها الحثيث للبحث عن الحق والحقيقة، وليس في مكرها المحموم لإثارة الفتن والإصطیاد في الماء العكر على ضوء الفهمين ...

أين موقع السيد الشهيد؟

وإذا أردنا تسليط المزيد من الضوء على هذين الفهمين، فقد نصل الى موقفين متقابلين في الذهن الفقهي - كما يقولون- يرتكز الموقف الأول على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجبان - كما قلنا- إلا بعد الإطمئنان من عدم ترتب الضرر، واليقين بإحراز الأثر، وإن تسعة اعشار الدين في التقية، الأمر الذي قد يُجمد هذه الفريضة السامية التي هي أسمى الفرائض - كما يسميها البعض - الى درجة الصفر، وبالتالي تصفير عملية التغيير الاجتماعي فضلاً عن الثورة. والموقف الثاني الذي يرى أن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف (الذي لا دين له) كما جاء في الحديث الشريف (المار الذكر) وإن التقية حسب هؤلاء- ربما تصبح رخصة للهروب من تحمّل المسؤولية الشرعية وإحقاق الحق، وما يستتبع كلا الاتجاهين من ركون الى الظالم أو السكوت عنه بذريعة قتل الفتنة والحفاظ على الأرواح والممتلكات والاحتياط في الدماء.

وبنفس الدرجة، يمكن أن يُستدرج المتصدي - وإن كان مخلصاً- الى حالة من الاستعجال ربما لعدم الدراية أو عدم دراسة الظروف الزمكانية الى حالة من الفوضى وقلة الانضباط، قد تُجرّ أو تُجرّ، بمعنى قد يُستدرج

المتصدي الى سفك دماء وهتك أعراض وضرر أكثر من أثر، وهو ما ارتكز عليه الطرف الآخر في تبني رؤيته السلمية وعدم إقدامه على تقمّث الثورة أو التصدي العنيف في التغيير.

ومن هنا يتنزع الكثيرون من فقهاء المذاهب الإسلامية موقفهم الشرعي من الحاكم الظالم، من نصوص شرعية كثيرة ومتباينة تصل بعضهم أحياناً أنه لا يجوز الخروج على الحاكم الظالم إلا إذا ارتكب كفراً بواحاً... وإنه لا يجوز الخروج عليه ما دام يُقيم الصلاة ولم يأمر بمعصية (أي لا تجوز الثورة عليه حتى لو فعل المعصية)، وفي ذلك تفاصيل يمكن الرجوع إليها لدى الفريقين، وخاصة عند أخواتنا أهل السنة الذين انسحبت بعض مواقفهم واجتهاداتهم على العديد من علمائنا وفقهائنا، وخاصة في لحظات المواجهة العصيبة مع الحكام الظلمة والطواغيت^(١).



(١) يقول ابن تيمية في كتابه (السياسة الشرعية) ص ١٦١: ((ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان)) وذهب بعض الفقهاء أنه لا يجوز الخروج على الحاكم حتى لو كان فاسقاً أو ظالماً ما دام يقيم الصلاة ولم يرتكب كفراً بواحاً، وذهب آخرون أنه تجب طاعة الحاكم برأ كان أو فاجراً، وروي عن الإمام أحمد كما جاء في (الأحكام السلطانية)، ص ٢٠ قوله: ((ومن غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المؤمنين، لا يحل لأحد أن يبيت ولا يراه إماماً برأ كان أو فاجراً، وأمثال ذلك، مما لا يستقيم أو لا ينسجم مع المنهج التغييرى لفقهاء آخرين يفضلون نقل الحكم الى أيدي المؤمنين، ولا يجدون طائل من وراء المنهج الداعي الى نقل الايمان الى قلوب الحكام.

وهو ما حصل مع السيد الشهيد وتصديّه الفريد لطاغية العراق، رغم أن تصديّ الرجل لم يخرج عن كونه ثقافياً وسلمياً ولم يرق الى مستوى المواجهة والعنف المسلّح.

ترى، أي الاتجاهين أفضل أو أصحّ أثناء تقاطع الاجتهادات أو تداخل الاتجاهات في زمن واحد مع حاكم واحد؟ وأيها أجدر بالترويج والاتباع في حال وقوع الفتن وعدم وضوح التكليف؟ لا سيما إذا كان الحاكم ماكرأً وخبيثاً وقادراً على أحتواء تملل الأمة والالتفاف على وعي أبنائها واستيعاب غضبهم ونقمتهم؟!

هذا فعلاً هو الإشكال الذي يحتاج إلى إجابة واضحة، وهذا هو المشتبك الذي يحتاج إلى تفكيك، وخاصة عند ظهور مدرستين، وتقاطع اتجاهين، وتدافع رأيين، وتشابك خطابين ورؤيتين وموقفين!!

هنا تجب العودة الى ولاية الأمور الذين تنتخبهم الأمة أو تُشخصهم وتقبل بهم، وعليها أن ترضى بحكمهم وتطيع أوامرهم، وإلا تُترك المسألة في دوائر الاجتهاد والاجتهاد المضادّ والرأي والرأي الآخر، وهذا ما يترك تداعيات خطيرة وخطيرة جداً وخاصة عند اتخاذ القرار، أو بعد اتخاذ القرار. وهنا ينبغي الالتفات أو العمل على تقليص المساحة بين ما هو أصحّ وصحيح، أو فاضل وأفضل، وصولاً لردم الهوة بين القيام والعود، أو بين التقدّم والإحجام، أو التوقف والاحتجام، وعلى الأقلّ الاتفاق، وإن غير المعلن -على ما يمكن تسميته توزيع الأدوار وتفويت الفرصة على الحاكم الظالم المتربّص لتمزيق الأمة وتفكيك لحمتها والاجهاز على وحدتها وقيادتها.

نعم، يمكن أن تبقى الرؤيتان محترمتين - في هذا الإطار- ما دامتا في دائرتي الشرع المقدس، وما دامتا من إمامين أو مرجعين، شريطة أن يجري إطلاع المكلف على كلتا الرؤيتين وعدم تقديس إحدهما واعتبار صاحبها معصوماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعدم اعتبار الأخرى سقوطاً وفسقاً ومروقاً من الدين والشريعة ... وبكلمة أخرى إطلاع المكلف على الرأيين ومنحه حرية الاختيار حسب فهمه وتشخيصه، وكما كان للمجتهد إذا أخطأ حسنة وإذا أصاب حستان فإن للمكلف مثل هذا الحق شريطة ألا يخرج عن الأطر الشرعية أثناء الترويج لما يعتقد أنه الصق بالحدود، وأولى بالاتباع وأجدر بالتنضيج، وأحق بالترشيد وأحرى بالترويج.



وقبل الدخول في بعض تفاصيل ومصاديق المشروع التغييرى الذى قاده الصدر الثانى (رضوان الله عليه) والذى فجر من خلاله صحوة اسلامية جماهيرية كبيرة داخل العراق مواجهاً بذلك حملة الايمان الصدامية الكاذبة والاسلام الطائفى السيئ الصيت آنذاك ممثلاً بحملة أموية شعواء ضد المخلصين من دعامة الإسلام المحمدي العلوي الأصيل. أقول قبل الدخول فى هذه التفاصيل ينبغى القول أن ما سُمى مشروع الحوزة الناطقة فى حينها لم يكن شرعاً جديداً أو خطأً مذهبياً أو عقيدياً جديداً فى الإسلام مقطوعاً عن مبادئ الإسلام وقيم الدين الحنيف، وإنما جاء سلوكاً وتجربة وممارسة، وليس هويةً واتماءً فقط، كما جاء دعوة صادقة لإحياء المقيب من تعاليم هذا الدين واستنهاض حماته لاستئناف قيمه التى غابت أو عُيبت

في عراق الاستهتار والمجون الصداميين، ومحاولات الطاغية لفصل الدين عن المجتمع تارةً وفصله عن السياسة أخرى، وتمييع فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الى حدّ الصفر وإعادة ترويج معزوفة ما لله لله وما لقيصر لقيصر.

وجاء منهج الصدر أيضاً منذدأً بدعاة انتظار الفرج بمعنى القعود والانتظار السلبي، وليس الايجابي طبعاً، مشدداً النكير على أولئك الذين يريدون تهميش دور العالم الديني وحصره في دائرة ذلك الانتظار السيء، أو حبسه في التكايا وحلقات الذكر، وفتاوى الفقه الفردية المحدودة والبعيدة عن الواقع الاجتماعي، التي انشغلت أو استغرقت كثيراً بأحكام الطهارة والنجاسة والقصاص والديّات وأحكام الشكوك والمياه، والعقود والايقاعات، والزواج والطلاق، وما إلى ذلك، وهذا يعني أنّ السيد الشهيد أحدث هزة عنيفة في ضمير الانسان العراقي، وزلزالاً في وجدانه نقله من مجرد الاقتصار على فقه العبادات الى اقتحام مواقع متقدمة في المواضيع الاجتماعية وحتى السياسية أي فقه المعاملات - كما سنقرأ.

ولعلّ من أشدّ الإشكالات التي فكك السيد الشهيد حلقاتها، وأدخلها ثوابت أصيلة في نظرية التغيير الاجتماعي السياسي - وعلى نهج الإمام الخميني قدس سره هي إشكالية النخبة، ودور الجماهير، ورقابة الأمة، وموقعية رجل الدين في العمل الجماهيري، ومسألة التصدي والإقتحام، والحوزة الناطقة - كما ذكرنا؟- وكذلك مركزية علماء الدين والمتقنين الرسالين الذين ألبسهم العمائم وأرسلهم الى كافة مناطق العراق لاستنهاض الأمة

وتوجيه الجماهير وتعبئتها واستصراخها.

نعم، لم يستطع السيد الشهيد أن يطرح موضوع السياسة والعمل السياسي الى الواجهة، لأنه كان يدرك خطورة ذلك على منهجه وترتبط الطاغية وأزلامه للايقاع به وبمشروعه إذا استدرج الى ذلك، ولكنه أدخل كل ما من شأنه تحريك الوجدان العراقي المسلم الى التصدي للعصابة الحاكمة - وخاصة في شعاره المعروف (نعم، نعم للإسلام) مقابل شعار السلطة المعروف (نعم، نعم للقائد صدام حسين).



مجلس الشورى الإسلامي
الجمهورية الإسلامية الإيرانية
١٣٥٧ هـ

مرور سريع على بعض مصاديق المنهج التغييري للسيد الشهيد

دعونا الآن نمر مروراً سريعاً ولو بالنقاط على أهم ملامح أو مصاديق المنهج التغييري الإصلاحي الذي مارسه السيد الشهيد الصدر وقاد من خلاله سفينة العراق وحيث أحدث في سنة واحدة ما لم يستطع غيره إحداثه في عقود من السنين على صعيد بناء النموذج الذي به يقاس تقدّم الأمم والحضارات والشعوب.

ولعل العنوان الأبرز الذي يمكن وضعه لهذا المشروع هو (الجمعة والأمة والكفن) وما يمكن أن تستبطنه كل كلمة من هذه الكلمات وخاصة الرمز الأخير (أي الكفن). أما حصا هذا العنوان وعطاؤه فيمكن إجماله بالنقاط التالية:

١- إنه بإقامته لصلاة الجمعة إنما أحيأ شعيرة إسلامية من شعائر الله ظلّت معيّبة، بل عيّبها الذهن الفقهي التقليدي قروناً عديدة، بذريعة أنها واجب تخيري لا تعيني فخرمت الأمة من هذا المؤتمر الإسبوعي الذي

يمكن أن يكون بوابة تغيير إصلاحية كبرى إذا أحسن استخدامه طبعاً في غياب القنوات الفضائية آنذاك، وتأميم وسائل الاعلام واحتكارها بأيدي السلطة وخنق الحريات العامة بكل أشكالها وألوانها.

نعم، استطاع السيد بهذا المنبر أن يعيد التذكير بالفكر الإسلامي الذي ينفث على الحياة ويتحرك على أرض الواقع بلا تهيب أو تردد أو استئذان. ففي هذه الصلاة تنفس الجمهور العراقي آنذاك، وعظاً وإرشاداً وإحساساً جديداً بالهوية والانتماء. هذا المؤتمر، وإن سمحت به السلطة في البداية، لإمتصاص النعمة أملاً بتحجيده واحتوائه لما يخدم مصالحها طبعاً، إلا إنها توجعت منه وتطيرت شراً بعد أن شعرت أنه يمتد ويتسع ليتحوّل الى واقع حركي اجتماعي يمكن أن يثير كوامن مدفونة قد تتحرك في ضمير المواطن العراقي وتحوّله الى كائن آخر، غير ذاك الذي حاول صدام صناعته على امتداد عقود. وبكلمة أخرى، إن السلطة آنذاك كانت تريد للإسلام أن يبقى أسير التكايا، ورهين مجالس الذكر والدروشة، والعبادات المتماوتة، كما يُسميها المرحوم الشهيد المطهري، وتبقى حدوده وتعاليمه، شعائر محنّطة بعيدة عن الواقع والحياة وهموم الناس - كما يقول الشهيد الصدر الأول عليه السلام. وحين راح الناس من خلال هذه الصلاة، وزيارات الأئمة عليهم السلام وحتى أثناء مسيراتهم الصامتة، يُعبّرون عن احتجاج صارخ، رغم صمته، ولكنه يخترن التحلّي والغضب، ويُحرك كوامن السخط والرفض في النفوس المعتملة ضد السلطة وإجراءاتها التعسفية.

فكيف إذا تحولت هذه المسيرات الصامتة الى شعارات وصيحات،

وكيف إذا انطلق الشعار المارّ الذكر (نعم نعم للإسلام) بديلاً عن (نعم نعم للقاء صدام حسين)؟؟ وشعارات أخرى يعرفها أبناء العراق الذين عاصروا وعاشوا تلك الأحداث وتلك الأيام، وما زال إظهارها (أي إطار هذه الشعارات معمولاً به لحدّ اليوم في شوارع بغداد بما فيها كلمتي القبول والرفض (نعم نعم) و(كلا كلا)).

٢- قام المرجع الشهيد بإرسال الوكلاء والمبلغين الى كافة أرجاء العراق حتى وصل بعضهم الى مناطق نائية ومعزولة، لم يكن أهلها يحملون يوماً بصلاة جماعة فضلاً عن صلاة جمعة في تلك الأيام السود البغيضة، وقد بلغ عدد أئمة الجمعة أكثر من سبعين أو ثمانين إماماً كان معظمهم من الشباب الرساليين الواعين الذين عرفوا كيف يخاطبون الأمة بعفويتها ولغتها، والذين وصفتهم بعض وسائل الإعلام العالمية حينها أنهم شباب من ذوي الهمم العالية ويتم اختيارهم على أساس الوعي والشجاعة وليس على أساس الولاء الشخصي أو الفئوي، فاستطاعوا من خلال وعيهم وشجاعتهم تجسير الثقة بل توثيقها بين الأمة والحوزة من جهة، وبين الدين والمجتمع من جهة أخرى، كما تمّ سحب الثقة المهزوزة أصلاً بين الجماهير والنظام الحاكم، تارة ثالثة، وخاصة حين جاءت تعاليم السيد الشهيد وتوصياته لهؤلاء الوكلاء بعدم مدح الحاكم أو ذكره في الصلاة أو في دعاء الختام، وهذا ما أفرز السلطة وأرعبها حين تأكّدت أنّ هذا الرفض يعني الكثير الكثير (أي رفض الدعاء للحاكم) على كل الأصعدة والمستويات، وهو ما لم يحدث وربما لن يحدث على امتداد عصور الحكام والعلماء وبذلك



الشكل الصارخ الواضح، ومع مَنْ؟ مع (مهندس النصر) و (السيد القائد) و (قعقاع العرب) (زعيم الأمة والدين، القائد المهيب الركن صدام حسين)!! نعم، هذا القائد المهووس الذي يحب الألقاب والأوسمة والنياشين والذي لا يترك لقطة تلفزيونية واحدة أو صفحة واحدة من صفحات الصحف، ولا مشهداً في سوق أو شارع أو وسيلة إعلام إلا وهو الوحيد الأوحد (صاحب الأسماء الحسنی)! كيف يسمح اليوم لملايين الناس يمرّون ويتحدّثون ويدعون ويصلّون ويخطبون دون أن يأتوا على ذكره وتمجيده، وعن عمدٍ وسبق إصرار؟ إن ذلك لن يحدث ودونه خرط القتاد... وراح الجميع على منهج السيد الشهيد، ولم يُذكر (القائد) على منبر جمعة على الإطلاق، بل ذُكر ويُذكر (القائد) الذي أبى إلا أن يقَدّم رأسه ورأسَي نجليه، ولم يقَدّم يديه للقائد المقبور السيء الصيت، ناهيك عمّن استشهد من خيرة وكلائه ومجبيه من أبناء العراق العزيز في هذا الطريق.

٣- قام المرجع الشهيد بتأسيس المحكمة الشرعية مقابل محاكم الدولة، لافتاً بذلك أنظار أبناء الأمة الى هويتهم الدينية من جهة، وإشعارهم بأن السلطة بعيدة عن أحكام الدين من جهة أخرى، وفي محاولة مقصودة لكشف المسافة بين هذه السلطة وبين الأمة وأحكام دينها، وهو أمرٌ طالما اختلط على بعض شرائح الأمة بعد أن تهيبّ الكثيرون من العلماء أو تردّدوا في تلوينه وعرضه، واطهاره للناس بشكل واضح وصريح، وأمام طاغية متفرن عن يحبس الأنفاس ويحسبها وليس الحركات والكلمات فقط.

هذا، وفي نفس الاتجاه قام السيد بطرح ما سمّاه (الفقه الاجتماعي)

وذلك بإصدار ما يُسمى (السنينة العشائرية) مثلاً موضحاً عدم انطباق بعض السنن العشائرية المعمول بها مع تعاليم الإسلام وفي سابقه لم يُقدم عليها عالم قبله، ومناقشة بعض القضايا الحساسة في هذا الوسط وفي غيره من قبيل مخاطبة الغجر وأصحاب الفن والرسم وموظفي الدولة، وأمثال ذلك مناشداً المسيحيين من أبناء العراق أن يقتلوا بالسيد المسيح ومريم العذراء في حياء النساء في حجابهنّ وعفتهنّ وعدم شرب الخمر. نعم، الإقتداء بالسيد المسيح والسيدة العذراء مريم (سيدة النساء) في لباسها المحتشم ونجابتها وطهارتها وترك التبرج أو السفور الذي يولد الفسوق والفجور وما الى ذلك من دعوة للتمسك بالقيم والفضائل. وقد استجاب كثيرون للسيد الشهيد حتى قيل وقتها أنه لم تبقَ هناك سافرة واحدة في بغداد تجرؤ على تحديّ القيم بلباس مبتذل في سوق أو شارع، حتى إنّ سائق السيارة راح يمتنع عن الوقوف للمتهتكة في شوارع العاصمة، استجابةً لهذا النداء الوجداني العظيم.

٤- أوعز المرجع الشهيد لمكتبه إصدار مجلة تهتم بشؤون الأمة والحوزة وفق المسموح به طبعاً من قبل السلطة والتي لا تسمح بمسّها على الاطلاق، وذلك لتجسير العلاقة أو توثيقها بين الشباب الرسالي الواعي والمركز الديني أو المرجعية الدينية في النجف الأشرف، وفي محاولة متواضعة لاستقطاب المثقفين العراقيين الذين حرمتهم السلطة من أي لون من ألوان الثقافة الإسلامية الأصيلة وذلك بعد حظر هذه السلطة للكتاب الإسلامي وإتلافه ومنّعه وملاحضة الحائزين عليه، وحتى كتب الأدعية



والزيارات وبشكل لا مجال هنا للحديث عنه والإفاضة فيه.

نعم، راحت هذه المجلة متبينة توجيهات السيد وخطاباته في انتقاد بعض الأمور الشائعة خطأً وإلقاء الضوء عليها وتصحيحها أو إصلاحها حتى وصل به الأمر (رضوان الله عليه) أن يتحدث في أدق التفاصيل من قبيل ظاهرة تقبيل اليد السيئة وإطلاق الصلوة في غير محلها أثناء دخول أحد الكبار الى المجالس، وتصدر الجلوس في هذه المجالس، وظاهرة الفواتح وما تكتنفه من مظاهر سيئة كالرياء والبذخ والنواح، إضافة لمواجهه ما سماه (قداسة السدنة) و (تجبر السلوكين) و(السكوتين) الذين لم ينصروا حقاً ولم يخذلوا باطلاً. وكان ممّا قاله في هذا السياق:

((إن الناس لو كانوا استجابوا بكثرة وزخم حقيقيين، وإذا كانت أعداد مهمة منهم قد أدركت مصالحتها الواقعية في نصرة الحسين عليه السلام لتحقّق النصر العسكري لهم فعلاً، ولفشل عدوهم الأموي الظالم... غير أن المجتمع في ذلك الحين كان متخاذلاً جاهلاً... فصار الذي صار)) وهو عين ما أشار إليه أو أجمله السيد الشهيد الصدر الأول عليه السلام بعبارة واحدة تقول: ((إن تراكم التقصيرات هي التي أدت الى قتل الحسين)). وما يمكن أن تنطوي عليه مثل هذه الجمل والعبارات وتفسيراتها في تلك الحقبة السوداء.

٥- لقد استوعب المرجع الشهيد بشكل جيّد ما سماه (قانون ترابط الأجيال) أو (قانون الترابط بين الأجيال) إذ أنّ كل جيل يمكنه أن يتمم

المهمّة التي بدأها الجيل السابق، وإنه سترك للجيل الذي يليه، ما حمّله من مستوى فكري وثقافي فهو القائل: ((إنّ الايمان بالعمل الإسلامي كلّما واجه من العقبات أكثر واحتاج من التضحيات أكبر، كان موجِباً لتكامل الفرد بنحو أسرع)) وكان يعتقد أن الأمة تتكامل هي الأخرى بالتضحية والعطاء، وإن حاديتها إذا رحل عنها صادقاً محبوباً فإنه سيورثها بالتأكيد سيرته وأفكاره وإنها سوف تتكامل مع تلك السيرة والأفعال كلّما ازدادت عليها المحن واشتدت الرزايا والكروب. وهذا يعني إنّ هذا الحادي سوف يصبح رمزاً مقدساً ومحوراً لاستقطاب كل الأحرار والشرفاء بمن فيهم أولئك الذين ناصبوه الخصومة في حياته أو ناوأوه باعتباره منافساً لهم، أو محرّجاً لهم، أو مستفزاً لضعفهم ونكوصهم أو تراجعهم، أو هكذا كانوا يتوهّمون مع الأسف الشديد.



ولذلك تراه تفحّم ذلك الطريق الوعر ضد الطاغية مدرّكاً لنهايته مقدرّاً لما سيؤول إليه مصيره من القتل وقد صرّح بذلك مرات عديدة قائلاً: (إنها طلقة واحدة وينتهي كل شيء) فكان بهذا الوضوح، وكما قلنا، نمطاً من نوع فريد في استعجاله الجنة، وهو طريق أو منهج لا يقدر غير الأبطال تفحّمه وخوض ميدانه وبالجدارة والكبرياء اللتين عرفهما أبناء العراق في من سَمّوه ((الليث الأبيض)) الذي ظهر مرتدياً كفته وما يرمز إليه بكلّ وضوح^(١).

(١) جدير ذكره ... ان ارتداء الكفن في غير الموضع الذي كان السيد الشهيد يرتديه في مواجهة الموت ربما يُعتبر في غير محله، بل قد يُفسر أو يُقرأ نوعاً من الرياء المذموم أو المباهاة المذمومة - والعياذ بالله -

٦- كان منهج السيد الشهيد يجمع بين ثقافتين ويؤكد على محورين في حركته الإحيائية. ثقافة النخبة، وثقافة الجمهور أو العوام، وكان يخاطب الصنفين بشكل صريح رغم ما في هذا الخطاب من صعوبة أحياناً لا يقدر عليها كثيرون، وخاصة في استخدام الجمل والكلمات المناسبة للشريحتين. فتراه يتحدث في أعمق المسائل الاعتقادية والفلسفية بلغة سلسلة مفهومة يحاول أن يرتقي من خلالها الى مستوى أصحاب الثقافة العالية، ثم ينزل بها الى مستويات الدرجات الأقل ثقافة حتى باستخدام النكته أو الدعابة - كما عُرف عنه رضوان الله عليه- فكان يؤكد دعواته على إحياء الشعائر الإسلامية ويدعو الى التفاعل معها مشيراً وبوضوح أيضاً الى ضرورة التعتيل في بعض مناسبات الوفيات مؤكداً على ارتداء السواد أيام عاشوراء ورفع الأعلام السود باعتبار تلك المناسبات محطات شعائرية وتعبوية لحشد أكبر عدد من جماهير الناس واستنهاضهم لاستحضار القيم الدينية التي غيبتها السلطة الظالمة، وهكذا الشعائر والطقوس التي يجتمع حولها العوام أكثر من اجتماعهم حول الندوات والمؤتمرات وملتقيات الفكر والثقافة. فكان يذكر النخبة والجمهور معاً ويؤدي دهشته كيف إن الجمهور العراقي الشيعي لا يدري بأعياد المسلمين أو مناسباتهم التاريخية كالمولد النبوي الشريف وعيد الغدير ووفيات الأئمة في وقت تراه يعرف أو يُعرّف بميلاد الحزب ومولد الطاغية أو ذكرى الانقلاب المشؤوم وبعض المناسبات المحلية والعالمية الأخرى التي لا ترقى في عمقها الى عُشر معشار ما يُفترض أن تختزنه ذاكرة الإنسان المسلم وضميره ووجدانه.

٧- أما موقفه الإيجابي من العاملين في الوسط الاسلامي بكل أولائه وأطيافه وطوائفه، وشمول أبويته - رضوان الله عليه - وحبّه لكافة أبناء المذاهب الإسلامية وحتى غير الإسلامية فحديثٌ يطول، - كما مرّ معنا عن المسيحيين والغجر - ومناشدته الحانية لكافة موظفي الدولة والمسؤولين، واستفتاءاته المتعلقة بعمل المجاهدين واحتضانه لكل من كان يعمل ضد السلطان الجائر، وفتح قلبه لهم، بعد فتحه أبواب بيته طبعاً رغم ما في ذلك من مخاطر العيون وجواسيس السلطة وأزلامها، وموقفه الايجابي من الجمهورية الإسلامية وتسميته للسيد الإمام الخميني بأبي أحمد في تلك الظروف العصيبة وكذلك ثناؤه على بعض مواقف السيد الخامنئي، كلها محطات اختبار صعبة ما كان أحد غيره يستطيع التعاطي معها بتلك الموازنة والدقة وإن كانت حياته هي الثمن في نهاية المطاف مع الأسف الشديد.

٨- ولعلّ آخر وأبرز معلم من معالم المشروع الإحيائي الإصلاحية للسيد الشهيد الذي فجّر من خلاله مشروعه النهضوي الإسلامي الكبير، والذي لا يستطيع أو لم يستطع الكثيرون فعله أو فهمه حتى من إخوانه المقربين إليه، هو تعامله مع رموز السلطة الغاشمة، وكيف استطاع توظيف من يمكن وما يمكن توظيفه منها ومنهم لخدمة برنامجه ومشروعه، رغم أن ذلك كان سلاحاً ذو حدين - كما يقولون - فهو من جانب يغمر إجراءات السلطة القمعية ويطعن بشرعيتها، وهو من جانب يدعو إلى التقية منها ومنع الاصطدام بها وخاصة في المسيرة الشعبانية التي كان مقررّاً لها أن تنطلق الى كربلاء مثلاً. ولكنّه حين أدرك في النهاية أن السلطة لا تستطيع أن تتحمّله



في محاولاته احتواءها بعد أن عجزت هي عن احتوائه، وأيقن أنه مقتول لا محالة قرر التصعيد وتحمل النتائج وعبر الأمور التالية:

(أ) الإصرار المطلق على رفض الدعاء للطاغية في خطب الجمعة حتى بكلمة واحدة رغم إصرار الأخير وأزلامه على ضرورة الدعاء له مستغلاً فترة العدوان الأمريكي البريطاني على العراق لتبرير هذا الدعاء والحاجة السياسية إليه. ولكن السيد الشهيد أكد بشدة على جمع وكلائه أنه لا يجوز الدعاء لأي بشر في الدنيا في الصلاة إلا للمعصوم - حسب تعبيره ذات -.

(ب) التحريض على أمريكا وبريطانيا وإسرائيل في الصلوات والخطب والمناسبات باعتبار الطرفين الأولين هما اللذان جاء به ومكّناه على امتداد حربه مع إيران، وإن إسرائيل هي عدوة العرب والمسلمين الأولى مضمناً هذا التحريض أو مستخدماً شعار الرفض المعبر (كلا كلا للظالم) وما يعنيه ذلك الشعار في تلك الأجواء التي كان النظام يحسب فيها الأنفاس ويحصى الكلمات كما هو معلوم، ومن يعنيه بالظالم آنذاك؟ وهل هناك من ظالم أصلاً في حكومة صدام ابن حسين؟!)

(ج) أحصى مرةً إثني عشر سبباً عرض خلالها بالسلطة لمنعها المسيرة الجماهيرية المذكورة آنفاً التي كانت معدة لزيارة الإمام الحسين عليه، إضافةً لما كان يؤشر عليه من أسباب نزول الشهب في سماء العراق وما كان يعرضه تلفزيون الشباب من تبذّل وهبوط وترّهات... وهي أمور ما كان ليقرب من ذكرها أو التحرش بها إلا من وضع روحه على راحته أو استعدّ لأن يحمل خشبة إعدامه على ظهره - كما يقولون -.

كلمة أخيرة - الحذر الحذر عند التوصيف وإطلاق الشعارات

هذا المنهج الاقتحامي الهجومي هو الذي رسم معالم المشروع الاحيائي للسيد الشهيد في مراحلهِ الأخيرة، وإن تأكيد أرجحية هذا المنهج في زمان ومكان معينين لا يعني ترجيحه في كل زمان ومكان. كما إن تفضيل الجمهور العراقي لمشروع السيد آنذاك لم يكن تفضيلاً لشخصيته رضوان الله عليه - على شخصيات الآخرين، وإنما تفضيل منهجه. إذ أن تفضيل المنهج لا يعني بالضرورة تفضيل الشخص، لأن تفضيل الشخص أو تزكيته إنما هي من مختصات الباري تعالى، وليس من حق أحد إدعاء هذا الحق بأي شكلٍ من الأشكال.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن ترجيح الكثيرين للمنهج الاقتحامي لدى القائد إنما هو تقييم لشجاعته وتوصيف لها، وإن الشجاعة أو الاقتحامية في القائد أي قائد إنما هي قيمة مطلوبة بحد ذاتها، وليس بالضرورة أن يكون ذلك اتهام للآخر بالضعف أو الجبن، كما ليس بالضرورة أن تكون تلك الشجاعة، شجاعة دائماً، فالخيطة قد يصبح رفيعاً ورفيعاً جداً أحياناً بين الشجاعة والشقاوية أو التهور، كما هو رفيع ورفيع جداً أيضاً بين الحلم أو التحلم والجبن، ولا يمكن تمييز كل ذلك بسهولة من قبل مَنْ اتَّهم الإمام الحسن عليه السلام بأنه (مذلّ المؤمنين) مثلاً ومَنْ قال في (الحسين) أنه قُتل بسيف جدّه.

مثل هذه الأمور الدقيقة يجب التعاطي معها بمسؤولية كبيرة وحذر أكبر وخاصة عند اشتداد الفتن وتظاهر الزمان، ولا يُفترض بأي حال من



الأحوال إلقاء الصفات والمقاربات على عواهنها، وتركها شعارات جوف لمن يطلب من القائد مثلاً التقدّم والافتحام ولكن لا لكي يتقدّم ويقتحم معه، وإنما لكي يحضى بفتات إقدامه أو يرتزق على مائدة اقتحاميته.

ومع كل الذي قيل ويُقال ويمكن أن يُقال ... تبقى سفينة الحسين هي الأسرع في سفن النجاة ... ويبقى الدم هو الأمضى في صناعة التاريخ ... وتبقى الشجاعة قيمة بحدّ ذاتها حتى في عترة العبي، كما هو الكرم عند حاتم الطائي، ولا يجوز بأي حال من الأحوال تفتيت قيمة الشجاعة بمداراة الأقل شجاعة، أو تشويه قيمة الكرم بمداراة الأقل كرمًا ...

فللحرية الحمراء بابٌ بكل يد مضرّجة يدق ولم أر في عيوب الناس نقصاً كـنقص القادرين على التمام رحم الله من علّم أمتنا الشجاعة والاقدام أولاً، ورحم الله من علّمها الحلم والتحلّم ثانياً ... فلكل مكانه وزمانه. وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى والعاقبة دائماً للمتقين.

الصدر الثاني محمد الصدر
منظومة معارفية فاعلة في
السياسة والأدب

الاستاذ

صادق جعفر الروازق

الصدر الثاني محمد محمد صادق الصدر منظومة معارفية فاعلة في السياسة والأدب



الصدر الثاني ... هو اللقب الأبرز المميّز للمرجع الديني محمد محمد صادق الصدر، حيث أن آل الصدر العائلة الدينية الأكثر شهرة في العراق والعالم الإسلامي، التي أنجبت فطاحل العلماء وسجلت حضورها الأقوى في تاريخ الأبحاث العلمي والحضور الاجتماعي والأدبي أيضاً. فوصفه بـ (الثاني) تمييزاً عن ابن عمه الصدر (الأول) السيد الشهيد محمد باقر الصدر الذي سبقت شهادته مع أول هجمة شرسة طالت الحركة الإسلامية في العراق عام ١٩٨٠م.

فآل الصدر - وكما وصفتهم المس بيل - هم أكثر العوائل العلمية عناداً وكرهاً للظلم، وللمستعمر البريطاني بالأخص^(١)، ولذا كانت رصاصات

(١) مذكرات المس بيل، ترجمة جعفر الخياط، الكاظمية في المراجع الغربية، موسوعة العتبات المقدسة ١: ٢٧٥ ونص قوله: (هناك مجموعة من هؤلاء الذوات في الكاظمية، المدينة المقدسة الواقعة على بعد ثمانية أميال من بغداد المتطرفة في إيمانها بالوحدة الإسلامية والمتشددة في مناوأة الإنجليز ... وفي مقدمة هؤلاء أسرة آل الصدر التي قد تكون أبرز أسرة عرفت بالتعليم الديني في العالم الشيعي كله..).

الغدر تصطادهم واحداً بعد الآخر، ويشار بهم بذلك أفراد من عوائل علمية أخرى راحوا (جميعاً) ضحية العقيدة الدينية وشعورهم الوطني. فالرجل (رض) وإن كان مرجعاً فهو لم يألف الطريقة التقليدية في العمل المرجعي، فخاض بالسياسة والأدب، ونزل مع عوام الناس ومتفقيها ومفكرها وأدبائها، وشار بهم أفكارهم وتطلعاتهم، فكان بحق موسوعة عقل وعمل، وجعل من كيانه المرجعي مؤسسة دينية تجسدت بحركته، فقيهاً وخطيباً وشاعراً وناقداً ومصلحاً، وهذا ما سوف يتضح في هذا البحث أزاء قراءتنا لمجمل حركته ونشاطه الدؤوب.

أولاً: التصدي السياسي

بعد أحداث ثورة العشرين بات الدور المرجعي منحسراً ومتماشياً مع الطريقة التقليدية المألوفة إلى زمن السيد الشهيد محمد باقر الصدر، الذي أخذ منه مشروعه التغيير الفكري زمناً كبيراً في تأسيسه، فيما كان زمن مواجهته الدامية زمناً قصيراً جداً، حينما أسدلت سريعاً ستارة النظام مغيباً جسده الطاهر، وعاد الدور المرجعي ثانية إلى حالة الرتابة المألوفة والمزيد من الاعتزال، بل صاحبه الخوف المنقطع النظير والصمت المطبق حيال الأحداث الدامية في العراق.

وبعد انتفاضة شعبان - آذار ١٩٩١م، وتحت وطأة وضغط الدافع السياسي الداخلي، وشراسة السلطة، واستنفار أجهزتها القمعية في صراع دام مع الحركة الإسلامية، ومع العراقيين بشكل أعم، وفي ظل ظروف العراق التي أدخلته في دوامة الحصار والجوع والحالات الرهيبة المترابدة من

القمع والاضطهاد السلطوي وفقدان الأمن، تصدى السيد محمد الصدر (الثاني) للمرجعية الدينية في الوقت الذي طرح فيه النظام البائد إطروحته الجديدة المزعومة المسماة؛ بالحملة الإيمانية!!

هذه المعادلة التي تمثلت أطرافها بالظروف والمتغيرات التي طرأت على السلطة الحاكمة بفعل العامل الخارجي والضغط الداخلي ومشروع حملته الإيمانية، لم يستطع أي فقيه في العراق أن يفكر في كيفية استثمارها لصالح المشروع الإسلامي، لأن الخوض في هذه المعادلة وقبول طلب النظام يتطلب ضريبة كبرى للفقهاء المتصدي، سيما وإنها ذات مسار واحد لا يقبل الأثينية في المنهج، ويلزم أن يكون الفقيه المتصدي طرفاً قوياً في هذه المعادلة، ويخوض صراعاً قوياً هو الآخر في كل الاتجاهات، لأن عبء المرجعية وفق هكذا واقع على المرجع أن يتوقع الشهادة لحظة بلحظة.

ولم أكن مجافياً للحقيقة إذا قلت: إن فقهاء النجف في ذلك الظرف لم يكن أحد منهم يستطيع النهوض بهذه المهمة الصعبة والشاقة والخطيرة إذا لم نقل أنه ينتهي به المطاف إلى أن يكون فقيهاً للسلطة أو مرجعاً لها ... فكان الصدر (الثاني) الفقيه الوحيد الذي تصدى بعد أن استشرف المستقبل مع استشراف ما سوف تزول إليه ذاته الطاهرة مؤخراً!! فرضي لنفسه أن تحترق لتضيء عتمة وظلام وانحسار وغياب الوعي الإسلامي، ويوقف حمامات الدم التي أخذت من العراقيين مأخذاً كبيراً، فتحمل (رض) قساوة ومرارة ما أطلق عليه بأنه (فقيه السلطة) أو (مرجع السلطة) و(ساذج)



و(بسيط) و(عميل)... و... و...!!

وهذا ليس قصوراً أو تقصيراً عند المراجع الآخرين بقدر ماهية المباني الفكرية والفقهية التي يعتمدها الفقيه المرجع، مع كل إيماننا بتشابه دور المراجع مع دور الأئمة من حيث تعدد الأدوار ووحدة الهدف، ولكن يبقى الترويج للأمة في تفصيل هذا المرجع على ذلك بلحاظ الظرف الذي يتطلب هذا الاختيار، ولا يعني ذلك أن الأمة هي التي تحدد دور المرجع، بل هي تستجيب للمرجع ذو الفاعلية الأكثر حضوراً والتأثير ملموس في الساحة.

وبعد أن تصدى للمرجعية بطرق منهجية ومبرمجة لحركة الإصلاحية العامة، أو جد الرجل (رض) أنماطاً جديدة غير مألوفة من قبيل علاقة المرجع بالسلطة، وعلاقته أيضاً بالسياسة، والأهم علاقته بالأمة التي لم يعرف لها حد أو نوعاً من التصور، ومن ثم أوجد اصلاحات عامة في الحوزة والمجتمع، وترك موسوعة أو منظومة من المفاهيم لم تكن سائدة ومتعارفة من قبل شكلت خصوصية مميزة في مرجعيته ونهضته، والأبلغ أنه أعاد إلى الفقه الشيعي الثقافة الاستشهادية بعد أن انحسرت في نطاق ضيق من شرائح المجتمع المتطلع للتجديد والتغيير، كل ذلك وسط دهشة واستغراب المجتمع الديني، فمثلت حركته حالة من الاستثناء في نمط التحرك المرجعي، فكان له الجرأة بالإقدام للخيار الفقهي الأنضج والأمثل بعد أن وجد ثقافة التقليد منحسرة بعامل التقية ومجالات التبرير.

فمثل هذا التطوع الاصلاحى بآلياته ومجالاته المتعددة، ولذّ هزات

عنيفة في واقع باتت سلوكياته وتطلعاته أشبه بالثوابت التي لا يمكن الخروج عليها، وهذا ما جعل أن تصاحب حركته صعوبات ومتاعب ليست بالقليلة مع إشكالات واعتراضات من داخل وسطه الديني فضلاً عن ضغوطات خارجية حاولت التقليل من أهمية حركته، والأنكى ضغط النظام القاهر.

أمام هذه الضغوطات، اختار الصدر (الثاني) ويزكاء قلّ نظيره أن يبرمج حركته بدقة العارف والمخضرم سياسياً للإفلات من هذه الشباك، فأول ما أقدم عليه جاهداً - وكانت انطلاقته الأولى وباكورة أعماله - هو العمل على في (تحديد السلطة) بعد أن راهن على أن الأمة تقدمت بدرجات عالية من الوعي، فبدأت خطواته محسوبة وبدقة في اشكالية العلاقة بينه وبين السلطة والتي لم تكن تاريخياً مألوفة بهذه الصراحة والوضوح.

بالطبع أن هذه الاشكالية لم تكن عميقة تستوجب ذر الرماد في عيون المراجع!! ولكن تكمن الاشكالية في القصور والتقصير في معرفة دور القائد.

فالصدر (الثاني) وفي كتابه (أضواء على ثورة الإمام الحسين عليه السلام) أوضح مهمة أخفاء القائد لأهدافه، فهو يقول: (فمن المحتمل، والاحتمال قاطع للاستدلال أن يكون تصريح الحسين عليه السلام بأهدافه قبل حركته مفسد لها، ومخرّب لنتائجها، ومن هنا سيكون المتعین عليه كتمان ما يريد والصمت عما يستهدف، حفظاً للنتائج من الضياع) ويضيف أيضاً: (أنه من الضروري «للقائد» أن يكتم أهدافه الحقيقية في سبيل صحتها ونتائجها)^(١).

(١) أضواء على ثورة الإمام الحسين، محمد الصدر / ط ١/ ١٩٩٦، دار الأضواء: ٤٤.



كانت صلاة الجمعة (المليونية) أولى فقرات مشروعه الإصلاحية، والتي استطاع من خلالها أن يؤسس موسوعة مفاهيمية توعوية على الصعيدين الديني والاجتماعي، وأخرى حول الشؤون الثقافية والسياسية ومفاهيم أخرى حول دور القائد... وبذكاء وبراعة وإبداع استطاع تحييد السلطة أمام التنامي السريع في حركته.

فاستطاع أن يتتزع منها بعض أدواتها ويقهر جبروتها ويحجّم كبرياءها ومنهجيتها، ومن ثمّ دخل معها في صراع علني أشارت إليه خطبه الأخيرة.

ولم يحتمل النظام بطبيعته أقل بكثير من حركة الصدر الثاني، إلا أن ظروفه جعلت منه أن يساير هذه الحركة الجماهيرية، ولكن بعد أن وجد الجماهير بعيدة عن تطلعاته وتوجهاته، أسرع بالإجهاز على الصدر (الثاني) وفق مسرحية هزيلة أعدها، ظناً أن الأمة عسى وأن تصدّق ذلك!!

ثانياً: الصدر (الثاني) شاعراً

تعتبر اسرة آل الصدر من الاسر العلمية المميّزة والنادرة بالعلمية والاعلمية فضلاً عن ان الكثير من رجالها ونسائها خاضوا مضمار الادب وسجلوا فيه حضوراً واسعاً - كماً ونوعاً - ويات من النادر ان لانجد في الموسوعات الادبية ذكراً لشاعر او اديب من آل الصدر يقول الشيخ علي الخاقاني في احدى موسوعاته الادبية وهو يترجم لادباء من آل الصدر لم يغفل عن اظهار الميزة العلمية لهذه الاسرة (آل الصدر من الاسر العلوية والعلمية الشهيرة في العراق، وقد كان موطنها الاول في بغداد وكربلاد

وتعرف يوم ذاك بأل الحسين القطعي، ومن هذه الاسرة العلمان الشهيران الشريفان المرتضى والرضي، ويجمعهم جدٌ واحد، هو موسى ابو سبحة، واسرة آل الصدر تتسبب الى الامام موسى الكاظم عليه السلام.

بقي افراد هذه الاسرة في كربلاء، وقد هاجر بعضهم الى جبل عامل وقد عرفوا بأل شرف الدين، نسبة الى العلامة الكبير السيد ابراهيم الملقب بشرف الدين، ولا يزال قسم من اولاده يقيمون هناك، وقد رجع الى العراق حفيده صالح بن محمد علي أثر اشتداد طغيان الجزار حاكم عكا، حيث عاث فساداً وطغى وبغى، فلم ير السيد صالح بدأ من الهجرة، فتوطن النجف، وبقي فيها يتمتع بالمرجعية وبالحلق التي يعقدها لطلابيه، ومما ميز هذه الاسرة - (لاحظ) - ان سلسلة اجدادها لم يخل عصر منهم من مجتهد عادل.

أما من حيث نسبه الشريف من جهة والدته، فإن جدّه الشيخ محمّد رضا آل ياسين وأخوه الشيخ مرتضى آل ياسين هم من أبرز نوابغ العلم والادب.

أدباء من آل الصدر

* السيد صدر الدين محمّد بن صالح بن شرف الدين إبراهيم الموسوي (١١٩٣-١٢٦٤هـ).

قال السيد محمّد باقر الخوانساري: كان من أفاضل علماء وقته في



الفقه والأصول والحديث وفنون الأدب والعروض^(١).

وقال السيد حسن الصدر: كتب حاشية على شرح القطر في النحو وعمره سبع سنين^(٢).

ومن شعره.... هذه القصيدة في وصف رحلته الى المشهد الرضوي

على مشرفه السلام:

أتتك استباقاً تقدُّ القفارا سوابح تقدح في السير نارا
تثير مثار الحصى بالحصى وتتبع باقي الغبار الغبارا
أرادتك أبعد غاياتها وقبل الطواف رمين الجمارا
من الصافنات تبارى الصبا إذ الأفعوان على الجيد مارا
ومنها - أيضاً -

أتتك استباقاً تقدُّ القفارا سوابح تقدح في السير نارا
تثير مثار الحصى بالحصى وتتبع باقي الغبار الغبارا
ترأى لهم من تجاه الرضا بريق كسا الجو منه نضارا
ومشكاة إن لاح مصباحها أعاد الدجى آية ونهارا
يلدور إذا دار شمس الضحى ترى فلك الشمس منها استعارا
وسل هل تجافى قبيله ثرى الارض بين يديها صفارا
ولما بدا طاق أيوانها أراتنا الإله هلالاً أنارا

(١) روضات الجنات ١٢٦/٤ رقم ٣٥٨.

(٢) تكلمة آمل الآمل ٢٣٥ رقم ٢٠٤.

ومنه وردنا إلى جنة
تؤم بطون الأكف السما
تبث الشكايا وترجوا المنى
فصافح ذوبك بذلك الغبار
ومن زار قبر الرضا عارفاً
ومنها -يضاً-

سناباد طبت ثرى إنما
علي بن موسى أتتك العروس
أيحظى بها دعبل جبة
وأحرمها والفتى دعبل
وقد لي من جبة تراجع
ومن مؤلفاته: أثر العترة في الفقه، والمستطرفات في مسائل فقهية
متفرقة، القسطاس المستقيم في أصول الفقه، رسالة في حجية الظن، منظومة
في الرضا عليه السلام، وقرى العين في النحو.

✽ محمد علي بن صدر الدين محمد بن صالح بن محمد بن شرف الدين
إبراهيم الموسوي (١٢٣٩-١٢٧٤هـ) أمة بنت الشيخ الأكبر كاشف الغطاء.

قال السيّد حسن الصدر في كتابه (تكملة أمل الآمل)^(١): كان نادرة

(١) له ترجمة في تكملة أمل الآمل ٣٨٥ رقم ٣٧٣، أعيان الشيعة ٢٦/١٠ ربحانة الادب



عصره ووحيد دهره ... وكان جيد الشعر، خصوصاً بالفارسية، يمكن أن يقال: انه ما كان يجارى ولا يبارى في جودة نظمه ونثره.

قال في بغية الراغبين: ذكره صاحب (النقد) في آخر ترجمة أبيه فقال... عالم فاضل، شاعر، ثقة جليل، ماهر في أكثر العلوم، فقيه مجتهد، حسن الخلق...

من تأليفه: إحياء التقوى في شرح «الدروس الشرعية» للشهيد الأول، فرائد الفوائد في أصول الفقه، منظومة في الوقف، منظومة في الموارث، رسالة البلاغ المبين في أحكام الصبيان والبالغين، وديوان شعر بالفارسية.

* السيد محمد مهدي بن إسماعيل بن صدر الدين محمد بن صالح بن محمد ابن شرف الدين إبراهيم الموسوي فقيه مجتهد (١٢٩٦ - ١٣٥٥هـ) وهو جدّ الشهيد الصدر الثاني.

قال السيد عبد الحسين شرف الدين... وكان موسوعة جامعة، يضم الى علومه العقلية والتقليية ضلاعة أدبية، عربية وفارسية، يرجح بها على المتخصصين بالاداب من اعلام العرب والفرس.

وله في ذلك ذوق يوصله الى أبعد الغايات في النقد مع امتيازه بالذكاء والفطنة وسرعة الانتقال - ذو حافظة تجمع شوارد اللغة، وكثيراً من جيد الشعر الجاهلي والاسلامي وتاريخ الأدب العربي والفارسي، وخصائص عصوره وأحوال الامم الغابرة والحاضرة وأمثال العرب والفرس، وحكمهم الماثورة لا تفوته في ذلك شاردة..

وكان له في الثورة العراقية سنة (١٣٣٨هـ)^(١) مقام مرموق، ورأي متبع، وجهاد مشكور، وكان من الاعلام الذين ساهموا في هذا النهضة، وأمدوا الزعماء بالفكرة والجلال على نحو ما هو معروف في تاريخها المجيد. من مؤلفاته: شرح «تبصرة المتعلمين» للعلامة الحلبي لم يتم، شرح شرائع الإسلام» للمحقق الحلبي لم يكمل، وتعليقه على «كفاية الأصول» لمحمد كاظم الخراساني...



وله شعر رائق في العربية والفارسية لا يحضرني شيء منه^(٢).
* السيد صدر الدين بن إسماعيل بن صدر الدين محمد بن صالح..

اسمه محمد علي، لكن غلب لقبه الشريف.. وهو والد السيد موسى الصدر، ولد في سنة (١٢٩٨هـ) وتوفي في سنة (١٣٧٣هـ).

قال السيد عبد الحسين شرف الدين... فإن له في الأدب باعاً طويلاً، وضلعاً في اللغتين العربية والفارسية، وكان في مطلع شبابه منصرفاً إلى هذه الناحية، يجري في هذا المضممار ورفيقه حجة الإسلام الشيخ مرتضى آل ياسين، وكان يتجاريان إلى غاية مرموقة في فجر النهضة الأدبية في العراق، فكانا يشغلان أمهات الصحف بأديهما الفذ وعلمها الجمّ - وله قلم مطبوع مترسل في النثر وسهل في الشعر.

وقال العلامة آقا بزرك الطهراني: كان فقيهاً متضلّعاً، وأديباً بارعاً،

(١) بغية الراغبين ٢٢٨ - ٢٣٠.

(٢) بغية الراغبين: ٢٤٤/١.

وورعاً تقياً، وكان مخلصاً في أعماله وأقواله، ويتزعم للإصلاح كثيراً^(١).
وقال في حقّه الشهيد محمد محمد صادق الصدر - الصدر الثاني -
عاصر فلذّكر مجتمعه الذي كان يعاني من الانحطاط والمشاكل والانحراف
والفساد، فأثر ذلك في نفسه، وآسفه كأبي واعٍ كريم حرّ الضمير، ووجد أن
من واجبه أن يبادر في حدود إمكاناته لإزالة ذلك، أو تقليده والتخفيف من
أثره، عسى أن يرى المجتمع نتيجة لجهوده، وجهود أمثاله من الواعين
المتفتحين بعض النتائج الطيبة التي تسره.

ومن ثم كان يعيش في تلك الفترة على مستوى الأحداث الاجتماعية
والمشاكل الطارئة، يكون لكلّ منهما رأياً ويجد لها حلاً، وينشر ما يتوصل
إليه من نتائج وآراء في الصحف والمجلات النافذة المفعول في ذلك الحين
أو ينظمها في قصائد أو أبيات حماسية لاهبة، لكي يتلوها على أصحابه أو
لكي تأخذ طريقها إلى النشر^(٢).

ومن شعره: هذه الأبيات بمناسبة هدم مقام أئمة البقيع عليهم السلام من قبل
الوهابين:

لعمري أن فاجعة البقيع	يشيب لهولها فود الرضيع
وسوف تكون فاتحة الرزايا	إذا لم تصح من هذا الهجوع
فهل من مسلم لله يرعى	حقوق نبيّه الهادي الشفيع

(١) نقباء البشر: ج ٣، ٩٤٣.

(٢) بغية الراغبين: ٢٥٥/١.

وله - أيضاً- قصيدة في رثاء الزهراء عليها السلام، مطلعها:

يا خليلي احبسا الجرد مهارا وأبكيا داراً عليها الدهر جارا
ومنها:

كابدت بعد أبيها المصطفى غصصاً لو مسّت الطور لمارا
هل تراهم أدركوا من أحمد بعده في آله الأطهار ثارا
غصبوا حقها جهراً ومن عجب أن تغصب الزهرا جهارا
من لحاها إذ بكت والدها قائلاً فلتبك ليلاً أو نهارا
ويلهم ما ضرهم لو بكت بضعة المختار أياماً قصارا
من سعى في ظلمها من راعها من على فاطمة الزهراء جارا

ومن مؤلفاته: المهدي عليه السلام، مختصر تاريخ الاسلام، مدينة العلم في أخبار أهل البيت عليهم السلام، رسالة في حقوق المرأة في الإسلام، منظومة في الحج، رسالة في مناسك الحج، وحاشية على «العروة الوثقى» للسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي.

* السيد أبو الحسن بن محمد مهدي بن إسماعيل بن صدر الدين محمد بن صالح..

(١٣٢٠-١٣٩٨هـ) وهو عم الصدر الثاني.

قال وهو يتحدّث عن نفسه: عنيت في زمن الشباب بالشعر والأدب فطالعت للأدباء كأبي الفرج الأصبهاني، وابن خلكان الكردي العراقي، وابن حيان التوحيدي، والجاحظ العثماني البصري، والراغب - واعتقد أنه أمامي أخفى مذهبه - وما شاكل أولئك، وكنت مغرماً بديوان الشريف الرضي من



القدماء، والسيد الجبوبي من المتأخرين وقرضت الشعر في مواضع متعددة،
وسرعان ما تركته...

وقد ترجمه الأديب الفاضل الشيخ علي الخاقاني^(١)، فقال: عالم
جليل، وأديب رقيق، وشاعر مجيد... حصلت لي معه صحبة أكيدة خلال
توطني في الكاظمية وكان السبب فيها يرجع إلى خلقه الدمث، وعلمه
وآرائه الصائبة، وكنت أءنس في حديثه، وأتلذذ بأسلوبه ولهجته، وكان
مرح النفس، طيب الروح، بهي الصورة، محتشم الشخصية، وكان في دُعابته
البريئة، وفي نُكته المليحة وكلمه المشبع يأنس به كل جليس، وكنت
أجتمع معه يومياً عندما يفرغ من أداء صلاة العشاء، حيث كان يأتّم به فريق
كبير من أختيار الكاظمية... وأبو الحسن قال الشعر وأجاد في أكثره وهو
مُقلّ وشأن المقل أن يجيده، ومن شعره هذه القصيدة، وقد بعث بها إلى
صديقه العلامة المجاهد الشيخ عبد الله السيّتي عام ١٣٦٤هـ، وفيها يتشوق
إلى النجف الأشرف بقوله:

هل لي إلى أرض الغري سبيل	فأقيم فيها والمقام جميل
وأشّم من عقبات مسك ترابها	ما ينعش الإنسان وهو عليل
ويكون لي في ريعها متجوّل	وتجرّ لي فيها قناً وذبول
هل أوبة لي نحو ذياك الحمى	مستوطناً فيه ولست أحول
هل يأتي يوم بالغري يكون لي	في منتداها موئل ومقيل

(١) الخاقاني، علي: (شعراء بغداد) ج ١/ ٢٠٥ وما بعدها.

قد سرت عنها يوم سرت وفي الحشا
والصدر يجهدش بالبكاء وأدمعي
ما زلت أنظر نحوها متلفتاً
إن رحمتُ يوماً غائباً عنها فلي
لم تُصنبي عنها الضياء سوانحاً
أهواك يا أرض الغري ولست عن
لو استطع سقيت ربعك وابلأً
والقصيدة في (٤١) بيتاً.

* محمد هادي بن علي بن حسن بن هادي الصدر، المكنى أبا
الحسن^(١) (١٣٢٦ - ١٣٩٧هـ).

عالم، أديب شاعر، تولى القضاء في مختلف البلدان العراقية، كتب
بحوثاً أدبية في الصحف العراقية، ونظم قصائد بديعة، وله من البنين السيد
حسن والسيد حسين ومن شعره، قال في تاريخ مولد أبنه الحسن:

أبا الشهداء حسبي فيك منجى
إذا ما الخطب عبس مكفهراً
وها أنا قد قصدتك مستجيراً
فلا تردد يلدي وأنت بحر
يقيني شر عادية الزمان
وجدت ببابك العالي أمانى
لأبلغ فيك غايات الأمانى
يفيض نداءه بالمنن الحسان^(٢)

(١) له ترجمة في بغية الراغبين ٤١٣/١، معجم رجال الفكر والأدب ٨٠٧/٢.

(٢) المنتخب من أعلام الفكر والأدب: ٦٢٢.



* محمد صادق بن محمد حسن هادي بن محمد علي الصدر^(١)
(١٣٢٧-١٤١٥هـ).

عالم، أديب شاعر، برع في الأدب ونظم الشعر واشتغل بالتأليف وأخرج من ذلك أثراً طيبة، عيّن عضواً في (مجلس الأعيان) وأشغل منصب رئاسة التميز الشرعي الجعفري ببغداد.

من مؤلفاته: حياة أمير المؤمنين عليه السلام في عهد النبي صلى الله عليه وآله، الإجماع في الشريعة الإسلامية، الجهاد الصامت ديوان شعر بعنوان «وحي العاطفة» والشيعية في رد «العروبة في الميزان» لعبد الرزاق الحصان المصري.

* السيد محمد مهدي بن محمد جعفر بن محمد مهدي بن إسماعيل بن صدر الدين محمد بن صالح... الصدر.

ولد سنة ١٣٦١هـ أنهى دراسته الجامعية سنة ١٣٨٧هـ وعيّن في العام نفسه معيداً في كلية الآداب «قسم الصحافة».

وهو شاعر أديب، يجيد اللغتين الفرنسية والانجليزية، يمارس قرض الشعر بلونيه القديم والحديث، وينظم الشعر باللغة الفرنسية أيضاً، وله فيها قصائد ومن شعره، قوله تحت عنوان: الحب الأفيون.

صومعتي أنت ومحرابي ولهات الرغبة في غابي
ما زلت ربيعاً مؤتلقاً كالحلم يلون أهدابي

(١) له ترجمة في نقباء البشر ٢/٨٦٩ رقم ١٤٠٠، بغية الراغبين ١/٤٢٦ معجم المؤلفين ٣

من دونك أحيا منسياً منبوذاً بين الأغراب
 تنكرني إن غبت دروبي تنكرني حتى أثوابي
 الضوء مريض متحرراً هل أبحر من غير شهاب
 قنديلي أنت فهل أخشى إذ أسرح في البحر ركابي
 داهمني حُبك فانهمرت أشواق الطيب بأكوابي
 قمر يرتفّ على أفقي فارقص يا مرح اللباب
 أنا صحو الصحو أنا بحرٌ أنا خفقة ضوء منساب
 أهواك وعندي من جبي ما يكفي كلّ الأحباب
 للشمس وهبت مسافاتي ما عادت موصدة بابي
 حُبك أفيون أدمنه أحرقتني أحرق اعصابي^(١)

* السيد حسين بن محمد هادي بن علي بن حسن بن هادي... الصدر^(٢).

ولد عام ١٣٦٤هـ

عالم، كاتب، شاعر.

من مؤلفاته: أحاديث إسلامية في قضايا الزواج والأسرة، الزواج
 والمرحلة الجهادية، ديوان شعر، ومن شعره، قصيدة في رثاء الشهيد السيد
 محمد باقر الصدر، منها:

قد عظم الخطب وجلّ العزاء والصدر لا يبكي بغير الدماء

(١) بغية الراغبين: ٢٤١.

(٢) له ترجمة في بغية الراغبين ١/ ٤١٥، المنتخب من أعلام الفكر والأدب ١٣٧.



ما الدمع إلا لغة فجّة
 حفنة دمع وشظايا أسى
 فالصدر بركان لهيب اللظى
 يا وهج الإسلام يا (صدره)
 إشراقه أنت بأفاقنا
 في كل شبر منك إشعاع
 لله نفس صنتها بالدماء
 فيا حسين العصر لا تبتئس
 فأنت للأجيال أنشودة
 قولوا لتكبريت وصدامها
 لم تقتلوا الصدر ولكنه
 ولن يغيب الصدر عن ساحة
 * السيد محمد باقر (الصدر) ابن السيد حيدر... مفجر الثورة
 الإسلامية في العراق، مرجعاً ومفكراً وفيلسوفاً.

يقول احد الأدباء^(١) نجد السيد محمد باقر ومن خلال ذكره للأمثلة
 يفتح ذهن المتلقي، وهو يأخذه في استقراء علمي دقيق ليثبت له بموضوعية
 أن الله هو الخالق، لكنه في الوقت نفسه يتسلل بخفية إلى قلب قارئه وينحو
 ليجمعه مشاركاً للذهن في القرار النهائي، ونحن ندري أن التسلل إلى القلب

(١) عبد المجيد فرج الله: اسلوب السيد الصدر، رسالة التقریب العدد ٢٨/٢٠٠٠م: ١٨٣.

لا يتأتى إلا لأديب بارع أو فنان متمكن، فإذا بنا نلمح هذا العالم العملاق يرسم بكلماته لوحة زاهية، وهو يمرّ بقارئه على خمائل الأزهار، لكنه مرور المتأمل المتفكر، فيقول - ويقصد به السيد الشهيد الصدر - «حتى الجمال والعطر والبهاء كظواهر طبيعية نجد أنها تتواجد في المواطن التي يتوافق تواجدها فيها مع مهمة تيسير الحياة ويؤدي دوراً في ذلك، فالأزهار التي ترك تلقيحها للحشرات لوحظ أنها قد زوّدت بعناصر الجمال والجذب من اللون الزاهي والعطر المغري بنحو يتفق مع جذب الحشرة إلى الزهرة وتيسير عملية التلقيح، بينما لا تتميز الأزهار التي يحمل الهواء لقاحها عادة بعناصر الاغراء».



ان هذا الانتقاء الطريف وطرحه بهذه الطريقة التي يلوح منها طيفاً أدبي يخطر ما بين فجاج الحقائق العلمية ... لدليل على خطرات أديبة ومقاصد فنية انتجت هذا الانتقاء، وساقته على هذه الهيئة البهية، وحشدت له ألفاظاً بعينها من قبيل (الجمال، الجذب، البهاء، الأزهار، الاغراء).

وبشكل عام يلاحظ القارئ الجيد خلو أسلوب السيد محمد باقر الصدر من أي تعقيد ولذا اتسمت كتاباته بالوضوح والسهولة الممتنعة على غيره، بل كان رضي الله عنه يسعى إلى تبسيط المطالب الفقهية والمناهج الدراسية الحوزوية التي تأخذ من وقت الدارس الشيء الكثير في فهم العبارات المعقدة، وأبلغ دليل أن أسلوبه الواضح تجلّى في كتابته لرسائله العملية «الفتاوي الواضحة» والتي أرادها أن تكون خالية من كلّ غموض وتعقيد ينشأ من اصطلاحات الفقهاء وتعبيراتهم المعقدة ويتاح لكلّ أحد

فهمها واستيعابها.

ويذكر النعماني^(١) .. أن السيد محمد باقر الصدر أوكل مهمة كتابة رسالته العملية للشيخ محمد جواد مغنية رحمته حيث الأخير كان معروفاً بإسلوبه الواضح والمفهوم للجميع حتى لقب كاتب الشباب، ولكنه أخفق في تحقيق الغرض المطلوب الذي كان يطمح له السيد محمد باقر الصدر، لأن الشيخ مغنية (كان في كل مرة يواجه مشكلات أما لأن الصياغة التعبيرية قاصرة عن إفادة الحكم الشرعي المقصود، وإما لأن الصياغات التعبيرية لا تخلو من تعقيد ولا تحقّق التبسيط المطلوب)، بعد ذلك تبنى السيد الشهيد هذه المهمة بنفسه.

✽ آمنة (الصدر) بنت آية الله السيد حيدر الملقبة (بنت الهدى).

(١٩٣٧م - ١٩٨٠م).

وهي أصغر شقيقها (السيد إسماعيل والسيد محمد باقر) وأختها الوحيدة.

لها حس أدبي رفيع، وذوق عال، وشاعرية فذة، وخيال واسع، يتجلى في كتاباتها الإسلامية الهادفة، وكان الطريق القصصي الذي سلكته هو أفضل طريق لتعريف المرأة رسالتها، لا سيما في ذلك الوقت الذي كان فيه الجانب الأدبي يُستغل من قبل أعداء الإسلام استغلالاً كبيراً للوصول عن طريقه إلى أهدافهم اللثيمة ... فبادرت (رحمها الله) إلى كتابة القصة الهادفة

(١) النعماني، سنوات المنحة وأيام الحصار: ٦٠.

وبذلك الاسلوب الجذاب الواضح، وبدأت تعالج القضايا الأخلاقية في المجتمع بشكل شيق يشد القارئ ويجعله يتابع الفصول بشغف حتى يصل إلى النهاية. نلاحظ هذا في كتابها (الفضيلة تنتصر)، حيث نراها تنفذ إلى المرأة من الجانب العاطفي الذي هو يملكها ولا تملكه، وتضغط على ذلك (الزر) لتصل إلى الهدف المرسوم، وإثارة مشاعر الخير والفضيلة^(١)، وأيضاً في قصصها الصغيرة (الخالة الضائعة) و (ليتني كنت أعلم) والتي من خلالها عالجت وبأسلوب أدبي شيق، الأخطاء الاجتماعية والتقاليد المموجوة والأعراف الخاطئة المتفشية.



ولها أسلوب رائع في نظم الشعر (الملمترم، الهادف، الرسالي)

إسلامنا أنت العزيز وكُلّ صعب فيك سهلٌ
ولأجل دعوتك الكريمة علقم الأيام يحلو

ولها أيضاً (رحمها الله).

قسماً وإن ملئ الطريق بما يعيق السير قدماً
قسماً وإن جهد الزمان لكى يشبط لى عزمأ
أو حاول الدهر الخؤون بأن يرش إلي سهماً
وتفاعلت شتى الظروف تكيل الآما وهمأ
فترامت سُحب الهموم بأفق فكري فادلهما

(١) النعماني، محمد رضا، الشهيدة بنت الهدى سيرتها ومسيرتها: ٥٩.

لن أثنى عما أروم وإن غدت قدماي تُدْمى
كلا ولن أدع الجهاد فغايتي أعلى وأسمى

ولها أيضاً (رحمها الله).

اختاه هيا للجهاد وللفدا وإلى نداء الحق في وقت السندا
هيا اجهري في صرخة جبارة إننا بنات محمد لن نقعدا
إننا بنات رسالة قدسية حملت لنا عزاً تليداً أصيدا

أدباء من آل ياسين:

أما نسبة من أمة فهم زعماء الدين المعروفون «بآل ياسين».

و «آل ياسين»... وكما يقول الخاقاني: أسرة عربية عريقة في العلم والفضل وتاريخها حافل بالفضائل، نبغ منها رجال كانوا نقطة التحول في تاريخ العلم والعلماء وأشهر من نبغ فيها الشيخ محمد حسن آل ياسين، فقد ولي الزعامة الدينية وتوارث العلم من أجداد أفذاذ، هم: والده الشيخ بن الشيخ محمد علي بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ محسن الكاظمي، وهؤلاء كانوا قادة البلد وزعماء الدين في الكاظمية^(١).

✽ محمد رضا بن عبد الحسين بن باقر بن محمد حسن آل ياسين

الكاظمي جدّ الشهيد الصدر الثاني لأمه، وخال أبيه (١٢٩٧-١٣٧٠هـ).

قال الخاقاني: لقد أجمع اساتذة العصر وأفاضله أنه المجتهد الذي

(١) الخاقاني، علي، شعراء الغري ج ٣٨٢/٨.

أحاط بالفقه ووقف على أسراره، كما أجمعوا على زهده وورعه وتقاه
وقداسته وابتعاده عن كل ما يريب...

وكان إلى جانب عظمته منبسط الروح رحب الصدر لين الجانب،
تحرر في كثيراً من القيود التي لا تتماشى والدين الصحيح ولا تتفق والعقل
وكان رحمة كثيراً ما ينعى على بعض رجال الدين، وكنت كثيراً ما أسمع
يقول: إننا بحاجة إلى مصلحين وقادة مفكرين وأقلام مرنة وعقول ناضجة
تحسن عرض مادتنا العلمية على أبناء العصر...



كان مثال الرجل الذي عرف الله معرفة حقه جعلته يسمو في أعين
الناس دونما دعاية أو تبشير، والناس مهما عدت المقاييس عندهم ولكن
سرعان ما يرجع الكثير منهم لمعرفتها لأنّ الشريعة الإسلامية قد دونت
وبسطت وتجلّت في قواعدها، والأخلاق الإسلامية مهما اعترأها الضعف
فهي لا زالت توجد عن نفر نذروا أنفسهم للتخلي بها والتبشير لها...

أمّا آراؤه فكانت جريئة واضحة لا يهتم بعرضها ونشرها سواء رضي
البسطاء أم أبوا، ولم يقف أحد إلى اليوم على فتاوي له تناقضت أو آراء
تضاربت أو تأثر بصديق أو نفوذ أو مال أو جاه.

مؤلفاته: سبيل الرشاد في شرح «نجات العباد» في الفقه لصاحب
الجواهر، شرح منظومة السيّد بحر العلوم في الفقه نظماً، شرح «تبصرة
المتعلمين» في الفقه للعلامة الحلبي، منظومة في صلاة المسافرين، رسالة عملية
سماها بلغة الراغبين في فقه آل ياسين، منظومة في أحكام السلام، وغير
ذلك.

وقال الخاقاني: كان فذِّرَّ له ميل إلى الإِدْب لم يفارقه حتى في دور شيخوخته، وقرض الشعر وأجاد فيه وتفنن في نظمه وحلق به أحياناً، وقد ذهب كثير من شعره لعدم عنايته به.

قال في الخضاب وقد التزمه زماناً ثم تركه:

خضبت وما التصابي من شعاري ويأبى ذا ليِّ شرفي وديني
ولكن زاد في شيبى بهاءً فخفت بأن يصاب من العيون
وقال في السيد محمد بن الإمام الهادي عليه السلام:

يا أبا جعفر إليك لجأنا ولمغناك دون غيرك جئنا
ففسى ينجلي لنا أي قدس فنرى بالعيان ما قد سمعنا
وقال يندب ولده ضياء الدين وقد توفي طفلاً:

الله من يسمح في مهجته تلحد ما بين صفا وجلمد
وسدته ما بين أطباق الثرى وعدت فرداً نافظاً من يدي
لم يكتمل عاماً ولكن فقده أنقص من عمري وأوهى جلدي
لا لوم مهما شقني مصابه فهو لعمري قطعة من كبدي
وسدته بالرغم مني مكرهاً وكنت أرجو أنه مؤسدي

وقال آقا بزرك الطهراني في «نقباء البشر»: فقيه متضلع، من مراجع التقليد المشاهير... نبغ في الفقه والأصول نبوغاً باهراً وعرف بين فضلاء النجف وعلماؤها بعلو الكعب وسمو المكانة، وامتاز عن أكثر معاصريه بالصلاح والتقوى والنزاهة والشرف، وسلامة الذات وطهارة القلب... كانت له براعة في الفقه لا توجد عند أكثر معاصريه، فكان أكثر الناس ترسلاً

وأبعدهم عن الزخارف، ولم يكن يحفل بالترئاسة أو يهتم لها، ولذلك حصل في نفوس العامة والخاصة ما لا يستطيع غيره الحصول عليه.

وقال جعفر آل محبوبة في «ماضي النجف وحاضرها»:.... فقيه محقق يضم إلى غزارة علمه الكمال ومكارم الأخلاق والسمو في الأدب، ولم تزل تطفح على تيار علمه في مجالس درسه النوادر الأدبية. يمتاز بصفاء النية ونقاوة الضمير وخلوص العمل، تملوه هيبة ووقار وله شعر جيد.

✽ مرتضى بن عبد الحسين بن باقر بن محمد حسن آل ياسين^(١). خال والد الشهيد الصدر الثاني، وأخو جدّه لأمه. (١٣١-١٣٩٨هـ).

قال الخاقاني: من مشاهير العلماء ومراجع الدين، أديب كبير، وشاعر رقيق وقال: والمترجم له شخصية علمية دينية فذة، اعتصم بالحقّ ساعة أن أوتي القابلية لفهمه. وانصرف إلى توحيد الله والوقوف على تعاليم نبيه وأوصيائه حين فرض عليه المنطق الصحيح معرفة ذلك، وراح ينشد العلم المركز والفقّه المنقى والآراء الصائبة بسليقة صافية وفهم اتسم به عن طريق الوراثة والكسب، وانبرى يبدع بقلم تحدث ريشته معظم أقلام معاصريه من إخوانه الفقهاء بإدراكه المفاهيم، وكتب الكثير من التعليقات الناضجة والآراء الصائبة محاكماً فيها مجموعة من الأعلام الذين دوّنوا وقالوا.
قال حينما ضربت السفن الفرنسية والإيطالية قلعة الدردنيل:

(١) له ترجمة في شعراء الغري ١١ / ٢٥٥، ماضي النجف وحاضرها ٣ / ٥٣٤، معجم



بضعف الحجي وطيش العقول
 بعد رمي المضيق كفّ الذليل
 أن في رميه شفاء الغليل
 بينات البحار والأسطول
 أم لذك الجبال فوق السهول
 دونه شفرة الحسام الصقيل
 ليس تدرون كيف نيل الذحول
 مذهوى نجم سعدكم للأقول
 أصبح اليوم جاتحاً للذبول
 أم قصدتم مسارح التمثيل
 غير سيف الردى ونحر القتل
 لنوادي الغرام والتقبيل
 لا بقرع العصا وجرّ الذبول
 لا ولا منكم مياه النيل
 فلقد طوّحت حداة الرحيل
 نفح اليوم صور اسرافيل

جئت على شكل وثن
 قطّ توازي بثمن
 سواك يحكيك ولن

أصعوداً لمرتقى الدردنيل
 حسبوا أننا نمداً إليهم
 حسبوا بعد ما الوغى أكلتهم
 أو زحفاً نحو المنيا سراعاً
 ألدك المضيق قل لي زحفتم
 عبثاً يبتغون أمراً حيارى
 قد وقرناكم فعدتم حيارى
 أترومون للهلال أفولاً
 هوونوا الخطب إن غصن علاكم
 أحروباً قصدتم ليت شعري
 هذه ساحة الوغى ليس فيها
 ذاك نادي الوغى فزمو المطايا
 بقرع الضبا تدور رحاها
 أذهبوا لا مياه دجلة منكم
 عجلوا بالرحيل نحو المنيا
 قوضوا واذهبوا ضحايا ففيكم

وله:

ما أنت إلا شادن
 جوهرة أنت وما
 وواحد الحسن فلا

وله في رثاء ابن أخيه، وقد توفي في التاسعة من عمره وكان وحيد
والديه، قوله:

يا نبعة الشرف الخطير	وطلعة القمر المنير
يا باعث الأمل المضاع	وجابر القلب الكسير
يا منية كانت تغفل	بين طيات الضمير
يا نفحة ضاعت فضاع	بنشرها نشر العيير
يا جرعة الخمر الحلال	ونهلة الماء النмир
يا زهرة ذبلت وما	إن مسها لفح الهجير
يا نجعة التسع الخوال	وبهجة الأمل النضير
يا غصة العمر الطويل	وصاحب العمر القصير
يا كوكب السعد الذي	أودى به ريب الدهور

قال جعفر آل محبوبة... شهد له أساطين الفن ببلوغ الرتبة العالية من
العلم والاجتهاد وهو في عقده الثالث... ورجع إليه جملة من مقلدي أخيه
(محمد رضا آل ياسين) بالتقليد بعد وفاته...

يمتاز بصباحة الوجه وحسن المنظر وطيب المعشر وصفاء القلب،
وقد جمع خلالاً حميدة مضافاً إلى مركزه العلمي، قل أن توجد في
فقيه يتمتع بملكات أدبية فذة تكاد تكون منقطعة النظير، وإن قلمه
ليتفجر بالسلسيل الرائع من البيان، كما أن شبابه زخر بشعر رائع حافل
بانواعه لم يحتفظ به.

✽ محمد حسن بن محمد رضا بن عبد الحسين بن باقر آل ياسين



الكاظمي^(١).

ولد (١٣٥٠هـ). وهو خال الصدر الثاني عالم أديب شاعر، كاتب مكثر، له ولع في إحياء التراث العلمي الإسلامي حَقَّق الكثير من المخطوطات بأحسن تحقيق.

اختير عضواً في المجتمع العلمي العراقي والمجمع العلمي الأردني. أصدر مجلة البلاغ سنة ١٣٨٧هـ ودامت مدة طويلة وكانت من المجلات الرصينة فيما ينشر فيها من بحوث ومقالات وشعر، وله فيها بحوث قيمة وشعر رقيق.

من مؤلفاته: على هامش «العروة الوثقى» للسيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي، في رحاب القرآن، هوامش على كتاب نقد الفكر الديني، المهدي المنتظر (عج)، التخطيط القرآني للحياة، الشباب والدين، شعراء كاظميون، تاريخ الصحافة في الكاظمية، صاحب بن عباد، الإسلامية بين الرجعية والتقدمية، الإسلام والسياسة، نصوص الردة في تاريخها وغير ذلك.

قال الخاقاني أيضاً: وهو من أسرة لم يعرف عنها أنها أساءت لأحد أو عملت مكروهاً، فلا غرابة إذا ما جاء المترجم له متمماً لهذه السلسلة المباركة.

(١) له ترجمة في شعراء الغري ٧ / ٥٤٥، معجم المؤلفين ٣ / ١٣٣، المنتخب من أعلام

وقال الخاقاني: والمترجم له على صغر سنه استطاع أن يجمع من شعره ديواناً عامراً، ختم مختلف الألوان التي تصور قوة شاعريته، وإليك نماذج منها يحيي كفاح التونسيين وجهادهم في سبيل تحرير وطنهم من أوغاد الفرنسيين الوحوش، قوله:

تونس الخضراء يا مهد التسامي والجلال
ومثال المجد إذ يكبر عن كلّ مثال
ووسام الفخر والعز على صدر الليالي
وقعي في وتر الكون ترانيم المعالي
واسكبي في أذن التاريخ أنغام النضال
تونس الخضراء قد حانت سويعات النزال
فارفعي البند فليس النصر في قيل وقال
وازحفي نحو اللظى الأحمر بالبيض الصقال
واصفعي الطاغي ليستيقظ من خمر الدلال
إنما الحقّ بدون السيف نزع من خيال

وله بمناسبة عيد الفطر عام (١٣٦٥هـ)، قوله:

يا رجال العرب الأشاوس هيا
ليس تجديكم الأراجيف تطغى
لصريح الفعّال دون المقال
ثمّ تطفئ الآلام بالآمال
تنجدون الصريح بالأعمال
ذي فلسطين تستغيث وكنتم



فاسمعوا صوتها الحزين تعالي
 قرحة ما لدائها من دواء
 فاذا زغردت ولائند قحطان
 واستجاب صوت الجهاد بلاد
 فإلى القبر يا شراذم صهيون
 إنها لا محال عقبى طغام
 مفصحا عن مصابها القتال
 غير بيض الضبا وسمر العوالي
 ورجال الأولاد كل مجال
 الضاد تزجي الرجال إثر الرجال
 سراعاً قد حمّ يوم النضال
 حدثتهم نفوسهم بمحال

وله يرثي ابن عمه الاستاذ إسماعيل آل ياسين:

أكبرت شخصك أن يؤبسه فمي
 وتلعثم الفكر الحزين فلم يعد
 وتعثر القلم الشجيّ فلم يطق
 وذهبت أجمع من فلول مدامعي
 وطفقت أقبس من أوار أضالعي
 وجمعت في حرص البخيل وشحّه
 يا شعلة الفكر السديد وباعث
 لله درك من خضم طافح
 لله درك من أديب ساحر
 لله درك شاعراً مستدققاً
 لله درك مصلاًحاً متحرراً
 اسفأ عليك وهذه سنن القضا
 فرثاه مدمعي المخضب بالدم
 يوحى بآيات البيان الملهم
 تسجيل آهات الفؤاد المكلم
 ريباً لقلبي الظامئ المتضرم
 نوراً لمنتهج الحياة المظلم
 كسراً بقايا كأسى المتحطم
 الوعي الجديد بجيلنا المتعلم
 بالمكرمات وبالمعارف مُفعم
 تجشو بساحته الفنون وترتمي
 يصف الدواء لدائنا المتحكم
 يهدي الجموع لفجرها المتبسم
 لا تزكّين لآسف متظلم

الشهيد السيد محمد محمد صادق الصدر

* السيد محمد بن محمد صادق بن محمد مهدي إسماعيل بن صدر الدين محمد بن صالح بن محمد شرف الدين إبراهيم ... الموسوي الصدر - الصدر الثاني - ولد في ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٦٢ هـ

قال السيد عبد الله نجل عبد الحسين شرف الدين الموسوي وهو يتحدث عن الصدر الثاني... سطع نجمه ولمع اسمه في الأندية العلمية وأصبح مرموقاً في وسطه، مشاراً إليه بالفضل، مقدراً عند اساتذته وغيرهم، والحق أني رأيت من خيرة شباب هذا الجيل، فهو مفخرة من مفاخر السادة الذين يرفعون الرأس عالياً بنبوغهم وعلمهم، ويملاؤون العين بسمو أخلاقهم وعلو صفاتهم، وبهاء طلعتهم... وعلاوة على ذلك هو كاتب مجيد، من أهل الأقلام العالية، ذو حظ وافر من البراعة في الإنشاء والكتابة والنظم، له عدة مؤلفات تدل على قلم سيال، ومكانة في الفكر والبحث والتحقيق..

ومن شعره، قوله في أبيه، من قصيدة.

أبي يا عظيم المجد مقبلُ	ومن هو في أفق المكارم أولُ
ويا غرة الشمس في الضحى	ويا بدر تمّ للعلی ليس بأفلُ
بك افتخر المجد العظيم مهابة	ففضلك من جمّ الفضائل أفضلُ
وفاخر فيك العصر سابق عهده	وآيته والفخر بالحقّ يجمّلُ
سطعت فتولت الدجى بارق الضحى	بأنوار قدس بين جنبك تحملُ
وأذعنت الأيام والدهر والمورى	بمجد له هام السماوات منزلُ



شأوت بقلس النفس والظهر والصفاء
إلى الله في نور الهداية خالد
لكي تحرق النفس العظيمة بالتقى
فلو وزع الخير الذي أنت أهله
ولو قبسوا التقوى إذن لرأيتهم
ولو وزعت آيات زهدك فيهم
فقد فزت بالقدر المعلى مكارماً

إلى موقف يكسبه المتعجل
وفي ومضات السرمدية مشعل
وقلباً لرفع الحق والخير يعمل
على الناس قد نالوا الذي هو أفضل
بمسجدهم صلوا وصاموا واقبلوا
لمصوا الحصى حباً به وتبتلوا
وأعزز به مجدداً من الله ينزل^(١)

كما ترجم له الدكتور الشيخ محمد هادي بن عبد الحسين الأميني^(٢) ..
قال: عالم جليل، فاضل أديب، كاتب مبدع، مؤلف متبع كثير التأليف
والتصنيف تنبى كتاباته عن مناعته العلمية وحيويته الأدبية بصورة عامة، وقد
شاهدته في درس الأستاذ أبي القاسم الخوئي، الفقه والأصول، وتفوق
بسرعة هائلة، له: اشعة من عقائد الإسلام، تاريخ الغيبة الكبرى، تاريخ الغيبة
الصغرى، نظرات إسلامية في إعلان حقوق الإنسان، اليوم الموعود، القانون
الإسلامي، وجوده، صعوباته، منهجه.

أما ما قاله الشهيد الصدر الثاني عن التاريخ الأدبي للأسرة وعن
شاعريته، - وذلك من خلال لقاء صحفي معه - يقول: في الحقيقة الشيء
الذي أستطيع أن أقدمه أولاً أن تاريخ الأسرة أكثره شعر لو صح التعبير،

(١) بغية الراغبين ١: ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) الدكتور الأميني، محمد هادي، معجم رجال الفكر والأدب في النجف ٢/ ٨٠٨.

كثير من رجالنا ونسائنا ينظمون الشعر، السيّد صدر الدين جدّ الأسرة شاعر وعنده المنظومة الرباعية، أحفاده الذين هم على مستوى أجدادي، أحدهم جدي السيّد محمّد مهدي الصدر، وعم والدي أخو السيّد صدر الدين الذي كان عالماً (...). كلاهما شاعران، جدي لأمي الشيخ محمّد رضا آل ياسين ينظم الشعر جيداً، أخوه الشيخ مرتضى آل ياسين ينظم الشعر جيداً، أو ربما حسب الظاهر (أشعر آل ياسين) لأن شعره قوي ومحترم الى درجة معتد بها جداً الشيخ محمّد حسن (خال والدي) أيضاً شاعر مشهور، وأبنة الدكتور محمّد حسين آل ياسين أيضاً شاعر مشهور وكثير من نسائنا أيضاً بما فيهنّ والدتي وأمها وأم أبي وكذلك أخت السيّد محمّد باقر الصدر (قدس الله روحيهما) وأخريات وآخرون كلهم هكذا على ذلك الغرار، كذلك السيّد محمّد هادي ابن السيّد علي الصدر من الفخذ الآخر من آل الصدر أيضاً شاعر وعنده كثير من الشعر، ابنه السيّد حسين أيضاً شاعر وعنده الكثير من الشعر، فأننا ولدت بطبيعة الحال مضافاً إلى الجو الأسري للشعر كذلك الجو الحوزوي للشعر وكذلك الجو الأدبي الذي كنت أنا فيه أوّل شبابي طبعاً أراجع كثيراً من الكتب على مختلف المستويات ومختلف الحقول والمهارات لوصحّ التعبير، أيضاً راجعت من الشعر كثيراً... هنا يداخله الصحافي محمّد الجنابي مُعدّ اللقاء بهذه العبارة:

«جو كلية الفقه كذلك» ويجيب السيّد: جو كلية الفقه إلى درجة معتد بها أيضاً، المهم أني قرأت في حينه لكثيرين... المتنبّي. محمّد مهدي الجواهري وعمر أبو ريشه والأخطل الصغير ومصطفى جمال الدين



وأخريين من الشعراء داخل النجف وخارجه.

ومن باب الدُعابة والظرافة وبدون أي تحرج وببساطته المعهودة وطيبة قلبه ونقاوة وطهارة روحه لم يترك شيئاً من سيرته إلا وقد ذكره، في الوقت الذي يؤاخذ عليه هذه الطيبة الطاهرة التي يُسميها البعض سذاجة - بمذلولها السيء - ولكن الصدر بواقعيته ووضوحه يقول: «هكذا أنا» لم يصطنع تاريخاً مزيفاً له أو يحاول أن يعطي نفسه هالة من العظمة المزيفة. (لاحظ) يقول: في حديثه الصحفي «سامع أنا من والدي أنه لعله أيضاً أوّل بيت شعر أنا قلته لم يكن عمري أكثر من سنتين أو ثلاث سنين (طبعاً باللغة العامية) لأن في ذلك الحين (هذا يحتاج إلى قصة طريفة بسيطة) في ذلك الحين كان (الراء) عليّ طبعاً، ألفظه (لاماً) فكان هناك عند جدي الشيخ محمّد رضا وكنت أنا وأبي وجماعة بمنزله نعيش دائماً فأرسل - كان هناك خدمة مؤجرون يعني لأجل الحاجة العائلية - أحدهم يسمى حسن علي، محل الشاهد ... أنه تقول والدتي أنه في يوم ما أرسل حسن علي للكاظمية لبعض الأشغال البسيطة. تقول أنت جالس فابتسمت وقلت:

حسن علي حسن علي رايح للكواظم يشـتلي

وبعد ذلك تقريباً حينما صار عمري «ثمان سنين» كان أيضاً من أنغام

الطفولة إن قلت:

أتني أهوى قصوراً ومروراً في حياتي أنني أهوى مرادي ومرادي لا يصيرُ

ويضيف السيد محمّد الصدر ... وعدة أبيات قلتها ربما في الرابع

عشرة أو الخامس عشرة (كنت) يعني مصاباً بشيء من السعال ونحو ذلك،

أخذني أبي إلى طيب في بغداد وقلت أبيات في هذا الشيء:

شددنا الرحال إلى الكاظمين وعُدنا وكم رُشدنا زائدُ
طوينا البراري وجبنا القفار لشيء وكان هو الراشدُ
وغير الذي قد فصلنا له وإن كان ذا عزةٍ كاسدُ
إلى أن يقول:

وزرنا ودرنا حوالي الضريح رجعنا وإيماننا زائدُ
ذهبنا لصدري عند الطبيب رجاء دواء لنا فائدُ
يقول الصدر... طبعاً فيه لحن (أكيد) ولكن قيسوه (قياساً) في عمري!!

وماذا يفيد إذا ما الطبيب كأمثالنا بشرٌ فاسدُ
أنا ما رجوت سوى الكاظمين ولست سوى فضلهم قاصدُ
رأينا أقاربنا مدة وعدنا وقلبي لهم حامدُ
وكم فيهم عالمٌ نابغُ وكم فيهم خيرٌ راشدُ

طبعاً... لم تكن هذه بالقصيدة الشعرية ولم تتم أو تنبيء عن شاعرية ناظمها، وهو رضي الله عنه يقرُّ بذلك، ولكن ما الذي جعله أن يذكر بدايات تجربته الشعرية بهذا المستوى من الضعف في هذه القصيدة!! أراد بذلك رضي الله عنه أن يُعلم الأمة بأنه لا يمكن أن يكون هناك تكامل عند الإنسانية وإنما هو التدرج الطبيعي في كسب العلوم المعرفية والتجربة الحياتية كفيلان في عملية النضج والارتقاء نحو سُلّم الكمال، ولم يرضي الله عنه بأساً في ذكر هذه الأبيات وإن شَنَع المفرضون واشباه الأدباء!! فهذا



الأسلوب هو أحد الركائز المهمة في نهضته الإصلاحية والذي أراد به أيضاً أن يكون قريباً جداً من أبناء الأمة حينما تقرأ بدايات هذا الرجل المصلح العالم الفذ فتستلهم منه زخم من الدفعات نحو تطوير قابلياتها.

في مقابل هذه القصة - الضعيفة - نرى ما هو الجزل في شعر هذا الرجل وكيف تطورت قابلياته الأدبية حتى قال فيه الكثير أنه أديب^(١)، وذو حظ وافر من البراعة... والنظم^(٢).

لاحظ جزالة الشعر في إحدى قصائده التي نظمها في الذكرى الأولى لميلاد ولده الكبير الشهيد «مصطفى» فضلاً عما مرّ سابقاً من قصيدة نظمها بحق والده رضي الله عنه.

وحيّتك سابغة النعماء تنتشر	وفي رُبى حقلك الفواح تزدهرُ
وسلم الصبح نشواتاً يغرد في	حقل الهنى وله في جَوْه وترُ
وطافت الشمس في أبها أشعتها	مدار أفقك يقفو إثرها القمر
وأرسلت من خيوط الضوء أحزمةً	ليعبق النور في الدنيا ويتشرُ
وغرّد البلبل النشوان أغنيةً	للدوح كي تزدهي في جَوْه صورُ
حيّتك عاماً من البشرى به انطلقت	أشعة الحب في الأكوان تزدهرُ
عامٌ من الود والاخلاص منصرفُ	ومن معين شعاع الشوق معتصرُ
عامٌ به الرحمن رحمته	على قلوب بها النيران تستعرُ

(١) الأميني، مصدر سابق.

(٢) عبد الله نجل شرف الدين، مصدر سابق.

كانت من الوجد والأشواق قد تعبت
 ما ذاقت الحلو واستجلت ملامحه
 بالوجد باليؤس بالحرمان قد صبرت
 طال الزمان على يومٍ به صبرت
 حتى إذا جئتنا والقلب منغلقٌ
 وفتح القلب ما قد كان أغلقه
 ومن لظى غلها للفجر تنتظرُ
 أو جاءها من ثنى أثاره أثرُ
 للنور للحب للأعتاق تفتقرُ
 والخير حتما يراه الناس إن صبروا
 وفوقه من طمى أيامه ضررُ
 لبسمة الفجر فوق الأفق تنتشرُ

ومن قصيدة أخرى في ذكرى ميلاد ولده البكر - أيضاً- في عامه
 الثالث وفيها إشارة إلى المولى صاحب العصر عليه السلام لأن ولادة ابنه كانت في
 شعبان وهو شهر ولادة الإمام (عج).

عن كُـلِّ الخير تلنبيه
 ويزدهي أفقك الداجي بنور هُدى
 قد جئت بالنعمة الكبرى تقدمها
 وعطر الجوفواحاً بزmqه
 من جدولين أفاضاً نعمةً وهنا
 وبسبل البؤس أنساً وأبتنى فرحاً
 وليس مستغرباً أن تغتدي أفقاً
 شمسٌ ويدرُ أنارا الدرب في حلك
 شمس بها أشرق الإسلام اجمعه
 له على الكون نورٌ لانجلاء له
 عنصر الشر والحرمان تفصيه
 منبع الحق قد درت سواقه
 فأزهر الحقل وأخضرت حواشيه
 من ديمتين غدت طلاً لتسقيه
 فأبهج القلب واخضرت فيافيه
 واللمع شجواً وصعب العيش هاديه
 بمشرقين أطلا في مغانيه
 فأمرع الأمل الساري علافيه
 وأزهر ماضيه وآتية
 وموكب يرشد الضلال هاديه



مكتبة الصدر
 ٢٠٠٩

هو المرجى ليوم الحقّ ثورته
ويجمع الشمل للحقّ الطريد إذا
هو المرجى لقمع الظلم من بشرٍ
وينشر العدل صرحاً في مرابعه
أن يقبس النور من شمس به اثقلت
هما على القلب صنوا ماملٍ التّ
كلاهما قبسٌ للحقّ مذخر
هما سيما رسول الله ما اختلفا

كصفعة الفجر فوق الليل ترديه
ما أدلج الركب قصرأ طلّ حاديه
بنور دين إله الخلق يهديه
فيبهج الكون طراً من آياديه
مهما مشت في السما أفقاً مشى فيه
إن جف منبعه أخضر ساقيه
أسعد بتابعه أخفض بشانيه
إلا بما يسّر الإنسان باريه

يقول السيد محمد محمد صادق الصدر رضي الله عنه... (حصل من القبيل أن نقول شيء من الحال في العبادة والاتصال بالله والعتاء المعنوي أمام الله سبحانه وتعالى فتحول الكثير من شعري إلى الجانب العرفاني وقلت في ذلك عدداً من القصائد والمقطوعات ليست قليلة...).

ويذكر السيد رضي الله عنه، تخميساً مشيراً فيها إلى رائعة عبد الباقي العمري بحقّ أمير المؤمنين علي عليه السلام.

أنت الرفيعُ الذي فوق السهى طلعا
بنوره كلُّ نور الكون قد لَمعا
فانحط كلُّ رفيعٍ دونه هلعاً
أنت العليُّ الذي فوق العلي رفعا

ببطن مكة وسط البيت إذ وضعاً
سطوع نورك ما شيء بحادثه
وإن أبى كلُّ جلفٍ من ممارسه

وليس غيرك للعليا بفارسه
وأنت بابٌ تعالَى شأن حارسه
بغير راحة روح القدس ما قرعا

وأنت نفس رسول الله قدوسما وأنت نقطة بآء الحمد مع توحدها
وأنت ذاك البطينُ الممتلي حكما سبقته نحو معراج السما عظمها

معشارها فلك الأفلاك ما وسعا
آلاؤك الغر في صافي تعددها
تحافظُ العلو والسفلى بمفردها
من نور ربك تزهو في توقدها
وأنت نقطة بآء مع توحدها
بها جميع الذي في الذكر قد جُمعا
وحبك الريح إذ ينجو الكرام به
وقربك الخلد إذ يعلو العظام به
وحكمك الصدق إذ تعطى السهام به
وأنت والحق يا أفضى الأنام به
غداً على الحوض تحشران معاً

وحتى ارتقت بي الأنوار قد لمحت بحبك الروح والأعمال قد رجحت
وأنت أنت الذي آثاره مُسحت وكلّ غائرة في النفس قد كبحت

هام الأثير فأبدي رأسه الصلعا
يامن يراه حُساماً ما دريت به



أو الغضنفر يوماً ما أتيت به
 بقوة الله نصرأً قد قضيت به
 حكمت في الكفر سيفاً لو هويت به
 يوماً على كبد الأفلاك لا نخلعنا

محمد الصدر... وحديث مع الشعراء^(١):

يقول الصدر رضي الله عنه في هذه الخطبة نتعرض إلى عدد من
 المشاكل الفكرية والاجتماعية باختصار في عدة نقاط:
 النقطة الأولى: أنه لا شك أنّ العنصر الرئيسي في ارتفاع أهمية الشعر
 (نظم الشعر العربي في الإسلام) ارتفاع أهميته في الإسلام عامة وفي
 المذهب خاصة وتعمقه وكثرته إنّما سببه ثورة الحسين عليه السلام وحركته
 المقدسة التي أوجبت وأوجدت كما يقول الخبر (حرارة في قلوب شيعته
 لم تخدم إلى يوم القيامة) الأمر الذي أنتج أن يقول مئات الشعراء بل آلاف
 الشعراء في هذه المناسبة الشجيرة أنواعاً من الشعر بما فيها الشعر القريض
 والشعر الشعبي وهو الأمر الذي سبب أيضاً أن يختص الشعراء الموالون في
 كلّ الأجيال بأفضل القصائد العربية وأكثرها رصانةً وجمالاً مما هو غير
 موجود في سائر مذاهب الإسلام فضلاً عن غير المسلمين وهو (هذه العبارة
 مشهورة والتركيز فيها راجح جداً) وهو الذي عبر عنه الدكتور طه حسين

(١) بداية الخطبة الثانية - الجمعة رقم ٤٤.

(الذي هو أشهر الأدباء في مصر وإلى الآن) حين قال: لا زال الشعر رافضياً، لا زال الشعر رافضياً هي كلمة مشهورة ومذكورة منه، وقوله لا زال يعني كان ولا زال وسيبقى على نفس الحال، وبالرغم من نقطة القوة هذه (وشكراً لله على حسن فضله) التي لا تعدلها نقطة، فإننا نعلم إن كل شاعر سواء كان فصيحاً أم شعيباً ينظم الشعر في الحسين عليه السلام وأصحابه بمقدار ما يفهم من ثورة الحسين ومن أقواله ومن أفعاله ولا نتوقع من الشاعر أن يتعدى فهمه الشخصي بطبيعة الحال، بل لعل ذلك يكون في عداد المستحيل في حين أننا نعلم بكل تأكيد أن بين فهمنا للحسين عليه السلام وحقيقة مقاصد بوناً شاسعاً وفجوة ضخمة جداً، يعني أننا لا نفهم الحسين عليه السلام حقيقةً ولا يمكن أن نفهمه حقيقةً، كل ما في الأمر أننا يمكن أن نقرب من هذا الفهم قدماً أو أقداماً بالتعلم والتكامل والاطلاع على بعض حقائق الكتاب والسنة وإذا لم تكن بهذا الصدد إذن فنحن معاتبون ومعاقبون لأننا نكون قد كذبتنا على المعصومين عليهم السلام وأصحابهم عليهم السلام يكفي أننا نلتفت إلى أن أغلب الأشعار الفصيحة والشعبية التي قيلت بهذا الصدد تحمل جانبين باطلين - أننا لا أتحدث مجازاً - جانبين باطلين في فهم المشاعر الحسينية لو صح التعبير.

الجانب الأول: الجانب الأسري والعاطفة الدنيوية الشخصية التي يشعر بها الشاعر نفسه تجاه ولده ووالديه وأخيه وزوجته فهو يضيفها إلى الحسين وإلى أصحابه عليهم السلام في حين - لاحظوا - «الإنسان (لا يكون) مغفلاً ومن أهل الغفلة إلى هذه الدرجة» في حين لو كان شيء من ذلك مهما قلّ لديهم لما ترك الرجال زوجاتهم وأطفالهم ولما ترك النساء أزواجهن ولما افتخرن أن



يكن من المسيبات مع زينب عليها السلام وغير زينب من نساء الحسين عليه السلام - هذه تضحية حقيقية - وهذا ونحوه من العواطف الحقة لا تكون إلا عند نفي العاطفة الأسرية تماماً واسقاطها من النفس حقيقة، فإذا كان ذلك في النساء والرجال من الأصحاب فكيف بأهل البيت عليهم السلام وكيف بالحسين بشخصه وهو معصوم ومفترض الطاعة.

الجانب الثاني: الجانب القبلي (أعوذ بالله من الجانب القبلي) الذي كان ولا زال وسيبقى يضرنا ما لم يخرج الشيطان من الساحة^(١).
ويستطرد السيد الشهيد محمد محمد الصدر قوله: الجانب القبلي وهو ما أشرنا إليه في الأضواء^(٢) من التأكد على جانب الأسرة والنسب وكأن الحرب بين أسرتين متعاديتين لا بين الحق والباطل!!!
وذلك في مثل قول الشاعر:

قوضي يا خيام علياً نزار فلقد قوض العماد الرفيع
واملتي العين يا أمية نوماً فحسين على الصعيد صريع

كأن بني أمية انتصروا على الحسين (بس) - فقط - وغير ذلك كثير، في حين أننا نعلم أن هذا من غير المحتمل أن يخطر في بال الحسين عليه السلام طرفة عين فضلاً عن أن يكون هو الهدف الرئيسي لهم ولو كان هو الهدف

(١) وهي إشارة واضحة وصریحة يقصد بها رأس النظام.

(٢) الأضواء... ويقصد كتاب رضي الله عنه أضواء على ثورة الحسين عليه السلام وفيه بحث

الرئيسي لكانوا على باطل - والعياذ بالله- وعلى طلب الدنيا وحاشاهم... هذا وقد كان الاعتذار أساساً للشعراء حين يريدون التجنب عن الكذب فاتهم يقولون وكذلك بعض الخطباء الحسينيين المتورعين، يقولون إن هذا بلسان الحال لا بلسان المقال «هذا مسموح وماشياً جيلاً بعد جيل» فنسأله: إنك هل تعرف حالهم (سلام الله عليهم بلسان الحال حقيقة؟ سبحان الله أنت شمدريك حالهم شنو؟) أي- كيف تعرف حالهم - هل تعرف حالهم (سلام الله عليهم) لتقول انّ كلامك بلسان الحال وهل أنّ حالهم كما تقول أنت لكي تكون صادقاً أو أنّ حالهم ليس كذلك وإنّما أنت الكاذب!!



فمثلاً لو أكد الشاعر على الجانب الأسري أو الجانب القبلي بعنوان إنه بلسان الحال لكان كاذباً لا محال، وكان من الكذب على المعصومين (سلام الله عليهم) ونحن لا نريد من أي شاعر أو ناشر أن يكذب على الحسين عليه السلام وأصحابه، وإنّما لا بدّ أن يبين حالهم بأقصى ما يستطيع من الصحة والدقة وبحسب ما نستطيع أن ندرك من حالهم (سلام الله عليهم) فإنّ له - (أي لحالهم بمقدار ما نفهم على أية حال)- فإنّ له عدّة جوانب أي واحدة منها أخذناها كانت حقاً على أي حال «قليل التعرض إليها مع شديد الأسف في شعر الشعراء في القريض والعامي معاً».

الجانب الأول: التمرد على كلّ ظلم وطغيان وخاصة ظلم وطغيان بني أمية أو حكم بني أمية عامّة، و(يزيد) الشارب للخمر واللاعب بالقروود كما يصفه الحسين عليه السلام خاصة وبيان ذلك للمجتمع عملياً بحيث لا يكون معه مجال للشكّ.

الجانب الثاني: عرض البديل أو الأيديولوجيا الصالحة والحقّة بعد أن فشلت وتفشل أيديولوجيات الظالمين والمستعمرين متمثلاً (أي الأيديولوجيا الحقّة) بالإسلام الحقيقي الذي دافع عنه الحسين بكلّ وجوده.

الجانب الثالث: بيان أن هداية المجتمع والدفاع عن الطبقات المحرومة والمستضعفه، يستحقّ الفداء بأعظم الفداء وأعظم أنواع التضحية بالنحو الذي قدّمه الحسين عليه السلام في عرصة كربلاء كما قال تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾.

الجانب الرابع: اعطاء النموذج الأمثل للثورات على الظلم والتمرد على الطغيان في كلّ عصر، فمهما كانت أي ثورة قريبة من فكر ثورة الحسين أو كانت أقرب كانت على حقّ وكلما كانت أبعد كانت على باطل كائناً ما كانت لا نستني من ذلك شيئاً على وجه الكرة الأرضية وكلّ واحد من قادة الثورات يعلم بنقاط القوة والضعف في نفسه كما قال تعالى: ﴿بَلْ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾.

الجانب الخامس: أنّ الثواب الإلهي الجزيل والدرجات العلى عند الله (تبارك وتعالى) تستحقّ الفداء لها بأعظم أنواع الفداء كما ورد: - لك درجات لا تنالها إلا بالشهادة من قال ذلك، رسول الله صلى الله عليه وآله حسب الرواية. فلذا انقاد الحسين عليه السلام طائعاً لكلام جده الرسول وقدم كلّ هذه التضحيات في سبيل تلك الدرجات العلى.

الجانب السادس: جانب التذلل والخشوع والتواضع أمام الله سبحانه وترك العجب والرياء وهذا ما طبّقه أمير المؤمنين عليه السلام - متى؟؟ حين كان

يجلس على التراب حين سماه الرسول بأبي تراب، وطبقه الرسول نفسه حين كان يجلس جلسة العبد ويأكل مع العيد، وطبقه الحسين حين عرض جسده للدوس تحت حوافر الخيل وعرض خيامه للنهب والحرق ونساء للسي (سلام الله عليهم اجمعين).

قائلاً عَلَيْهِ: «شاء الله أن يراهن سبايا» ويقول عَلَيْهِ: «هون ما نزل بي أنه بعين الله» ويقول حسب الرواية:

تركتُ الخلق طراً في هواكا وأيتمت العيال لكى أراكا
ولو قطعنتى بالخُبِّ إرباً لما مال الفؤاد إلى سواكا

هذه بعض الجواب التي يمكن إدراكها من مستويات المعصومين (سلام الله عليهم) وأصحاب المعصومين والحسين وأصحاب الحسين عَلَيْهِ.
فهل في الشعر العربي أو الشعر الشعبي شيء من ذلك؟؟

أنا لا أقول أنه غير موجود إطلاقاً، ولكن لا شك أن نسبته قليلة بإزاء اضعاف الأفكار والعواطف الدنيوية التي نسبت إلى الحسين عَلَيْهِ (خاصة) وأهل البيت والأصحاب (عامة) في الأشعار الفصيحة والشعبية، فمن هنا أطلب - (لاحظ) - فمن هنا أطلب الخطباء والشعراء بمختلف مستوياتهم وامكاناتهم أن يبدأوا من الآن بتصحيح أفكارهم وأشعارهم عن الحسين عَلَيْهِ وأصحابه وكل المعصومين فلا ينظموا إلا بلسان الحال الذي يكون أقرب إلى الحق، لا أنه يكون أقرب إلى الباطل - والعياذ بالله - ويستمر ذلك جيلاً بعد جيل حتى لا نسمع من الأشعار الباطلة والمنحرفة شيئاً بعد هذا الزمان (بعون الله سبحانه وتعالى وحسن هدايته وتوفيقه)



والأفضل في هذا الطريق هو أن يكون الشعر بإشراف الحوزة الشريفة في كل مكان وزمان، فما قالت الحوزة للشاعر أنه حقّ، أخذ به وضمّنه في شعره أو قلّ نظمه في شعره، وما قالت له الحوزة أنه باطل ومشكوك أو أن انطباعه سيء ولا مصلحة في ذكره ونحو ذلك تركه إلى غيره «الحمد لله الأفكار الحقّة كثيرة... أنظر ما تقتنع بأنه حقّ فقط».

من حيث أنّ كلمة الحوزة هي الكلمة الفصل ولا أقصد السيد محمد الصدر وإنما قصدتُ وقلتُ إنها الحوزة في كلّ مكان وزمان لأنّها مهما كان حالها فإنها الأقرب والأفضل والأفهم في فهم الدين وشريعة سيد المرسلين واتجاهات المعصومين عليه السلام.

تعليقه: بهذا الخطاب الإصلاحي أسس الشهيد «المقدس»^(١) منظومة

(١) تثار أحياناً ضجة مفتعلة حول استخدام لفظ (المقدس) حينما يطلقها المجنون والمقلدون للشهيد السيد محمد محمد صادق الصدر!! إنها لا تقال إلا بحقّ المعصوم!! والحقيقة أن كتب التأريخ مليئة بهذا اللفظ على علماء لم تكن لديهم مشتركات كثيرة مع السيد محمد الصدر رضي الله عنه أمثال.

- ١- المقدس، علي الرشتي النجفي (المتوفي ١٢٩٥هـ) من تلامذة الشيخ الأنصاري - الفوائد الرضوية، عباس القمي: ٣٠٠.
- ٢- المقدس، السيد محسن بن حسن الأعرجي البغدادي، صاحب المحصول في أصول الفقه (المتوفي ١٢٧٧هـ)، معارف الرجال، محمد حرز الدين ١٧١/٢، الكرام البررة: آقا بزرك الطهراني ١/٣٣٤،
- ٣- المقدس، شريف بن مهدي القرشي النجفي والد الشيخ باقر القرشي، معارف

فكرية حول كيفية التعامل مع الأدب الحسيني، وترك مساحة كبيرة وخصبة يستطيع من خلالها الأديب - شعراً أو نثراً- الحركة الواسعة ضمن محدودية الفقه وسلطة التشريع الفكرية، موضحاً وبصورة دقيقة أهم الإشكالات الواردة في الأدب الحسيني دون أن يعي الأدب بهذا الإشكال على مر



الرجال ١٣٢٣/٣ محمد حرز الدين وكذلك المنتخب من أعلام الفكر والأدب، كاظم الفتلاوي: ٦٢.

- ٤- المقدس، محمد بن رجب الطهراني السامرائي العسكري (المتوفي ١٣٧١هـ) والد نجم الدين العسكري المتوفي (١٣٩٥هـ)، د. محمد هادي الأميني ٨٩٢/٢
- ٥- المقدس، جعفر بن أحمد البدري. النجفي (المتوفي ١٣٩٦هـ)، محمد حرز الدين، معارف الرجال ١٧١/٣.
- ٦- المقدس، أحمد بن محمد الأردبيلي (المتوفي ٩٩٣هـ)، الخوانساري، روضات الجنات ٧٩/١ والأمين العالمي، أعيان الشيعة ٨١/٣
- ٧- المقدس، السيد محمد بن علي آقا بن محمد حسن الشيرازي (والأخير صاحب ثورة التباك) محمد حرز الدين معارف الرجال ١٤٠/٢.

والحقيقة... وكما يرى الآخرون بأن القدسية تحصر في الرسول ﷺ وأهل بيته ﷺ فلا نرى ضرورة منطقية بوصف علماء الدين العظام الطاهرين الصالحين بهذه الصفة، ولذا كان يأبى السيد محمد الصدر نعته لكلمة «الامام» أو «المقدس» وغير ذلك، ولكن أطلقت هذه الالقاب والنعوت من قبل محبيه لتميزه عن باقي العلماء والمراجع ممن اتخذ الصمت حيال ما حصل للشعب العراقي من حالات مرعبة من القمع والمسوخ الديني من قبل النظام.

إذن هي صفة ناجمة عن غضب سياسي وديني «مقدس».

العصور السابقة.

والحقيقة أنني لم أسبق في كل قراءاتي المتواضعة لفقهاء ومفكرين تناولوا مثل هذا البعد وهذا التأسيس في تصوير المساحة الفقهية لحركة الأدب مثلما تطرق لها المقدس الصدر بأسلوب السهل الممتنع والقيمة الفكرية التي استعرضها بهذا الأسلوب، وعلى ما أعتقد أن لم أؤكد إن الرجل بعد أن غار في المجال العلمي والمجال الأدبي وسجل بهما الحضور المشهود تمكنت لديه القدرة الخيالية الفائقة في تعدد الاحتمالات والأوجه وإن جاءت في هذا الخطاب بلحاظ بسيط نوعاً ما ولكن ظهرت بشكل فاتق وبالغ في تناوله للشعر فقهيّاً والقصة فقهيّاً ومرجوحية الشعر ومرجوحية القصة في كتابه الفقهي (ما وراء الفقه)^(١).

كما استطاع المقدس الصدر رضي الله عنه - في هذا الخطاب - أن يوضح مستلزمات الثورة وشرعية القيام بها فضلاً عن تناوله مستلزمات وصفات قائد الثورة.

وبهذا استطاع أن يوصل رسالته إلى الأدباء في قطع الطريق على كل من يدعي القيادة الثورية ويتلبسها زياً لخداع المستضعفين تاركاً للأمة والأدباء بالأخص - سيما وأن حديثه خصص به الشعراء - متى وكيف كان رسول الله ﷺ قائداً؟! وكيف كان علي عليه السلام هو الآخر قائداً ورمزاً؟! فالتذلل والخشوع والتواضع أمام الله وفي سبيل الله وترك العجب

(١) محمد محمد صادق الصدر، ما وراء الفقه، ج ١٠ ص ٩٣ فما فوق.

والرياء، مَيِّز هذين القائدين... حينما كنا يجلسان على التراب حتى لقب علي عليه السلام بأبي تراب.

وكذلك رسول الله يجلس جلسة العبيد ويأكل مع العبيد وكذلك الحسين عليه السلام وأصحابه طلقوا الدنيا فباتوا عرضةً لحوافر الخيل وعرضةً للنهب والسلب والسبي وحرق الخيام.

فمن يتمثل بسيرتهم عليهم السلام عملاً - فهو القائد والرمز، وأما من يلتبس ثوبهم خداعاً وتميراً وتبريراً وحيلةً ومكيدة فهم الضالون المضلون. بهذا المفهوم استطاع أن يصل الصدر المقدس إلى الأمة. فكان ما كان، وولد الوعي ثانية بعد غابر الزمان.

مؤلفاته رضي الله عنه:

تتلمذ السيّد محمّد الصدر رضي الله عنه على يد الإمام الخميني وآية الله الخوئي وآية الله الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر وفترة قصيرة جداً على يد السيّد محسن الحكيم... وترك وراءه رضي الله عنه مؤلفات عديدة هي الأخرى تساعد على فهم وبناء وتكامل مشروعه الإصلاحية، منها:

١- نظرات إسلامية في إعلان حقوق الإنسان.

٢- فلسفة الحج في الإسلام.

٣- أشعة من عقائد الإسلام.

٤- القانون الإسلامي وجوده، صعوباته منهجه.

٥- موسوعة الإمام المهدي، صدر منها:



- أ) تاريخ الغيبة الصغرى.
- ب) تاريخ الغيبة الكبرى.
- ج) تاريخ ما بعد الظهور.
- د) اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني.
- ٦- ما وراء الفقه (موسوعة فقهيه) وهي عشرة أجزاء.
- ٧- فقه الأخلاق (مجلدان).
- ٨- فقه الفضاء.
- ٩- فقه الموضوعات الحديثة.
- ١٠- حديث حول الكذب.
- ١١- بحث حول الرجعة.
- ١٢- كلمة في البداء.
- ١٣- الصراط القويم.
- ١٤- (منهج الصالحين) وهي رسالة عملية موسّعة اشتملت على المسائل المستحدثة.
- ١٥- مناسك الحج.
- ١٦- كتاب الصلاة.
- ١٧- كتاب الصوم.
- ١٨- أضواء على ثورة الإمام الحسين عليه السلام.
- ١٩- مئة المنان في الدفاع عن القرآن.
- ٢٠- منهج الأصول.

- ٢١- التنجيم والسحر.
٢٢- مسائل في حرمة الغناء.
٢٣- مجموعة أشعار الحياة (ديوان شعري).
٢٤- شذرات من فلسفة تأريخ الإمام الحسين عليه السلام.
٢٥- فقه الطب.
٢٦- الأسرة في الإسلام.
٢٧- بيان الفقه.
٢٨- فقه العشائر.
٢٩- بين يدي القرآن.

ثالثا: الصدر (الثاني) ناقدًا أدبيًا:

بعد أن عرفنا أنه رضي الله عنه شاعر ومُجيد ومجلّد نستعرض في هذا الفصل قابلياته ورؤاه في النقد، مع أن ميزة النقد - وكما هو معلوم عند الأدباء - ليس كلّ شاعر ناقدًا، وليس كلّ ناقد شاعرًا! ولكن درجت الأوائل من أدباء النجف (الحوزيين) أن يسجلوا لفتات رائعة في النقد الأدبي، وتكاد تكون هذه الميزة ليست بما عليه الآن في أيامنا. حيث نرى العديد من الشعراء لم يكن ملماً بأدوات النقد، وإذا كان لابدّ وحين تتعالى اسماعنا أصوات تدعي النقد الأدبي فلا نرى منها إلا ضجيجاً صاحباً من المصطلحات اللغوية وكماً هائلاً من أسماء أدباء أوروبا وأمريكا فضلاً عن حالات الاستعراق في مصطلح الحدائث والحدائثيين وأيضاً حالات من الاتيهار في نقل تجارب المدارس الغربية التي أثقلت على الحس والفهم



الأدبي للشعر العربي، بما هو فأدخلوا (السرياليزم) والعلاقات اللغوية والغريبة في تركيب الجملة الشعرية، وضعف الحس الموسيقي فضلاً عن حالات تنظيرية - يكاد لا يفهمها المنظر نفسه - عن قصيدة (النثر) والتفيلة ومن ثم آراء الشاعر الإنجليزي (ت س اليوت) والعالم اللغوي الأمريكي (إدوار ساير) و (أفروديت) و (أنيتا) وغيرهم.

ولم يخرج المتلقي أمام هذه الثروة التي يعتبرها البعض ثقافة نقدية في عملية تقويم النص الأدبي إلا بضباية معتمة أمام هذا الهوس المتفلسف ضمن عالم البساطة والسهولة التي ينبغي أن تكون مفردات إيجابية يتعايشها الفرد ضمن محيطه الإسلامي، والأهداف التي حددها الإسلام هي الأخرى ضمن نطاق البساطة والوضوح.

ونقول... كم حَقَّ الأدياء المستغربون في استعاراتهم للأفكار الأدبية النقدية في تطوير قابلياتهم الشعرية وكم استفادوا من توظيفها في تقويم النص الأدبي العربي، وإلى أي مسار أنتهى بهم هذا الهوس بعد مشقة التغريب الفكري لسنين طويلة وانحسارهم بعيداً عن مجتمعهم في كُلِّ قضاياها المصرية؟

ومن ذلك لا نريد ان نُلغي أهمية الفكر الأدبي الغربي، بقدر ما نريد أن نؤكد على قدر الأصالة للقصيدة العربية بعيداً عن حالة الاستغراق في نقل التجارب الغربية وحالات اللهو اللاشعوري أحياناً. والانغماس بتجارب الآخرين دون الخروج بمعطيات واضحة ومهمة للقصيدة العربية، تدرعاً بما يصطلح عليه بالحدائث! - أحياناً - مع أن رواد المحدثين الذين فتحوا طريق

(التفعيلة) هم من قدماء أدباء العرب كالنواصي وأبي تمام، وسار على منهجهم بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وأدونيس، ونزار قباني، والفيثوري، وخليل حاوي، ومجازي، وعبد الصبور وأمثالهم، فهم لم يقيموا نتاجهم الجديد بمعزل عن القديم أو بالاحرى لم ينتج ذلك من فراغ، بل خبروا لغتهم وأبدعوا في أساليبهم وكتبوا تجاربهم الأولى ثم اجتهدوا بأسلوب (التفعيلة) الجديدة، وبقيت نتاجاتهم عرضة لعملية النقد فاختلف حولهم الناس لما أبدعوه.

وفي سياق هذا المضمون يؤكد المرحوم مصطفى جمال الدين

برأئته:

في كلِّ يومٍ من (جديدك) صورةٌ شوهاه زوقها الغرورُ وورداً
أعطيتها (لقباً) وقلت لناظرٍ متخبرٍ فيها: تجاوزك المدى!!
أحسبت أن (رطانةً) تلهو بها أدبٌ يُعدُّك أن تكون (مُجدداً)
لاحظ ما استخدمه جمال الدين من كلمة (رطانة)!! (ومجدداً) فهو

أسلوب ساخر من موجة الحداثيين المستغربين. ثم يقول:

وتظن أن (رؤي) غلاظاً حولها تحمي غرورك أن يظلل (مُقلداً)
مهلاً فلست ببالغ قمم المنى ويداك من شمع... وريشك من مُلدى!!
جدد إذا إسطعت الجديد بفكرةٍ تبنيك رِخواً، أو تقيمك مُقعداً
واكتب جديدك في قشيبٍ ناعمٍ من نسج قومك تلقهم لك سجداً
فالنهر لا يُعطي النماء لنخلةٍ حسبت كرملة شاطيه الجمداً
إذت هو القشيب الناعم - كما عبر عنه مصطفى جمال الدين - وهذا



ما كان يعيه السيد محمد الصدر رضي الله عنه وبعيداً عن حالات (الرطانة) و (اللهو).

لاحظ ما يقوله رضي الله عنه بعد أن يستذكر ما أنزل الرحمن على (قلوب) كانت تستعر فيقول:

كانت من الوجد والأشواق قد تعبت ومن لظى غلها للفجر تنتظر
 ماذاقت الحلو واستجلت ملامحه فجاءها من ثني أنواره أثمر
 بالوجد بالبؤس بالحرمان قد صبرت للنور للحب للأعتاق تفتقر
 طال الزمان على يوم به صبرت والخير حتماً يراه الناس إن صبروا
 حقاً إنها قطعة موسيقية رائعة فضلاً عما يكتنفها من مضمون وجوهر
 رائع نلاحظ في هذا المقطع الذي أستل من قصيدة طويلة تكمل فيه ثوابت
 الشعر العربي من لغة وأسلوب وموسيقى ولا يمكن لأي ناقد أو مجلد أن
 يتجاهل عليه ذلك.

علاقة الحسين عليه السلام بالشعراء

يقول السيد الصدر: نتعرض الآن إلى تأثير الحسين عليه السلام في الشعر
 عموماً، حتى نسب إلى الأديب المصري المعروف الدكتور طه حسين قوله:
 (لا زال الشعر رافضياً). وبالتأكيد أنه لو لا ثورة الحسين عليه السلام لما كان
 كذلك.

وبعد ذلك أن أفضل الشعراء في اللغة العربية كما يقول السيد محمد
 الصدر رضي الله عنه: هم الشعراء الإماميون الإثنا عشريون بتأثير مذهبهم في

ذلك فعلاً. فبالرغم أننا نجد فطاحل من الشعراء العرب من الأديان الأخرى والمذاهب الأخرى، سواء في صدر الإسلام أو العصر الحديث. إلا أن الشعر الشيعي يتميز بمزايا لا يمكن للآخرين الاتصاف بها أو السير باتجاهها أو حتى نكرانها.

ومن ذلك نرى كيف يستخدم السيّد محمّد الصدر أداته النقدية في تقييم نصوص بعض الأدباء وبالأخص شعراء المذهب، ففي نقده لقصيدة دعبل الخزاعي يستخدم الصدر رضي الله عنه أداته النقدية في الجانب الفكري وليس الفني منها فحسب، فيقول:

وتعرض الآن إلى دعبل الخزاعي. ولديوانه عدة طبعات منها بتحقيق شخص شيعي^(١)، ومنها بتحقيق سني^(٢). وقد وجدت السني يعتبر دعبل رجل هزل ومجون. كما يعتبر أن شعره مقسم إلى ثلاثة أقسام: بعضه محرز الانتساب إليه، وبعضه مشكوك، وبعضه منتحل يعني معلوم عدم الانتساب. وإنّها محاولة من الشيعة لاعتباره شيعياً، وإلّا فالأمر يختلف في نظره كثيراً. كما انه يتورط بأحد الأبيات التي يقول فيها: (وقبر بطوس يا لها من مصيبة). مع العلم أنه لم يكن في حياة الإمام الرضا قبر للعلوين هناك. هل هو مدسوس في القصيدة؟ أم يدل على كذب القصيدة ككل؟ أم هناك قبر مجهول صاحبه؟. كل ذلك لنفي العقيدة الشيعية بعلم الإمام عليه السلام، وإنه

(١) هو عبد الصاحب الدجيلي.

(٢) منها طبعة للدكتور عبد الكريم الاشر، طبعة للدكتور محمد يوسف نجم.



من التنبؤ الصادق بالمستقبل لأنه حتماً قرأ الرواية، إلا أنه أخذها مسلمة الكذب.

وفي حدود فهمي، أن بعض الشيعة خلال الاجيال، كانوا يتقربون إلى الله بإيجاد إضافات إلى الأشعار الموسوعة والموروثية اتباعاً لنفس هدف الشاعر الذي هو نظيف وفيه هدى وموعظة. ولا يعلمون أن هذا من الكذب الحرام، لأنها تكون منسوبة إلى الشاعر نفسه، وهو خطأ. وطبقاً لذلك قد أزيد في عدة قصائد:

منها: قصيدة الفرزدق في مدح الامام السجاد عليه السلام. ومن علامات ذلك أنه اختلف في أولها، هل هو قوله: (هذا الذي تعرف البطحاء وطأته)، أم قوله: (يا سائلي أين حل الجود والكرم). والمناسب مع قصتها هو الأول لا محالة لأنه جواب قوله: من هذا؟.

ومنها: أنهم أزدادوا أيضاً في القصيدة التي أولها: (شيعتي ما أن شربتم عذب ماء فاذكروني). حتى ذكروا مقتل الحسين عليه السلام وحوادث الطف كلها فيها. مما يستحيل صدوره عادة عن الحسين عليه السلام.

ونحن نستدل على تحريف التوراة بادلة منها: أن فيها ذكر موت موسى عليه السلام ودفنه، فكيف يكون ذلك قد نزل وحياً على موسى نفسه أو كتبت في عصره. فإما أن يكون كله مدسوساً أو بعضه.

ومنها: أنهم أزدادوا في القصيدة التي يرثى بها مسلم بن عقيل عليه السلام وهي الهائية التي يقول فيها:

سحجاً تجرر بأسواقهم الست أميرهم البارحة

ومنها: أنهم أزدادوا في القصيدة المنسوبة إلى الإمام الهادي عليه السلام، ولعلها لا تزيد أصلاً على عشرة أبيات في حين جعلوها طويلة، والتي أولها: باتوا على قلل الاجبال تحرسهم غلب الرجال فلم تنفعهم القلل ولا أعتقد أنها للإمام عليه السلام وإنما تنسب إلى شاعر من الشعراء. وقد استشهد بها الإمام الهادي عليه السلام في مجلس شراب المتوكل.

وأزدادوا كذلك في قصيدة دعبل، وهي بالأصل طويلة، إلا أن أبياتها واضحة الاختلاف في الرصانة والركاكة. فمن الراجح أن نقول أن الركيك منها ليس لدعبل بل هو من المدسوس. ومن علامات ذلك أنها أيضاً اختلفت في أولها في عدة احتمالات، والمشهور أن أولها:

منازلُ آياتٍ خلّت من تلاوةٍ ومنزلٍ وحيٍ مقفر العرصات
فالمهم أننا نأخذ القصيدة أما من المصادر الموثوقة، أو نأخذها من تلك الأبيات التي تتواجد في كلِّ المصادر دون تلك الأبيات التي تذكرها بعض المصادر دون بعض.

وهذا نتيجة لأن الطبع والنشر لم يكن موجوداً فيما سبق، فقد أصبح الدس والزيادة فيها سهلاً، والنسبة إلى الشاعر ميسوراً.

وأنا رأيت بعض كتب المشجرات والأنساب المخطوطة فيها إضافات بخط جديد ممن كان يرغب بإضافة نسبه إلى الكتاب، بعنوان أن المؤلف هو الذي ذكره. فيخيب الله ظنه لكونه معروفاً باختلاف الخط.

وعلى أي حال، فقصيدة دعبل قد شاركت فعلاً في أهداف الحسين عليه السلام إعلاماً وهداية ومعارضة. وتعرض دعبل إلى ظهور صاحب



الأمر عليه وأقره الإمام الرضا عليه وواضح من سياق الرواية أن دعبل لم يكن يحدد شخصه كما نحدده الآن، وإنما سمع به إجمالاً.

وحسب فهمي أن إعلان هذا الاتجاه بصراحة على المجتمع كان مخالفاً للتقية وإنما عرفنا ذلك بصراحة عند حصول الاثني عشر أنفسهم. وأما خلال عصر الأئمة عليهم يجهلون ذلك، وقد كان دعبل على هذه الصفة. وقد كانت صفة الشيعي يومئذ أنه يؤمن بإمامة أمير المؤمنين عليه ودولة الإمام المعاصر له، يعني يؤمن بالولاية أجمالاً لا تفصيلاً.

ومن ذلك ما ورد أن شخصاً يقول للإمام الرضا عليه: أنت المهدي؟ يعني هل أنت المهدي؟ فيجيب ما مضمونه: كلنا مهديون ولكن لست الذي يملؤها قسطاً وعدلاً.

وقد كان الأئمة عليهم مضطرين تحت ظروف التقية المكثفة إلى بقاء هذا الجهل في أوساط شيعتهم، وإنما يقومون بتريق الحقائق بالتدرج البطيء. فقد لا يتوقع العديدون إلى الحصول على بعض تلك الحقائق.

وحسب فهمي فإن قصيدة دعبل ليست على نفس المستوى من الجودة، بل فيها أكثر من مستوى. ويمكن أن نعزو ذلك إلى عدة أسباب:

أولاً: الدس. فما كان ضعيفاً فهو مدسوس، وما كان قوياً فهو له، إلا أن هذا مما لا يمكن أخذه على إطلاقه، بمعنى أن نحكم على البيت بالدس لمجرد ضعفه.

ثانياً: ضعفه الشعري نسبياً، إذ لا شك أن الكميت والفرزدق فضلاً عن المتنبى والشريف الرضي خير منه. والشعر معلول للنفس ولا يمكن أن يزيد

على مستوى الشاعر بحال. ويمكن أن تشابهه بأبي العتاهية من هذه الناحية فإن شعره أغلبه سهل إلا أنه ليس بمتانتة. ويحضرني قوله:

فاسمع لقول ناصح يدعى أبا العتاهية
ثالثاً: صعوبة القافية عنده مع إرادة التطويل بالقصيدة أو عدم تكرار
الكلمات طبعاً مع إرادة ضغط معاني معينة خلال السياق. فقد تبدو بعض
الأبيات متكلفة، أو أن بعض الكلمات يصعب تخريجها لغوياً. كل ذلك
لحفظ الوزن والقافية، أو قل لضرورة الشعر كما يعبرون.



وعلى أي حال نسمع في تلك الرواية لقصيدة دعبل أن الإمام
الرضا عليه السلام كان قد جمع نساء أيضاً وراء الستر للاستماع والبكاء، والرجل
كان واسع النظر لم يقتصر على بعض تاريخ الانمة عليه السلام، بل ذكر مصائبهم
ومقاتلهم حسب ما يفهمها كلها، كقوله:

أرى فيأهم في غيرهم متقسما وأيديهم من فيثهم صفرات
وقوله:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلاً وقد مات عطشاناً بشط فرات
وقوله أيضاً:

وقبر ببغداد لنفس زكية تضمنها الرحمن بالبركات
ولم يكن الإمام الجواد عليه السلام قد دفن في ذلك الحين إلى جنب جده
الكاظم عليه السلام ليدكره.

وقد تعرض دعبل في قصيدته إلى بعض الثوار العلويين، وقد أقره
الإمام الرضا عليه السلام على ذلك. والظاهر أنه تعرض إلى الاشخاص الذين يحرز

إخلاصهم ووثاقتهم في حركتهم وشهادتهم. وأغلب الذين ذكرهم هم من الشهداء الحسينين، أما باعتبار كون الرضا عليه السلام حسينياً، أو باعتبار زيادة الاخلاص فيهم كما سبق، حيث يقول:

قبور بكوفان وأخرى بطيبة وأخرى بفتح نالها صلواتي
 وقبر بأرض الجوزجان محله وقبر ببا خمري لدى الغرفات
 وقبر ببغداد لنفس زكية تضمنها الرحمن بالبركات
 وقد تخيل جامع الديوان السني أنه محمد بن عبد الله بن الحسن. وهو
 من السادة الحسينين. ولكن المراد به موسى بن جعفر عليه السلام وإنما عبر عنه
 بالنفس الزكية مدحاً وليس اصطلاحاً. دليل على أن ابن الحسن هذا مدفون
 ببغداد.

ثم يقول:

وقبر بطوس يا لها من مصيبة ألحت على الأحشاء بالزفرات
 وقال المعلق السني: وتقول بعض مصادر الشيعة إن الإمام الرضا عليه السلام
 هو الذي ألحق هذا البيت والبيت السابع عشر بالقصيدة حين اتشده أياها
 دعبل. ونلاحظ أن (ياقوتاً) عد البيت السابع عشر مما صح عنده من
 القصيدة وأورده فيها.

أقول: وهو قوله:

إلى الحشر حتى يبعث الله قائماً يفرج عنا الهمم والكربات
 إلا ان نسبه هذا البيت إلى الرضا عليه السلام نفسه من الدس. وإنما تسب
 مصادر الشيعة البيت الخامس عشر فقط إليه. لأنه قائم على علم الغيب

والتنبؤ بالمستقبل الذي يستحيل على دعبل العلم به. وأما قضية المهدي القائم عليه السلام فكان أمراً مشهوراً في ذلك الحين لا يخفى على دعبل ونستطيع أن نتحدى القائل بالإثبات لنا بالمصدر الشيعي الذي ينسب هذا البيت إلى الرضا عليه السلام نفسه.

وفي نقده رضي الله عنه للمتنبّي يقول:

والمتنبّي الذي شهد له الجميع أنه اشعر العرب، يمكن القول بأنه شيعي. وأن كتاب الملاح (المتنبّي يسترده أباه) وإن كان فاشلاً في هدفه الرئيسي وهو اثبات كونه ولدًا للمهدي محمد بن الحسن عليه السلام إلا أن أدلته تثبت كونه شيعياً، ومن ذلك أنه يقول أنه كان هناك مدارس خاصة لا يدخلها إلا الشيعة أو الهاشميون قد درس فيها المتنبّي في أول أمره فعلاً، وكذلك جملة من أبيات الافتخار التي يقولها تعطي انتسابه إلى الدوحة الهاشمية، أما علويته فلم تثبت تفصيلاً.

إلا أنه حتى وإن كان شيعياً هاشمياً، إلا إنه رجل دنوي ومتكبر ومرافق ملوك لأجل الحصول على السمعة والمال، ولا يشعر بدينه وتشيعه مع شديد الأسف، حتى لا تجد له أي بيت ينصر به الدين أو المذهب، او يمدح شخصاً لتدينه ولعل أهم ما قاله في الافتخار قوله:

أي عظيم أتقى أي مجال ارتقى
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشمرة في مفرقي

وهو واضح في عدم خوفه من أي عظيم حتى من عظمة الله سبحانه،



كما أنهم استشكلوا عليه فيها أن قوله: (وما لم يخلق) شامل لذات الله نفسه، فكأنه يرى نفسه أعلى من الله سبحانه، ويحترقه بقوله: (محترق في همتي).

فإن قلت: بأنه لا يقصد ذلك، وإنما يقصد العدم.

قلنا: نعم، إلا أن قوله: (وكل ما قد خلق الله) يشمل الأنبياء والاولياء والعلماء وأضرابهم، فيكونون محترقين في نظره، والشعر نص في ذلك ولا يمكن الاعتذار فيه.

وكذلك نقده رضي الله عنه لأحمد شوقي يقول:

كما انه من الممكن القول بأن شوقي أمير الشعراء شيعي، وعلى أي حال فإنه ليس مصري الأصل، ولا على مذهب الجماعة، ولا يوجد له نسب في مقدمة ديوانه، والظاهر أنه هو الذي تعمد إخفاءه، والذي يقوله الثقة أنه تركي الأصل علوي المذهب، يعني ممن يعتقد بالهية علي عليه السلام، فهو من هذه الجهة إن لم يكن شيعياً يقدس ويحترم علياً عليه السلام، إجمالاً كما تحترمه الشيعة وتقده، أو قل إن مذهبه أقرب إلى التشيع من هذه الناحية من التسنن، وإن كان رجلاً دنوبياً من شعره، وليس له إلا قصيدة واحدة في مدح النبي صلى الله عليه وآله وكل أشعاره الاخرى للدنيا والشيطان.

يبقى عندنا مشاهير الشعراء غيرالمتنبي وشوقي، هم من الشيعة أكيداً وبضرورة التاريخ: كالكميت الأسدي، والشريف الرضي، والصاحب بن عباد والسيد حيدر الحلبي، والسيد جعفر الحلبي، والجواهري والفرطوسي والشيخ عبد المهدي مطر، والسيد مصطفى جمال الدين، وعشرات غيرهم.

أما قوله رضي الله عنه في شعر الشريف الرضي:

ولا بأس أن نحمل فكرة بسيطة عن بعض هؤلاء. فالشريف الرضي لا يخلو ديوانه من الافتخار والتكبر، حتى يقال إنه كان يطمع بالخلافة. ويدل عليه قوله: للخليفة العباسي:

مهلاً أمير المؤمنين فإننا في دوحة العلياء لانتفرق
إلا الخلافة ميزتك فإنني أنا عاطل منها وأنت مطوق
فأجابه: على رغم أنف الشريف.
ومنه قوله:

ما مقامي على الهوان وعندي مقول صارم وأنف حمي
أجرع الذل في بلاد الأعادي وبمصر الخليفة العلوي
مما أثار غضب العباسي في بغداد، وأصر عليه والده في أن يقسم
أمامه أن هذا الشعر ليس له، وهو غير مثبت في الديوان حسب علمي.

ولمّا وضعت الباب الذهبية لحضرة أمير المؤمنين عليه السلام أقيم احتفال
والقيت فيه القصائد، وكان جملة منهم شعراء فحول ومشهورون. وكان
منهم بعض من سميناه كالشيخ الفرطوسي، فقد شارك بقصيدة عينية رائعة
لعلها خير شعره إطلاقاً ومطلعها:

نشيدي وأنت له مطلع من الشمس يعنو^(١) له مطلع
وهي موجودة في ديوانه، وفيه ما يدل على أنه يقدها ويقدمها

(١) يعنو: أي يخضع.



بصفتها أفضل حسنة، وله ملحمة أهل البيت، وهي حوالي خمسة وعشرون الف بيت في تاريخ المعصومين عليه وأولها:

هاك قلبي مضرجاً بدماي قطعاً في سلاسل من ولائي
وهي بوزن وقافية واحدة كلها.

وكذلك شارك فيه الشيخ عبد المهدي مطر، وهو استاذي في كلية الفقه في قواعد اللغة العربية، فقد شارك بقصيدته الرائعة، ولعلها خير شعره والتي مطلعها:

لعلع بباب علي أيها الذهب واخطف بلبصار من سرّوا من غضبوا
أما مع الشاعر محمد مهدي الجواهري فنلاحظ دقة التقييم ورائعة الحسّ النقدي.

فيقول: بالرغم من أن محمد مهدي الجواهري دنيوي أيضاً وفاسد في عقيدته وسولكه ومناصر للملحدين في شعره وكذلك فإن ديوانه يحتوي على كثير من الغزل لمعشوقات أورييات احبهن فيهن، كما أن فيه قصيدة صغيره في ذم الحوزة العلمية، وينسب إليها الكبائر والفضائح.

وبالرغم من كل ذلك فإن قصيدته في الحسين عليه وخاصة المقطع الاول منها: هي خير شعره، كما أنها خير ما قيل في الحسين عليه على الطريقة الفكرية الحديثة، وأعتقد أن فيها توفيقاً إلهياً مع الالتفات أنه قالها منذ شبابه حين كان معممأ في الحوزة ولمن يكن متدنساً بالأثام التي طرأت عليه بعد ذلك. ولعل خير ما فيها قوله:

كأن يبدأ من وراء الضريح حمراء مبتورة الأصبع

تمد إلى عالم بالخنوع والذل في شرف مترع
لتبدل منه جذب الضمير بآخر معشوشب ممرع
والبيت الأول منها: يعطي صورة خيالية جبارة ليد الحسين عليه السلام اليمنى
المبتورة الأصعب والمخضبة بالدماء.

وواضح أيضاً من الأبيات أنه يمجد الحسين عليه السلام باتجاه دنيوي،
للأصلاح وحياء الضمائر الميتة ورفع المظالم من المجتمع، وليس فيه سمة
إلهية أو أخروية. كما أنه ليس فيه اتجاه إلى البكاء والتضجع، إلا ما يأتي
عرضاً. ولكن جانب الأخلاص والعاطفة فيه موجودة أكيداً، في مثل قوله:

وماذا أعظم من أن يكون لحمك وقفاً على المبضع
وتطعم للموت خير البنين من الأكهلين إلى الرضيع
وعلى أي حال فمن الواضح أن الحسين عليه السلام يفهمه كل شخص
بمقدار مستواه وثقافته وقناعته، وأي من ذلك حصل كان خيراً ونعمة. وكان
مؤثراً في إيجاد الهمة نحو التمرد على الظلم والتضحية بالنفس والنفيس،
في سبيل إيجاد العدل حسب اختلاف مستويات إدراك هذا العدل.

حتى من الممكن القول أن كل الثورات والتمرد في التاريخ، وحتى
إلى العصر الحاضر، بل والمستقبل منتسبة بشكل واضح أو غامض إلى ثورة
الحسين عليه السلام بعد أن أعطى الامثلة العليا في ذلك.

حتى من يكون على مستوى الدنيا أو على مستوى الإلحاد أو أديان
أخرى. فإنه لا أقل أنه يعرف الحسين عليه السلام كقائد وكمصلح وكمضح في
سبيل إقامة الحق والعدل إجمالاً، وهذا يكفي في التحريك نحو الهدف.



أما مع السيد مصطفى جمال الدين فيقول:

والسيد مصطفى جمال الدين، شعره جيد ينحو نحو الاتجاه الرمزي^(١)، كما هو الحال الغالب في الشعر الحر، أي ينظمون معاني مجملة وغائمة. وقد كان زميلي في نفس الصف في الدورة الأولى من كلية الفقه، وصورته مثبتة في العدد المطبوع من مجلة النجف بين المتخرجين من الدورة الأولى. وله قصيدة رنانة بمناسبة افتتاح جامعة النجف الدينية، ينحو بها المنحى الرمزي، والتي يقول في مطلعها:

أصعدي لا يرعك درب عسير فجنحناك عزيمة وشعور
إلى أن يقول في نهاية المقطع الأول:

واكتشاف النبع الغزير إذا أمحل صرح الآمال نبع غزير
من نصرُوا الإسلام من خارجه

ويوجد هناك عدد لا يستهان به من الشعراء والمفكرين ممن نصرُوا

(١) على ما أعتقد أن السيد محمد الصدر رضي الله عنه أراد أن يوضح الانطباع السائد في اللغة المتعالية في شعر السيد مصطفى جمال الدين، وليس المقصود بالاتجاه الرمزي، بالمتعارف عليه بالمدرسة الرمزية التي لها روادها المحدودون في الأدب العراقي على وجه الخصوص.

وحقيقة القول ... أن التناج الشعري لجمال الدين هو نتاج نخبوي يصعب أحياناً- إذا لم نقل غالباً- إيصاله وفهمه إلى المتلقي ذي الثقافة المحدودة، ولا أرى في نتاجه ما يعبر عن المدرسة الرمزية، ولكن ما جاء في نقد وانطباع السيد محمد ينطلق من أساسيات ومرتكزات ما يطمح له من أهمية ودور الأدب في الخطاب الجماهيري.

الإسلام من خارجه. نصراً قليلاً وكثيراً. أخص منهم بالذكر: غاندي أو المهاتما غاندي وليوبولد فايس الذي أسلم وسمى نفسه محمد أسد^(١) وهو نمساوي، وله عدة مؤلفات لنصرة الفكر الديني، أشهرها (الطريق إلى مكة)، وروجية كارودي الشيعي الفرنسي الذي أسلم وألف كتابه: البديل، يعني البديل عن الحضارة الأوروبية. وكذلك (بولس سلامة) في ملحمة الشعرية المعروفة، ويصرح بها أنه إنما نظمها رجاء الشفاء من مرضه المزمن، مستشفعاً بالنبي وآله. كذلك (انطون بارا) صاحب كتاب (الحسين في الفكر المسيحي)، فإنه كاتب منصف، مجد الحسين عليه السلام وراثه وقارنه بالمسيح كما يعتقد هو به، لأنه يرى مقتله وشهادته، فقد قارن بين الشهادتين، ولم ينكر من تاريخنا شيئاً حتى مسألة تكلم الرأس الشريف الذي يعد من المعجزات، والمفروض بالماديين وغير المسلمين عموماً أن يكذبوه دائماً لاتجاههم النفسي والعقائدي.

ولا ينبغي أن ننسى بهذا الصدد الكاتب المسيحي اللبناني المشهور (جورج جرداق) في موسوعته الشهيرة (علي صوت العدالة الإنسانية) حتى قال بعض المفكرين من الشيعة: أنه يفضل علياً على رسول الله صلى الله عليه وآله، في حين أن فخر علي هو اتباع الرسول صلى الله عليه وآله. وأنا أقول إنه لم يقل فيه إلا ما

(١) اهتمت مجلة الأضواء في سنتها الأولى بنشر مقالات عديدة له في باب «قرأنا لك»

راجع مجلة الأضواء العدد المزدوج ٢٣، ٢٤-١/ ذي الحجة / ١٣٨٠ هـ تحت عنوان

«لماذا لا نرضى بدولة علمانية؟» محمد أسد.



يعف. وهو أعلى مما قال بكثير. وأقول: إننا نأخذ منه الحقّ وندع الباطل. وأقول: إننا نطبق القاعدة التي نعرفها (أن ما عند الأدنى عند الأعلى وزيادة) فما كان لعليّ كان لمحمد، ولا أعتقد أن هذا يخفى على (جورج جرداق، ولو ارتكازاً).

كما لا ينبغي أن ننسى بهذا الصدد الشاعر المعروف المعاصر (عبد الرزاق عبد الواحد). فإنه صابني، بل يقال: إنه رجل دين عظيم عندهم، ولعله شيخهم على الإطلاق. ومهما قلنا في جهته الدينية والدينية فإن قلبه متجه حقيقة باتجاه الإسلام وأهل البيت، وله قصائد مشهورة في هذا الصدد قديماً وحديثاً. وهو ممن يعرف الإسلام بصفته شيعياً، أو قل أنه لو أسلم لتشيع ولم يتبع أي مذهب آخر. وله قصيدة متأخرة القاها بمناسبة مولد الحسين ^(١) عشية.

(١)

قدمت وعفوك عن مقدمي	حسيراً أسيراً كسيراً ظمي
قدمت لا حرم في رحبتك	سلام لمثواك من محرم
فمذ كنت طفلاً رأيت الحسين	مناراً إلى ضوئه انتمي
ومذ كنت طفلاً وجدت الحسين	ملاذاً بأسواره احتمي
ومذ كنت طفلاً عرفت الحسين	رضاعاً ولالآن لم افطم
سلام عليك فأنت السلام	وان كنت مختضباً بالدم

وأنت الدليلك إلى الكبرياء
 وأنتك معتصم الخائفين
 لقد قلت للنفس هذا طريقك
 وخضت وقد ضفر الموت ضفراً
 وما دار حولك بل أنت درت
 من الرفض والكبرياء العظيمة
 فسمك من دون قصد فمات
 ليوم القيامة يبقى السؤال
 هو القدر المبرم اللايرد
 سلام عليك حبيب النبي
 حملت أعز صفات النبي
 دلالة أنهم خيروك
 بل اخترت موتك صلت الـ
 وما دارت الشمس إلا وانت
 سلام على تراجع الحوم
 وهم يدفعون بعري الصدور
 ويحتضنون بكبر النبيين
 سلام عليك على راحتين
 تشع بطونهما بالضياء

بما ديس من صدرك الأكرم
 يا من من الذبح لم يعصم
 لاقى به الموت كي تسلمي
 فما فيه للروح من مخرم
 على الموت في زرد محكم
 حتى بصرت وحتى عمي
 وأبقاك نجماً من الأتجم
 هل الموت في شكله المبهم
 أم خادام القدر المبرم
 ويرعمه طبت من برعم
 وفزت بمعياره الأقوم
 كما خيروه ولم تثلم
 جبين ولم تتلفت ولم تندم
 لألأؤها كالأخ الستم
 حوالبك في ذلك المضرم
 عن صدرك الظاهر الأرحم
 ما غاض فيهم من الأسهم
 كشمسين في فلك أقتم
 وتجري الدماء من المعصم



سلام على هالة ترتقي
 ظهور متوجه بالجلال
 تهاوت فصاحة كل الرجال
 فراحت تززع عرش الضلال
 ولو كان للأرض بعض للحياء
 سلام على الحرفي ساحتك
 سلام عليه وعتب عليه
 فكيف وفي ألف سيف
 ولم أنتظرهم إلى أن تدور
 لكنت أنتزعت حدود العراق
 لغيرت تاريخ هذا التراب
 ويا سيدي يا أعز الرجال
 ويا بن الذي سيفه ما يزال
 يحس مرؤة مليون سيف
 وتمسك أنت ثم ترخي يديك
 فأين سيوفك من ذي الفقار
 علي علي الهدى والجهاد
 ويا أكرم الناس بعد النبي وجهاً
 ملكت الحياتين دنيا وأخرى

بلا لائها مرتقي مريم
 مخضبة بالدم العندم
 أمام تراجع الملهم
 بصوت يواجعه مفعم
 لمادت باحرفها اليتم
 ومفحمة جل من مقحم
 عتب الشغوف به المغرم
 ولو كنت حياً لم أحجم
 عليك دوائرهم يا دمي
 ولو أن أرسائهم في فمي
 فما نال منه بنو ملجم
 يا مشرعاً قط لم يعجم
 إذا قيل يا ذا الفقار احسم
 سرت بين كفك والمحزم
 وتنكر زعمك من مزعم
 فإين سيوفك من ذلك الضيغم
 عظمت لدى الله من مسلم
 وأغنى أمرئ معدم
 وليس بيتك من درهم

وقبل أن أختم الحديث عن الذين نصرُوا الإسلام من خارِجة، لا بأس ان أذكر شيئاً يتعلّق بغاندي، ومحمد أسد.



فدى لخشوعك من ناطق	فداء لجوعك من أبكم
قدمت وعفوك من مقدمي	مزيجاً من الدم والعلقم
ويي غضض جل أن أدريه	ونفس أبت أن أقول أكظم
كأنك أيقضت جرح العراق	فتياره كله في دمي
ألست الذي قال للباكرات	خذيبي وللنفس لا تهزمي
وطاف بأولاده والسيوف	عليهم سوار على المعصم
فضجت بأضلعه الكبرياء	وصاح على موته أقدمي
كذا نحن يا سيدي يا حسين	شداد على القهر لم نشكم
كذا نحن يا أيها الرفادين	سواترنا قط لم تهدم
لأن ضج من حولك الظالمون	فإننا وكلنا إلى الأظلم
وإن خانك الصحب والأصفياء	فقد خاننا من له نتمي
تدور علينا عيون الذئاب	فحتار من أيها نحتمي
لهذا وقعنا عرارة الجراح	كباراً على لؤمها الألام
فيا سيدي يا سنا كربلاء	يلاغي في الحلك الأعتم
تشع منائره بالضياء	وتذخر بالوجع الملهم
ويا عطشاً كل جذب العصور	سينهل من نورك الزمزم
سأطلع ثغري على موطنيك	سلام لأرضك من ملثم

أما غاندي، فقد كان يلقب بماهاتما، وهو لقب ديني عندهم، وقا كان واضح الزهد، مشهور بزبه غير المخيط، حتى قالوا له: هل تذهب بزبك هذا إلى قصر (برمنگهام) في بريطانيا؟ فقال: نعم. وهناك صورة لمخلفاته بعد وفاته، وهي أشياء قليلة تعد بالأصبع. ويقال: إن طرحه الرئيسي فيها هو أن يكون الانتاج وطنياً لا أجنبياً. وينقض عليه بزجاجات نظاراته. لهذا الزي إنما هو للزاهد فقط، أو قل للأخرة لا للدنيا. ثم هزاله وقلة طعامه، هل كان لدفع الاستعمار أيضاً؟ كلا. وكذلك كان يمشي حافياً، ودخل قصر (برمنگهام) حافياً.

وهذه المقدمات لا تذهب سدى، وقد وجدت في الصفحتين الأخيرتين من كتابه: (تجاريبي عن الحقيقة) أنه يبشر بالحب الإلهي. وأن الفرد غاية مناه أن يصل إلى الحب الإلهي. ولعله كان يحارب الانكليز والاستعمار من وجهة نظر دينية وليس دنيوية فقط.

ورأية في الاسلام وقادته حسن، وإن كان ذلك لا يصلق على التفاصيل، بدليل أنه اجتمع مع (محمد علي جناح) وهو سياسي شيوعي عندهم، فلم يتفق معه على نتيجة، وانقضى الاجتماع بدون اتفاق، لأنه ينصر طائفته طبعاً.

وهو بوذي، والبوذيون يقدسون البقر. وقد نقل عن غاندي أنه قال: إن البقرة أحسن من أمي، لأنني أستفيد من حليبها ولحمها وجلدها وعظمها، وأما أمي فليست كذلك. وأنا أجله أن يقول ذلك، ولعله قاله لمجرد الإعلام. وإلا فمن يبشر بالحب الإلهي لا يمكن أن يبشر بحب البقر. ونحن نسمع

قوله: تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾^(١) فلا يجتمع حب العجل مع الحب الإلهي، وما دام الحب الإلهي موجوداً، إذن، فحب العجل متنف.

وأما محمد أسد، فله أفكار طريفة وكثيرة، منها: ما ذكرناه في (ما وراء الفقه).

من أن التوحيد أجل من أن يجعل له مثال زخرفي، وإنما المهم هو الهيبة والرصانة، فقامت أتأمل حكمة الصانع الذي اختار للتوحيد مكعباً من حجر يقصد الكعبة المشرفة.

ويقول: إنني جلست في مختلف البلاد الإسلامية، فوجدت الأذان المعلن على المنائر بوتيرة واحدة وطريقة مشتركة. كأنه يجعل ذلك إشارة إلى وحدة المسلمين في الطريقة والهدف، مهما اختلفت مذاهبهم وتباعدت بلدانهم. إلا أنه يذكر في الطريق إلى مكة (عبد العزيز آل سعود) ومقابلاته معه، ويذكره باحترام، ولا ينتقده بقليل ولا بكثير.

وفي كتاب آخر له يتحدث عن إمكان جعل وزراء غير مسلمين في دولة إسلامية. لأن مقتضى (الديمقراطية) عند تعدد الجاليات هو ذلك. ثم يستشكل: بأن ولي الأمر يجب أن يكون مسلماً، والوزير ولي أمر، فيجب أن يكون مسلماً. ويجب بأن الأمر ليس بالضرورة كذلك، بل يمكن أن نعطيهِ صفة لا يكون فيها ولياً للأمر.



وقد يشفع له أن يقال: إن ولي الأمر الذي يجب أن يكون مسلماً هو الحاكم الشرعي الأعلى. أما من دونه فليس بولي. ولو لا آية في القرآن الكريم لقبنا هذه النتيجة، وهي قوله: تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

وتسلط الوزير على حصة من الحكم نحو من السيل بلا شك. وتمام الكلام في محله.

تعليقة:

لا أرغب في التحديث بلغة الطائفية أو الفئوية الدينية، بقدر ما أريد أن أؤكد على أن الشعر الولائي لأهل البيت عليهم السلام أو مثلما يسميه السيد محمد الصدر بالشعر الشيعي، له ميزة خاصة ليس عند أصحاب المذهب فحسب بل لكل من يتذوق الشعر، بعيداً عن التعصب الفكري والمذهبي، وبالأخص عند المتلقي العراقي، فهناك حالة توارثية في الإحساس بالمعاناة وقساوة البيئة التي تحمل هذا اللون من الحزن، ولذا فإن أغلب الشعر الشيعي مجموعة من الصور الرهيبة بالمأساة، فالشاعر الولائي أو الشيعي منغمس بهذه الحالة، ولذا فإن الحالة الإبداعية تنامي رغم وحدة المضمون ولكن بأفق وأطر بعيدة الخيال في تجسيم صورة المأساة واستحضارها كواقع معاصر بأداة فنية رائعة باجتثاث جذور اللفظ ضمن محدودية أو دائرة الاشتقاق اللفظي المتعارف.

ولذا فإن قول السيد محمد الصدر: «الشعراء الإماميون الاثنا عشريون هم أفضل الشعراء في اللغة العربية» لن يخرج عن نطاق صورة التجسيم

واستحضار ذاكرة الماضي الأليم بلغة العصر الحديث. ولم يكن وصف السيد محمد الصدر وصفاً قطعياً لهؤلاء الشعراء وإنما كان يعني من ذلك خصوصية الشعر الشيعي وميزته ونكهته، سواء كان الشاعر شيعياً أو سنياً أو مسيحياً أو صابئياً أو ملحداً ماركسياً. ولذا نرى أنه قد ذكر أثنى على قصيدة الشاعر الصابئي (عبد الرزاق عبد الواحد)، كما مر قبل قليل. أو مسيحياً كما مر مع الشاعر (بولس سلامة).



المجلد الثاني العدد الثاني سنة ٢٠١٤
 مجلة القصب العدد ١٤
 ٢٠١٤

وبشكل عام... إن الشاعر حينما يتفاعل مع الحديث الحسيني يتفاعل حسب قابلياته الخيالية وادواته الشعرية سواء كان شاعراً أو غيره، بل هناك نتاجات شعرية كثيرة لشعراء شيعة ليست بمستوى أن يقال عليها (شعراً) وبالعكس هناك ما يخلق الروعة والدهشة في بعض نتاجات الشعراء الماركسيين وبما يهمل الحدث الحسيني بالأخص... فقصيدة الشاعر رشدي العامل (الحسين يكتب قصيدته الأخيرة) هي من أبلغ وأروع ما قيل بحق الإمام عليه السلام. وبهذا الصدد، يذكر المرحوم العلامة محمد مهدي شمس الدين: ان هناك نصوصاً أدبية رائعة يمكن لها ان تدرج تحت يافطة الادب الاسلامي لما فيها من قيم ومثل عُلّيا تسجّم مع الفطرة والفكرة الاسلامية وان كان اصحابها من عقائد اخرى واديان اخرى ولهم خصوصياتهم في الحكم والتشريع، فالادب الاسلامي هو ما عُبر «عن لواعج القلب، عن اشواق الروح، عن المخاوف، عن الآمال، عن الاوجاع المرتكرة على هذه القيم»^(١) أي انها ما حملت من قيم كبيرة بحيث تشكل قاسماً مشتركاً بين الانسانية.

(١) من حوار مع العلامة محمد مهدي شمس الدين، مجلة القصب العدد مزدوج ٥، ٦: ١٤.

ويبدأ الشاعر رشدي العامل قصيدته:

ها أنا الآن نصفان

نصف يعانق برد الثرى

ونصف يرف على شرفات الرماح

ها انا والرياح

جسدي تحت لحدي

ورأسي جناح

ها أنا بين رمل الصحارى

ولون السماء

ها أنا في العراء

أنكرتني ضفاف الفرات

فلم ألق قطرة ماء

في رمال الجزيرة ضيعت اسمي

وغادرني الأنبياء

فاقطع الآن من جسدي ما تشاء

سيفل الحديد الوريد

جرب الآن في جسدي ما تريد

ذاك رأسي على طبق بارد يا يزيد

جرب الآن ما تشتهي

هل تعيد

يوم بدرٍ

إذا صهلت في الفيافي الخيول

أم تعمم سفيان في ليلة القدر

ترضي معاوية والوليد

لجناحي ترف الغصون

وترنوا إليّ البتولُ

يقبلُ ثغري المدمى الصحابةُ

يبكي عليَّ الرسول

فاضرب الآن في جسدي يا يزيد

وزع الآن ما يشتري

وزع الآن من جسدي دمه

ثغره، حلم عينيه

فاليوم عيد

غير أن السموات تبكي

وثغْرُ النبي يُقبلُ ثغر الشهيد

زينب وحدها في البراري

تحمل الرأس، رأسي إلى الشام

حتى الرمال



أخرجت ما تضمُّ من الماء
وانسل من جوفها النهْرُ
يدعو: تعال
أيها الرأس أسقيك ماءً زلال

وحدها في البراري
زينب تلثم الرأس
كي تستفيق الصحاري
زينب وحدها
بين رأسي مخضبة والرجال
ذاك أبني تناوشه
في الصحاري الخيول
فأستفيقي إذاً يا بتول
أيقضي السيف في كف حيدر
سلي من النوم عيون الرسول

ذاك رأسي تبعثر بين الرؤوس
بين برد السفوح
ورمل الصحاري

صارخاً بين نوح الحمام

و ضرب الفؤوس

ويزيد تمطى بحضن الجواري

عاريّاً مثل صبارة في القفار

وأنا أريد الدم أحمر كالجلنار

وأغطي جيني الخضب

بالأرجوان

تلك عيني مفتحة

وعيونك مغمضة يا يزيد

هي الآن غرسك

فاليوم عيد

في أعالي الفرات

صعدت للسفوح الظهره

مرت بها زينب تحمل الرأس

صامته في الفلاة

فأنحنى النخل

واستيقظ الماء في السعف

أنت صخور الفرات

وحطت على دربها القبرات



زينب في الفلاة
زينب في أعالي الفرات
مرحباً يا فرات
خانك الماء في الصيف
واستل منك المياه
أنت أغرقت في ساعة الصفر
أرواحنا المزهرات
وسطوت علينا
سرقنا ... نواعيرنا المثقلات
مرحباً يا فرات
أيها العاشق الشيخ
خان العهود
حجبت حماماتنا
ثم أطلقت فينا الفهود
فالنجوم مسورة
والصباحات سود
جرب الآن ما تشتهي يا يزيد
جسدي في ثرى كربلاء
ورأسي بعيد
عانقتني السيوف الصفاح

وغزني الراح

ومشت فوق ما بعثرتني الخيول

غير أن السيول

حين تأتي

ستجفل من صوتها صهوات الخيول

توهج في جسدي جمرتان

تنفتح في مجري زهرتان

تمايل فوق الجبين المخضب

تقفو خيوط الدم في وجتي

خصلتان

هاهنا عالمان

بين روح تفرُّ من الجسد المطمئن

وجراحي تتر ... هنا عالمان

عالم خانه ناسه، وثان سيأتي على مهل

لم يخني ... جرب الآن في جسدي ما

تريد

فسأبقى الحسين

وتبقى إذا ذكر الناس ... هذا يزيد

غادرت نزهة العيد



هذا أوان الحساب
أوقدي الجمر في موقدي يارباب
ودعي قطرة من دمي
تتمشى مع الماء في قهوة الصباح
علّ الفناجين تسقي الشفاه
ولعلّ الوجوه التي أنكرتني
تغسل أهدابها بالمياه
ولعلي أعود
على غيمة من وعود
بين برق تلالاً في أفقكم والرعود
سيهز الجزيرة صوتي
ويوقظ حتى اللحد

* * *

منذ ألف تقمّطني الأمهات
ويرضعني من حليب الصدور
منذ ألف تكفنتني الثاكلات
منذ ألف يحصد الجذور
دمي المستباح إلى نخلة
في أعالي الفرات
منذ ألف أدور ... أدور ... أدور

وأبقى أدور

مرحباً يا فرات

مرحباً يا فرات

وفي هذه القصيدة يمكن أن نقول أن الغريزة الجمالية في الإنسان تتلذذ مع ما جاء فيها من الرؤى والحبك للوقائع التاريخية ومع ما طرحه الشاعر في أسلوب الحوار والمحاكات على لسان الناثر البطل الإمام علي عليه السلام ومن ثم تكتمل جمالية النص في الانفعالية العقلانية، التي استطاع الشاعر أن يوظف فيها الحس والنغم الموسيقي المطابق لأدوات الواقعة التاريخية فجاءت القصيدة مشبعة باللفات واللمسات مع الإيحاء في إيصال مشاعر الكلمة إلى عمق المتلقي قبل أن تصل إلى آذانه، وبأسلوب يخلو من التقريرية وجفاف الكلمة وتصحر المعنى والضياع في متهاتات اللفظ القديم.

أما شفافية هذين النصين يؤكد آية الله محمد الصدر أن (كل أدب أحتوى على طريقة معينة في التصوير والتعبير تلذ له الغريزة الجمالية في الإنسان إذا كان مقيداً في الحدود العامة لتعاليم الإسلام ذلك هو الأدب الإسلامي)^(١).

ومن الدائرة الإسلامية نقف على عمق شفافية أحد نصوص المكابرة لمرجع كسر طوق التقليد والتحجر والتصحر، فجاء النص أشبه بسابقة مع انفعالية خاصة في العتاب المحبب وعقلانية الطرح فضلاً عن رفاة الحس والنغم المُشد، وكأن فيما بينهما التداخل والاشتراك في نغمة الموسيقى

(١) مجلة الأضواء، العدد الثاني، ٣٦/ حزيران/ ١٩٦٠. (قصة رمزية من الأدب الإسلامي المترجم).



المستحضرة مع وحدة التشابه بالانطلاقة إلى عالم الصحة وترسيخ معالم
القيم والمثل - مع قياس الفارق في عمق المضمون بين النصين - فسجلت
القرينة الشعرية للسيد فضل الله (علام الضجيج) ...

علام الضجيج؟

وماذا فعلنا؟

وأتم تثيرون أنى اتجهنا

غبار الطريق علينا

لأننا دعونا إلى الله فيما دعونا

وأنا أردنا هنا

أن يظل الطريق بوحي الهدى

يتغنى

ويعلو صوت السماء الحنون

وإن عربد البغي يوماً وجنًا

نثرنا الحنان على كل كلمه

وصغنا النشيد بأعذب نعمه

وعشنا دعوتنا في الطريق

تشق الحياة لأروع قمة

وتزرع في كل درب هنا ...

وفي كل منعطف ... غرس نجمه

وماذا جنينا ...؟

لتروي الحكايات، كالإثم، عنّا

تُرانا لأنّا

دعونا إلى الله فيما دعونا

وأنا أردنا هنا

أن يظلّ الطريق بوحى الهدى

يتغنى

ويعلو صوت السماء الحنون

وإن عربد البغي يوماً وجنّا

علام الضجيج...؟

وماذا فعلنا؟

لأنّا انطلقنا

الى الدين

نحضن آياته بأرواحنا كالسنا

وابتدأنا

طريق الكفاح وكُنّا

بأن قوى الليل في درنا

سينهشنا حقدها أين سرنا

ولكننا لم يرُعنا الظلام

ولا الحقد، مهما قسا أو تجنّى



فإن بإيماننا شعلة
تُضيءُ لنا الدرب أتى اتجهنا

ومهما فعلتم
فلسنا هنا لنحقد

لكن

لنصفح حسنا

فنحن نرى

أنكم تجهلون انطلاق الحقيقة

فيما دعونا

وإن الطريق الذي تقصدون - ظلالات -

سينهار رُكناً فركنا

وسوف ترون بأن الضجيج

سيخفت إن أشرق الحق منا

ومهما فعلتم ... فنحن دُعاءً

يعيش بأعماقنا مُطمئناً

إلى الله

ربَّ حناناً بهم

هدياً لهم ولنا كيف كنّا

ومن الشعراء الإسلاميين الذي يحق عليه الوصف الدكتور محمود البستاني الذي جاء في قصيدته (قبس من روح الحسين ^(١) شئبة) سجل فيها أدباً رفيعاً وقلماً تجود به قريحة الملمهم المبدع الملتزم.

ثم مجد واستفيق على الأصداء كالحرف هادراً في اللهاة
كاختلاج النهار يمشي على تريلة الصحو ... وانجلاء السبات
كانبهار الرمال، باغتها الليل، ومساره ... بانطلاق الحداة
ثم مجد، واستريح إلى الأصداء ... تجري علوية الرعشات
الصدى الراعش الكبير ... فم التاريخ، يزجيه، ثم مجد الاباة
ثم مجد (الحسين) في ملعب الأجيال، تياهة رؤاه اللواتي
اللواتي درجن، في غابر إغفى، وفي حاضرته، وآت
كيف لا؟ والحسين إشراقة مثلي، حباها الإله، طهر الصفات
(والنبي) العظيم، موسقها روحاً، سماوية الرؤى والسمات
(وعلي) البطولة البكر، أجزاها، براكين من دم الثورات
حسبه ... من سلالة النفر البيض الألى ... بسرهم مظاف الحياة

وعلى ضوء ما تقدم فإن الممارسات النقدية - الأدبية - للسيد محمد الصدر اتسمت بالبعد الفكري أو القيمة الفكرية - في الغالب - التي يتغيها

(١) مجلة الأضواء النجفية، العدد الثاني ١/محرم الحرام/١٣٧٩ - ٦/حزيران، ١٩٦٠.



الإسلام، وليس تأكيداً (حتمياً) على القيم الجمالية أو الضرورة الفنية بقدر ما هي التفاتات عابرة أحياناً.

وهذا ما تعامل به أهل البيت عليهم السلام في حقل الفن التشريعي، حتى أن أحد المواقف التي تطلبت أن يستشهد المعصوم عليه السلام ببيت شعري، لم يعن فيه بالوزن مما حمل أحد الأشخاص على أن يستقد المعصوم عليه السلام، أجابه عليه السلام: بأنه لا يعنيه (الوزن) بل تعنيه (الدلالة)، أي المضمون الجوهرى الفكرى، كما ان تعقيباتهم أو بما يطلق عليه بممارساتهم النقدية على قصائد الشعراء كانت منحصرة في (الدلالة) أيضاً دون (الوزن)^(١) وجمالة النص بعد ابعاده العاطفية والتخيلية والإيقاعية، تكمل في دلالة المضمون أيضاً ومن ذلك، نرى ان السيد محمد الصدر اهتم في نقد الشعر الحسينى على الأغلب دون أن تكون له ممارسة معروفة في نقد بقية أغراض الشعر، وبالطبع أن لا يكون له ممارسة في هذه الأغراض سيما وإن له منهجاً إصلاحياً هادفاً استطاع أن يوظف فيه الشعر والمحاولات النقدية دون أن يُشغل أو أن يصب جميع اهتماماته في تجربة الشعر وأغراضه المتعددة، بل يمكن أن نقول انه استطاع أن يستثمر الحس الإيقاعى لديه وأدواته النقدية في تجارب شعرية محددة وهادفة يملئها عليه موقف عابر، وضرورة تربوية يهدف من خلالها عملية الإصلاح والبناء الفكرى العقائدى.

ولكن غاية ما يطمح له السيد محمد الصدر هو الأدب الملتزم،

(١) محمود البستاني، الإسلام والفن: ٣٣.

فلنقف على ما يقوله في هذا الجانب المهم جداً، وكيف يُفسر مفهوم الالتزام الذي بقي أشبه بمفهوم عائم عند أغلب ادبائنا المعاصرين فقال:
(أما الأدب الملتزم فهو شيء وراء ذلك، انه يقيد الأديب بأن لا يكتب إلا من خلال مذهب معين أو فكرة معينة وتجيد الأدب للدعوة والمذهب والتبشير به وأخذ المذهب بنظر الاعتبار في كل نتاج أدبي يصدر عن الأديب.



ولا شك في أن هذا النوع من الالتزام الأدبي يقيد الحرية الأدبية ويضع عليها من القيود أكثر مما تتحمل وتطبق مع أن الأدب لا يزدهر ولا يأتي غضاً جنباً ملئاً إلا خلال الحرية المطلقة، وإلا أصبح النتاج الأدبي جافاً متكلفاً لا يحمل من الروح الادبية الوقادة والمشاعر الحساسة شيئاً، وبالتالي فهو ليس أدباً وإنما هو نوع منحط من الكلام.

إذن فينبغي أن نغلق باب الأدب الملتزم، ونقرأ على روحه الفاتحة؟!
ولكننا إذا استطعنا أن نتميز بوضوح مواطن الحرية ومواطن التقييد في النتاج الأدبي أمكننا أن نعرف أن هناك بعض الحالات يكون فيه الأدب الملتزم هو مقتضى الاستيقاق مع الحرية الأدبية المطلقة.

وذلك: أن الحرية التي يجب أن تتوفر في الأدب إنما هي حرية العواطف في أن تأخذ مجراها الطبيعي والإحساسات في أن تعبر عن نفسها كما تشاء، والوحي الأدبي في أن ينزل كيف يريد ومتى يريد؛ لكي يكون بذلك النص الأدبي نتاجاً أدبياً راقياً يهز النفس ويخاطب الضمير ويشبع الذوق الأدبي الجمالي لدى النفس البشرية وليس لأحد في حدود ذلك ولا

للأديب نفسه أن يفرض أي حد وقيد متعين على عواطفه ووحيه ولا أن يغير من نتاجها شيئاً وإلا سقط نتاجه سقطة مؤلمة لا قيام بعدها؛ وكان بذلك مخالفاً لقانون الحرية الأدبية المطلق.

إذن فالأديب مقيد بأن لا يقيد الحرية وملزم بأن يسير على هداها ويستجيب متطلباتها.

وعن هذا الطريق بالذات يبرز مقصودنا، كما يقول الصدر، ثم يضيف:

فإن عواطف الأديب وأحاسيسه ووحيه الأدبي قد يتجه في بعض الحالات اتجاهاً تلقائياً نحو الدعوة إلى مذهب معين أو الأنتصار إلى فكرة معينة؛ وذلك عندما يتشبع الكيان النفسي للأديب بالمذهب ويتشرب في عقله وضميره ويقتنع اقتناعاً وجدانياً عميقاً بصحة وجهة نظره وضرورة نشره والدفاع عنه.

عندئذ وفي تلك اللحظة الحاسمة يكون مقتضى قانون الحرية هو أن يتقيد الأديب بما يوحيه ذوقه الأدبي وما تعج به عواطفه من أحاسيس وانفعالات ولا يكون لأي أحد بما في ذلك الأديب نفسه أن يصنع أمام نتاجه أي نوع من الحدود والقيود.

إذن فالأدب الملتزم في مثل هذه الحالة وعندما يكون الأديب ملتزماً بنفس طبعه الأدبي يكون منسجماً مع الحرية الأدبية المطلقة).

رابعاً: الصدر الثاني رادودا حسينيا

(اللطمية) لون من ألوان التعبير عن مكامن الحزن وشعيرة من الشعائر

الحسينية التي تكاد تكون قد نسيت عند جيل او جيلين في العراق بسبب بطش حاكمة السلطة في العراق ومنعها ممارسة الشعائر الحسينية بشكل عام.

السيد محمد الصدر (رض) بفضنته المعهودة وذكائه الحاذق التفت إلى هذه الشعيرة المُعطلة وحاول إحياءها من خلال اسثمار ذكرى شهادة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

إحياء هذه الشعيرة بالطبع، يستصحب - في الغالب - تاريخاً مليئاً بالحزن والألم، وأرادها السيد الصدر أن تكون عاملاً محفزاً ضمن مسيرته الإصلاحية يستكمل فيها كل حلقات برنامجها الهادف.

ومن على منبر الجمعة - وهي الصلاة التي هي الأخرى غُطلت دهوراً طويلة - وهو الفقيه والمرجع والمجتهد مارس دور (الرادود) في الوقت الذي يأبى به الفقهاء ممارسة دور الأدب كالشعر مثلاً^(١)!!

(١) في العرف الحوزوي يُستعاب على العالم اهتمامه بتفسير القرآن؛ لأنه يعتبر من شأن (الفضلاء) وليس (العلماء) وأي عالم يضطلع بهذه المهمة فإنه يعرض مكانته العلمية إلى ضربة قوية، فكيف بمرجع زاول مهام الوعاظ والخطباء؟ وعلى ضوء هذه الاعراف الشأنية يقول الدكتور الشهيد علي شريعتي: الذين يعتقدون أن العلم مختص بمعرفة الاحكام العملية واستنباط القواعد الشرعية، أما غير ذلك من العقائد وأصول الدين والأسس المنطقية لإثبات العقائد الخاصة بالمذهب فهي من الفضل لا من العلم، أي أنهم جعلوا فروع الدين علماً وأصوله فضلاً وأموراً زائدة يحسن تعلمها كدروس ثانوية غير أن المجتهد يجب أن لا يعكف على تدريسها؛ لأنها



السيد الصدر مارس دور (الرادود) ليحيي بها ما ترك وعُطل من مراسم وشعائر تحيي النفوس والمشاعر وتوجع الغضب المقدس الكامن في

دروس (ثانوية) تحطّ من قدره كفقيه!

ثم يستخلص شريعتي قوله: لكن ما أريد أن أقوله الآن، هو أن نوعاً جديداً وفريقاً جديداً من العلماء المسلمين ظهر أخيراً ليسوا فقهاء ولكنهم يتحدثون كالفقهاء، لا يتحدثون للناس لأنهم ليسوا من صنف أهل المنابر، لا يؤلفون لأنهم ليسوا من أهل التحقيق والتأليف والترجمة، لا يعلمون القرآن والسيرة لأنهم لم يَرِدوا هذه المجالات، ليس لديهم أدنى اطلاع بسيرة النبي والأئمة والصحابة؛ وذلك لأن هذه ترتبط بالتاريخ والتأريخ ليس من علوم الدين. ليس لديهم إحاطة بالبحوث الفكرية الاستدلالية للإسلام والتشيع وذلك لأنه هذه الأمور تدخل في نطاق العلوم العقلية وبالتالي فهي من اختصاص الفلاسفة والمتكلمين وأهل الجدل! ولا يروون أحاديث النبي وأقوال الأئمة لأن هذه العمل من شأن الرواة والمحدثين وأصحاب النقلية، وأخيراً هم ليسوا فقهاء ولا مجتهدين وليس لديهم فتاوى ولا رسالة عملية، إذن ماذا يكونون؟!

لا هو مفسر للقرآن، ولا خطيب منبر ولا محدث ولا راوٍ ولا مدرس ولا مؤرخ ولا محقق ولا مؤلف ولا متكلم ولا عارف ولا فيلسوف، ولم ينطق بحرف ولم يمسك بقلم ولم يُسمع منه شيء لا جديد ولا قديم، ألا تعرفون حل هذا اللغز؟!

أنا أقول لكم: إنه (الروحاني)!

أنه ليس بعالم ولا مفكر ولا كاتب ولا خطيب، إنه قطعة من نور، ملاك طاهر، ووجود مقدس، إنه شعار الدين ورمزه وماء وجهه، إن وجوده في القرية أو المدينة أو البلد مدعاة للخير والبركة! (الدكتور علي شريعتي، التشيع الصفوي والتشيع العلوي: ٢٣١

الصدور سيما وأن جيلاً أو جيلين لم يمارس هذا اللون أو هذه الشعيرة. (اللطمية) هي إحدى المنطلقات والحوافز والوسائل لتفجير الثورة العارمة التي أرتأى فدّخر تأجيلها بعد إكمال فقرات برنامجه الإصلاحية ضمن منهج واضح ومدروس ودقيق وهو العارف العالم بساعة (الصفر) لولا أن تمتد إليه أيادي الغدر والتحريض اللثيمة.

ففي الخطبة رقم (٣٩) نراه فدّخر يمارس هذا اللون وهذا الدور ... ولكن يبقى التساؤل المشروع لإثبات منهجيته ومعالم مساره، لماذا مارس السيد محمد الصدر هذا اللون في هذه الخطبة أو في هذه المناسبة بالذات مع مرور مناسبات عديدة لم يمارس بها هذه (اللطمية) على الرغم من ان القصيدة أيضاً تخلو من أي إشارة سياسية كما أشار هو فدّخر في بداية (اللطمية)؟

لا شك أن هذا التساؤل ينم عن وضوح منهجية ومسار وخطة مدروسة وعمل واضح في تحرك الصدر المقدس فدّخر لأن ممارسة هذا اللون (اللطمية) في بدايات^(١) شروعه لإقامة صلاة الجمعة قد يُولد - وبالتأكيد - حالة من التصادم والصراع والتزاع بينه وبين النظام في الوقت الذي كان السيد بحاجة إلى حالة من الهدوء ولو نسبياً للمضي بتحقيق

(١) نقول بدايات وإن جاءت الخطبة بعد ما يقارب عشرة أشهر، لأن من يفهم لغة النظام وممارساته التعسفية وفي المقابل من يفهم أيضاً حجم وتقل المشروع الصدري وكذلك طبيعة ظروف المجتمع العراقي آنذاك، يعلم أن هذه الفترة الزمنية قصيرة جداً جداً مع ما يطمح له الصدر فدّخر ضمن فقرات مشروعه التعبدي الاصلاحى والسياسى.



فقرات منهجه فالنظام يعتبر هذه الظاهرة تهديداً له سيما وأنه يستصحب أحداث دامية رافق هذا اللون أو هذه الشعيرة في مرحلة السبعينات، بل يراها النظام أكثر خطورة من إقامة صلاة الجمعة، لأن بدايات الجمعة لا تشكل خطراً واضحاً كما في أيامها الأخيرة هذا أولاً، ومن ثم رأى النظام في صلاة الجمعة - على الأقل - مشتركاً مع ما أطلقه من شعار الحملة الإيمانية.

أما لماذا لم تأت (اللطمية) في نهايات خطب الجمع الأخيرة؟ فلا أعتقد أن هذه الشعيرة وهذا اللون هو أو (هي) أبلغ مما قاله الصدر تصريحاً وتلميحاً مندداً بسياسة النظام الاستبدادية والإرهابية، مع كونها - حاجة - شعيرة من شعائر إحياء الروح الإيمانية في مجتمع غيب عنه الإسلام الحقيقي والاعتقاد المذهبي بالأخص منذ عام ١٩٦٨م فأراد بها الصدر إحياء العاطفة المكونة وأيضاً مقياساً لدرجة الغضب المكون، لأنها الشعيرة المهمة في التعبير عن تراكم الظلم والرفض.

يقول الصدر في خطبته (اللطمية) الآن نحن في ذكرى استشهاد مولانا العظيم أمير المؤمنين عليه السلام فدعونا نعزي أصحاب الكساء عليهم السلام بمقدار ما نطبق ونفهم باستشهاد عليه السلام، هنا قصيدة فصيحة ليست ذات مضمون سياسي طبعاً فيها فقرات ذات (ردة) وفقرة بدون (ردة) الآن أقرأ الفقرة الأولى ترددها معي (طبعاً اللطمية) - ولا شك فهي أيضاً من نظمه عليه السلام :-

يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين إنك النور المبين من آله العالمين
١- أنت يا زوج البتول أنت يا صهر الرسول

أنت يا عز العقول
 يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين
 ٢- إنك اللطف العظيم
 إنك السنور العميم
 يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين
 ٣- إنك المجد الأثيل
 صاحب السيف الصقيل
 يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين
 ٤- إنك المولى الوصي
 إنك الروح الرضي
 يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين
 ٥- يا إمامي يا علي
 يا مجيد يا صفي
 يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين
 ٦- إنك الحرب الأليم
 لانحراف الفاسقين
 يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين
 ٧- إنك الحق الصريح
 إنك الفجر الربيع
 يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين

يا كريم الأكرمين
 إنك النور المبين من آله العالمين
 إنك المن القديم
 إنك الحبل المتين
 إنك النور المبين من آله العالمين
 حامل الحمل الثقيل
 يا عظيم الأعظمين
 إنك النور المبين من آله العالمين
 إنك السنور المضوي
 يا إمام العالمين
 إنك النور المبين من آله العالمين
 يا عظيم يا ولي
 يا إمام العارفين
 إنك النور المبين من آله العالمين
 والبلاء المسـتـديم
 وضلال القاسطين
 إنك النور المبين من آله العالمين
 إنك الصبح المريح
 يا منزل الماكـرين
 إنك النور المبين من آله العالمين



والصراط المستقيم
يا معزز المؤمنين
إنك النور المبين من آله العالمين
يا مثال العابدين
يا شفيع المذنبين
إنك النور المبين من آله العالمين
لأباطيل الذليل
لقساد المارقين
إنك النور المبين من آله العالمين
إنك الحق الجزيل
للدعاوي الناكثين
إنك النور المبين من آله العالمين
أنت حرب الفاسقين
أنت ذل العاندين
إنك النور المبين من آله العالمين
يا إمام المتقين
من أجور المؤمنين
إنك النور المبين من آله العالمين
أجر مولانا الرسول
أجر زهرانا البتول

٨- إنك النور العميم
أنت في اللطف قديم
يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين
٩- يا إمام الصابرين
يا معزز الزاهدين
يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين
١٠- إنك السيف الطويل
إنك المحقق الأصل
يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين
١١- إنك العلم الأصل
إنك الرد المدلل
يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين
١٢- أنت عز الصالحين
أنت لطف الماجدين
يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين
١٣- أنت لطف الله فينا
عظم الله بقتلك
يا أمير المؤمنين ما إمام المتقين
١٤- عظم الله بقتلك
عظم الله بقتلك

يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين إنك النور المبين من آله العالمين
 ١٥- أي جرم للقيم هو في الذل مقيم فيك من المجترئين
 يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين إنك النور المبين من آله العالمين
 ١٦- إنها ضربة غدر من شرار العالمين
 أوجب فوزاً عظيماً لك في الأفق المبين
 يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين إنك النور المبين من آله العالمين
 ١٧- سببت مجداً أكيداً عند رب العالمين
 صرت روحاً سرمدياً فوق عقل الغافلين
 يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين إنك النور المبين من آله العالمين
 ١٨- صرت مجداً أبدياً صرت نوراً أزلياً
 صرت نبراساً قوياً يا إمام المتقين
 يا أمير المؤمنين يا إمام المتقين إنك النور المبين من آله العالمين
 أخبرني أحد الأخوة ممن حضر الصلاة والخطبة والظبية: (عندما
 ابتدأ السيد الشهيد قدس سره قصيدته (الظبية) ردد لوحده لثلاث مرات تقريباً
 إذا لم يكن أكثر من فقرات الشعر المكتوبة حتى اعتاد الجمهور على
 ترديدها بشكل منسق ولطيف) ... لأن أغلب الحضور هم من الجيلين الذين لم
 يعتادوا ممارسة هذا اللون من الشعائر الحسينية بفعل عامل تغيب السلطة له.



خامساً: الصدر (الثاني) والفن التشكيلي

بقي الفن التشكيلي أشبه بالمحذور في العرف الاجتماعي طالما لم تكن هناك مساح فقهية واضحة المعالم حول هذا الفن أو بعبارة أخرى لم تكن هناك تنظيرات فكرية فقهية لتوضيح وتحديد معالم الحرمة الشرعية والجواز الشرعي، بصورة مفصلة تغني المعني بمعرفة الأطر والمحدودية الشرعية فيما لو استثنينا ذلك من ذلك بعض الفتاوى التي استنطقت آراء الفقهاء، هذا أولاً، ومن ثم لم تكن هناك سابقة بادرة من قبل الحوزة العلمية في الاهتمام بهذا اللون الفني، وهذه حقيقة لم يختلف عليها إثنان ويؤكدها السيد الشهيد (عدم وجود حافز ديني لهم للعمل لإبراز طاقاتهم وقابلياتهم لأن المسلك التقليدي للحوزة وهو السكوت والأعراض عن المجتمع، هذا المسلك لا يهتم بذلك كما هو واضح وإنا لله وإنا إليه راجعون)^(١).

السيد محمد الصدر رحمته الله هو أول من بادر في توظيف هذا الفن في مشروعه الإصلاحية انطلاقاً من رؤيته في توظيف كل الطاقات لخدمة المشروع وضمن محدودية وإطار الشارع المقدس - سيما وأن هذا الفن له رواده وبشكل كبير داخل المجتمع العراقي فحاول انتشال رواد هذا الفن من مغبة التوظيف المحرم لهذه الطاقة الإبداعية والحضارية في الوقت نفسه إلى توظيفهم بما يخدم الإسلام وحرارة النهضة، واستثمار هذا اللون في مسار التغيير الذي يطمح له السيد محمد الصدر في ساعة قد يشاء الله أن يأخذ

بيده، فاهتمامه **فَذَرَّ** بهذا اللون من الفن والذي بطبيعة الحال يندرج في سلم المجال الإعلامي، وهو العارف **فَذَرَّ** بأهمية الإعلام كسلاح وسلطة جعلها وسيلة فاعلة ومؤثرة في نشر معالم نهضته الحقّة.

ولذا نرى في الخطبة الأولى له **فَذَرَّ** من صلاة الجمعة رقم (٢٦) ... قبل الخطبة شيء أود أن أبينّه لكم بسيط ليس سياسي^(١)، لأن الجمعة الأتية إن شاء الله هو الذكرى الأولى لإقامة صلاة الجمعة في وسط العراق وجنوبه، فيحسن على من يستطع منكم من أهل الفن والاختصاص أن يجعل لنا ويفكر لنا بوجود مجسمة رمزية تمثل صلاة الجمعة.

أولاً: أن تكون فيها جهة دينية وليس فيها عصيان للتعاليم الدينية من قبيل مجسمة ذوات الأرواح مثلاً.

ثانياً: أن يكون تجسيماً بالذوق الحديث وليس بالذوق القديم.

ثالثاً: إنا نعطي جائزة على ثلاثة من الفائزين الأول في مثل هذه المسابقة، ونقبل الاعمال من الآن إلى نهاية شهر رجب إن شاء الله تعالى شأنه العزيز.

ثم في بداية الخطبة الأولى من صلاة الجمعة رقم (٣١) يقول **فَذَرَّ**:
أولاً: بودّي أن أعلن تمديد مدة المسابقة لأجل صنع النصب الذي يمثل

(١) لاحظ تركيزاته **فَذَرَّ** حول عدم التدخل السياسي في خطبه خلال الأشهر ؟؟؟؟

الأولى، وهذا يؤكد لنا أنه صاحب منهج ومسار مرسوم في توعية الأمة قبل الخوض بالمواجهة مع النظام.



صلاة الجمعة كما طلبنا من قبل مدة، أنا كنت وضعته إلى آخر رجب والآن يبقى منتظراً إلى نصف شعبان إن شاء الله تعالى.

لاحظ ما يشترط فيه السيد محمد الصدر، على أن تكون المجسمة الرمزية مع ما يجوّزه الشارع المقدس ... وهو يتغي من ذلك ممارسة هذا اللون ضمن ما تسمح به التعاليم الدينية فأرادها أن تكون عملية تمرين وتدريب لرواد هذا الفن في التوجه الاصلاحى الجديد، وهذه الدعوة - بلا شك - تتضمن سحب البساط ممن وجه ويوجه هؤلاء الرواد للاستثمار السىء الذي يطمح له النظام خلاف حكم الشريعة.

وأيضاً مما يُدهش أن الرجل ذَئِبٌ لم يقتصر على القديم وما اعتاد عليه الآخرون من القدم، بل كان ينبئ في دعوته إلى روح المعاصرة والتطلع والتجديد ومع ما تتطلبه حركة الزمن والتغيرات الذوقية المصاحبة له فيدعو إلى ذلك بالذوق الحديث وهي إشارة واضحة وتصريح يؤكد لفهم الدين مع حركة الزمن، وخلوده السرمدى.

أما في دعوته الثالثة - بإعطاء جائزة - فهو قد كسر طوقاً، أو أشبه بما تكون سنة أختلقها البعض من رجال الدين مفادها (أعمل وأجرك على الله) انطلاقاً من فكرة الاحتكار والاستبداد اللذين يستطيع من خلالهما البعض التنظير والتخريج في استنزاف طاقات الآخرين، دون إعطاء حقوقهم المشروعة تدرعاً بأن الله هو المجزي المحسن لهذه الجهود!!

ولا تخفى المئات من المصاديق في ساحتنا الإسلامية المعارضة التي مارست هذا الأسلوب مع المستضعفين الصادقين في الوقت الذي أصبح

البعض من رؤوساء المؤسسات من أثرياء التجار!!

فالسيد محمد الصدر رحمته الله جسد حديث الرسول صلى الله عليه وآله (اعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه) فلم يمارس أسلوب المخارجة والتحايل على النصوص، بل اتسم بالصدق والأخلاص حتى نُعت بالسذاجة والبساطة لأنهم لم يجدوا في سيرته غير هذه الدعابة التي أطلقها الناكون على سيده أمير المؤمنين عليه السلام من قبل.

ولكن أمام هذا الرجل المارد المخلص الصادق المرجع التقي القائد المجاهد من يستطيع من الفائزين أن تسول له نفسه في طلب استحقاقه وأتعبه من هذا الرجل؟ ولكن تعلمي الرغبة طمعاً في التبرك بما تجود به يد هذا الرجل المقدس رحمته الله.

وبعد أكثر من شهرين يؤكد رحمته الله في نهاية الخطبة الثانية من صلاة الجمعة رقم (٣٤) قائلاً: إننا ينبغي في نهاية الخطبة أن نشير إلى موضوع لا يخلو من الأهمية، وهو أن المؤمنين جزاهم الله خير المحسنين استجابوا للدعوة التي وجهتها لإنجاز مجسم أو نصب يرمز إلى صلاة الجمعة وقد وصلتنا كثيراً من هذه الصور والنصب وهذه بشارة خير، هذه الاستجابة بشارة خير تدل على الحق والصلاح من عدة جهات أهمها أثنان من جهة العلة ومن جهة المعلول.

أما من جهة العلة والسبب: فلوضوح همتهم في ذلك ورغبتهم إليه وتحمسهم له لأنهم يجدون فيه خدمة الدين والنفع لشريعة سيد المرسلين وشعيرة من شعائر المذهب جزاهم الله خير المحسنين.



وأما من جهة المعلول: فقد ظهر بوضوح ما كان خافياً على الكثيرين وهو وجود طاقات مخزونة لدى الكثير من الأفراد تحتاج في إنجازها وتفجيرها والاستفادة منها إلى فرصة متاحة وبمجرد أن اتبحت هذه الفرصة بادر المؤمنون بإبراز قابلياتهم ومقدوراتهم في هذا الصدد وبالتأكيد فإن في المجتمع طاقات مخزونة في كثير من الجهات والاختصاصات كل ما في الأمر إنها لم تكن تستغل في مصلحة الدين وإنما هي مقتصرة لمصالح الدنيا مع شديد الأسف والسبب الرئيسي في ذلك مضافاً إلى صعوبة الوقت كما يعبرون عدم وجود حافز ديني لهم للعمل لإبراز طاقاتهم وقابلياتهم لأن المسلك التقليدي للحوزة وهو السكوت والإعراض عن المجتمع، هذا المسلك لا يهتم بذكر كما هو واضح وإنا لله وإنا إليه راجعون.

والآن ينبغي إعلان أمرين ...

الأمر الأول: أنه سيكون المعرض لهذه النصب في مدرسة البغدادي التي هي محل دراسة جامعة الصدر الدينية ويستمر المعرض من اليوم السادس عشر من شهر شعبان الحالي - (أي بكرة ليلاً) - يوم السبت ليلاً إلى يوم الخامس عشر من شهر رمضان إذا بقيت الحياة (لاحظ شعوره بالخطر) وإن ذهب الحياة فسوق أذهب وضميري مرتاح ويكفي أنه في موتي شفوة وفرح لإسرائيل وأمريكا وهذا غاية الفخر في الدنيا والآخرة (وهنا يحل بكاء شديد من قبل الجمهور وهو دليل التفاعل بين القائد والأمة)، رجاء، رجاء...، والدعوة عامة للجميع لمشاهدة المعرض في الساعات المحددة له وإذا أراد بعض الفنانين المشاركين في إنجاز هذا النصب والذين أتوا بها

إلينا وسلموها مع الحضور في هذه المعرض لإيضاح أفكارهم للآخرين فأهلاً وسهلاً بهم.

الأمر الثاني: إننا نجعل مسابقة جديدة ومضمونها بسيط وهو نظم قصيدة شعرية بمناسبة شهر رمضان المبارك وصومه وعبادته في الشروط التالية:

١- أن تكون اللغة الفصيحة لا العامية.

٢- أن لا تقل عن عشرة أبيات ولا حد لأكثرها.

٣- أن تقدم إلينا من الآن إلى آخر شهر رمضان في عيد الفطر.

٤- أن لا يكون فيها اسم السيد محمد الصدر اطلاقاً^(١) وإنما نعطي

للفائزين الخمسة الأوائل جوائز للتبرك بعونه سبحانه وتعالى^(٢).



(١) لاحظ نكران الذات أمام ما يطمح له من إصلاح - مع ثمة فارق أيها القارئ بين

من يطمح لإصلاح الأمة بإلغاء ذاته وبين من يطمح في نفخ ذاته إزاء تعاسة الأمة.

(٢) أنظر فصل التصوير في موسوعته الفقهية (ما وراء الفقه) الجزء الثالث، ص ١٣٦،

ولغاية ١٤٥، فقد أفرد السيد هذا الفصل واضعاً فيه كل مشخصات الحرمة والحلية

على الشكل المجسم وما يتعلق بالفن التشكيلي عموماً.

السيد الشهيد
محمد محمد صادق الصدر
قراءة في الفكر والمنهج

الدكتور ضياء نجم الأسدي
قسم التنمية الدولية
كلية السياسة العامة، جامعة برمنغهام

السيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر

قراءة في الفكر والمنهج^(١)

المقدمة



في بحث لم ينشر كتيبه عام ٢٠٠٤ م^(٢) تحدثت عن المدرسة الصدرية^(٣) وكيف انها تشكل جانبا مهما من الملامح السياسية والاجتماعية والفكرية للعراق الجديد. وهذه الرؤية لم تكن تنبوءا أو محاولة لاستكناه المستقبل اكثر منها تحليلا لمعطيات واقعية أفرزتها حركة

(١) مالم تتم الإشارة بشكل واضح الى أن عبارة ما، أو رأي ما هو من عند السيد الصدر مباشرة أو نقلا عنه، فإن جميع الأفكار الواردة في هذا البحث هي قراءات للباحث في فكر السيد الشهيد بناء على معطيات وقرائن معينة.

(٢) ضياء نجم الأسدي، الاختبار العراقي والخيارات الصعبة، ٢٠٠٤، البصرة.

(٣) إنني لأرجو أن يشجع استخدام هذا المصطلح بدلا عن التيار الصدري أو الخط الصدري أو الظاهرة الصدرية، فمفهوم المدرسة الصدرية يعبر عن التقليد الراسخ الذي أسسه الشهيدان الصدرين في العراق (وحتى السيد المغيب موسى الصدر) ويستلزم الديمومة والاستمرار، فضلا عن المنهجية والأصالة والعلمية والتضحية التي تميزت بها هذه المدرسة.

السيدان الشهيدان محمد باقر الصدر ومحمد محمد صادق الصدر على مر عقدين ونيف من الزمن. ولئن كان لكل من المفكرين الشهيدان ظروفه وسياقه التاريخي ورؤيته ومنهجيته الخاصة لكنهما كانا معا يشكلان زحما واحدا يمتد مستقيما مستطيلا ليتصل بمسيرة الأنبياء والمصلحين ويتأسس على جوهر الرسالة المحمدية والنهج العلوي الذي إتبعه أهل البيت عليهم السلام وينطلق صوب مستقبل الفتح المبين على يدي المصلح الأكبر الذي تصبو إليه البشرية المستضعفة المضطهدة المؤمنة بالله وبعدالة السماء وبقضيتها الكبرى.

وهكذا فكلا العملاقين يقف شاخصا في درب المؤمنين المكودين الكادحين كعلامة طريق دالة وفنار يهدي العابرين ليجوزا بهم طريق الآلام الى سبل السلام والفلاح. وكلاهما يأخذ بيد من شاء ليضعها قدميه على درب منقذ البشرية وقائدها الإمام المهدي عليه السلام. ولأجل كل هذه الرسالة الجسيمة إختار الرجلان نهج الحسين ليكونا بعين الله قربانا للحق والعدل فيرتفعا الى الله راضيين مرضيين مستبشرين بما قدمت أيديهما وبما سعيها له جزاء وافقا.

وهكذا كانت الرسالة المحمدية العظيمة قاعدة لانطلاقهما، والدولة المهديوية العادلة هدفهما، والثورة الحسينية الخلافة وقودا ومحركا لثورتها. فمن محمد صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت الأطهار الفكر واليقين ومن الحسين عليه السلام الثبات والجود وإدامة الرسالة ومن المهدي عليه السلام الهمة والثقة ووضوح الهدف وسمو الغاية. وفوق كل ذلك كانت الثقة بالله واليقين بالمبدأ الأطار الفكري والروحي لكل حراكهما النضالي.

المدرسة الصدرية: لماذا الهدف والمنهج؟

ذكرت آنفاً أن السياقات التاريخية والاجتماعية والسياسية بكل أبعادها كانت مختلفة في حركة السيد الشهيد الثاني عنها في حركة السيد الشهيد الأول. وفي هذا البحث سأحاول تسليط الضوء على بعض جوانب حركة السيد الشهيد الثاني التي أعتقد أنها لعبت دوراً كبيراً في تشكيل مانسمة اليوم بالمدرسة الصدرية.



السياق التاريخي والاجتماعي والسياسي والفكري لحركة السيد الشهيد الثاني

المتبع لظهور السيد محمد محمد صادق الصدر على الساحة العراقية بما يمكن أن نطلق عليه المرحلة التأسيسية لحركته الإصلاحية سيرى أن عام ١٩٩٢ يؤشر بداية النشاط الفكري والسياسي للسيد الشهيد مترامناً مع ظهوره على الساحة العراقية بوصفه مرجع تقليد جامع للشرائط ثم زعيماً للحوزة العلمية. ولكن هذا لا يعني أن الشهيد الصدر الثاني كان خاملاً على الصعيد الفكري قبل هذا التاريخ. بل أن معظم نتاجه الفكري كان إما مطبوعاً سلفاً أو جاهزاً للطبع أو مختمراً في البال ينتظر الكتابة والنشر. فمما يستفاد من بعض اللقاءات الصوتية والفيديوية معه قدس الله نفسه يتبين أن التقية المكثفة التي كان يمارسها مكرهاً حالت دون قدرته على الإفصاح عن مشروعه التغييرى ورغبته الملحة في الإصلاح الدينى والاجتماعى منذ البداية.

وهناك سبب آخر جعل من المشروع برمته أمراً مستحيلاً ما لم ترفع

السلطة الغاشمة في حينها القيود عن الرجل وفكره. و السبب هو أن مشروع السيد الشهيد محمد الصدر مؤسس على مشروع السيد الشهيد محمد باقر الصدر ومكمل له، وهو أيضا يستفيد من التجربة الثورية للإمام الخميني والخوض في كلا الأمرين أو التويه لهما يعد من موجبات التصفية الفورية لدى سلطة البعث. لذلك كان مشروع السيد الشهيد دائم التأجيل حتى حانت لحظة الحقيقة و شاء الله أن يدق نظام البعث مسمار نعشه الأخير بيد السيد الشهيد الثاني.

أما العزلة الاجتماعية التي فرضها عليه النظام الحوزوي لسبب أو لآخر فقد كانت مما يمكن التعاطي معه على الرغم من ثقلها عليه ورسوخها ضمن النظام المتوارث واستدعائها لجهد إضافي وطاقة عالية كان السيد الشهيد أحوج ما يكون لتوفيرها واستخدامها في مجالاتها المناسبة. ولنضع كل ذلك في سياقه التاريخي ينبغي لنا أن نذكر الأحداث الكبرى في حينها والتي أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر على تشكيل الحركة الصدرية الثانية.

حرب الخليج الأولى

بعد اجتياح صدام للكويت وإخراجه منها وانكسار الجيش العراقي الذي كان معظم قادته وأفراده لا يعلمون لماذا يقاتلون وماهي استراتيجية الحرب التي يخوضونها، انتفض شيعة العراق والساكين في المحافظات الجنوبية بدءا ليسقطوا نظام الحكم الصدامي. ولكنهم لم تكن لديهم أية خيارات بديلة في حالة إسقاط الحكم البعثي وكانوا يعلقون الآمال على

قوات بدر والمعارضة العراقية في إيران بقيادة السيد الشهيد محمد باقر الحكيم، أو أي دعم ممكن من أي جهة أخرى. وعلى الرغم من أن بعض الفصائل المعارضة قد دخلت بالفعل لنصرة الثائرين وإمدادهم بالمعونات كالغذاء والعتاد إلا أن أي دخول رسمي لقوات عسكرية عن طريق إيران كان شبه مستحيل لإسباب تتعلق بالقوانين والاتفاقيات وبالوضع العام الذي لم يكن يتيح لإيران باعتبارها الدولة المضيفة للمعارضة العراقية آتئذ أو للمعارضة بشكلها الرسمي أن تدخل الأراضي العراقية لتسقط النظام الحاكم. والأهم من ذلك أن الرؤية لدى الأيرانيين كانت أوضح منها لدى الثائرين من مظلومي العراق. فقد كان جليا أن أمريكا لم تكن عازمة على تغيير النظام كعزمها على إخراجه من الكويت وهدم قوة العراق العسكرية والاقتصادية والبشرية.



وهذه النكسة النفسية مضافا لها انتكاسات أخرى على مدى حكم صدام والحرقة والألم الكبيرين الذين خلفهما اغتيال الشهيد محمد باقر الصدر وشقيقته المفكرة الشهيدة بنت الهدى، وما سيلي هذه المرحلة وماسبقها من ظلم وقمع وتهميش اختص به الشيعة دون سواهم، جعلت المجتمع العراقي يتطلع بألم وأمل لنوبة أخرى تلوح فيها تبشير الخلاص.

وضع نظام صدام داخليا واقليميا وعالميا

في ظل العقوبات التي فرضت شكلا على نظام صدام ولكنها في حقيقتها ومضمونها كانت قد فرضت على الشعب العراقي وتحت وطأة العزلة الدولية والتداعي السياسي لنظام البعث، بدأت الولايات المتحدة

تؤيدها في ذلك الكثير من دول المنطقة في التفكير بالإطاحة بنظام البعث. ولكن عدم وجود البديل المقنع الذي كانت أمريكا تبحث عنه والذي سيكون موضع ترحيب أيضا لحلفائها في المنطقة جعل من الإبقاء على نظام البعث حتى إشعار آخر وسيلة أخرى لاستتالة عذابات معظم العراقيين ولشعور النظام بقوته وتماديه في غطرسته. فبدأ صدام يعيد حساباته بجدية في مسألة الولاءات وحاول أن يتخلص من مصادر القلق فعمد الى أولها وهو مؤسسة الشيعة وكيانهم، الحوزة العلمية في النجف الأشرف.

الوضع المتأزم في الحوزة العلمية

الحوزة العلمية بوصفها مؤسسة مستقلة في منهجها ومواردها المالية وعلومها ونظامها لم تكن ابدا تروق لنظام البعث، وفي الحقيقة قد نجح ذلك النظام الى حد بعيد في تحجيم دورها وتهميشه وكان يطمح الى الغاء ذلك الدور جملة وتفصيلا وتحويلها الى مكان تعليمي يقع تحت إشراف الدولة بشكل غير مباشر. وقد رأى صدام كيف أن علماء الدين الشيعة قد رفعوا أيديهم عن المتفضين على حكمه في ما يسمى بالثورة الشعبانية الأولى عام ١٩٩١ بل وساعدوهم بالفتيا والتوجيه والموازرة، فأيقن أن بقاء العلماء الثوريين هو الخطر الذي ينبغي الخلاص منه. لذا كان يريد أن يشغل أقطاب المؤسسة الدينية ببعضهم البعض، وأراد أن يري العراقيين والعالم بأنه ليس ضد الشيعة وأنه يريد تمييز العراقيين العرب عن غيرهم. وهذا مكر كان نظام البعث يمكنه لدوافع طائفية ونفسية وظفها النظام طيلة سني حكمه للتخلص من عقدة شيعة العراق لديه.

فكان السماح للسيد الشهيد الصدر بزعامه الحوزة العلمية وإدارة شؤونها تكتيكا للقضاء على المؤسسة الدينية بمن فيها. وقد خلق هذا التسامح مع السيد الشهيد إرباكا واضحا ليس لدى عامة الناس وبسطاتهم فحسب بل حتى لدى العلماء الذين عرفوا السيد الشهيد تلميذا في حوزة النجف ثم فقيها ومجتهدا. وسأعرض عن ذكر المزيد من التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع لورودها في مقابلات السيد الشهيد ولقاءاته وإجاباته على الاستفتاءات. وما يعني عن كل ذلك قوله البليغة "أرادوني جسرا ليعبروا علي فجعلتهم جسرا لأعبر عليهم"^(١).

التحديات التي واجهت المشروع الاصلاحى للسيد الشهيد

من أعقد وأصعب مهام الإنسان العالم العامل هي أن يضع علمه على المحك ويعمل على تطبيق ما يؤمن به ويحاول أن يغير المجتمع على وفق ما يراه صحيحا. وهذه المهمة هي مما تنوء به العصابة أولو القوة لأنها من مهام الأنبياء والأولياء والمصلحين الجسيمة والتي لا تنتهي للناس إلا لماما ولا تقع في مسيرة التاريخ إلا في فترات متباعدة. ولنا أن نتخيل كيف أن الأفكار الكبرى التي تحكم عالم اليوم لم تكن لتصل الى ما هي عليه لولا تبنيتها من قبل المؤسسات التعليمية وإشباعها بحثا ودراسة وتوالي السنوات عليها حتى تستقر على ماهي عليه من قبول أو رفض. وهي مع كل ذلك

(١) وردت بعض التفاصيل في بحثنا الموسوم الاختبار العراقي والخيارات الصعبة



تبقى متداولة في أطرها الاكاديمية والعلمية.

ولنأخذ مثلا النجاح العريض الذي حققته الماركسية بوصفها فلسفة ورؤية للعالم ومدرسة للفكر النقدي ومرتكزا لفهم حركة التاريخ لدى الماركسيين، حتى أن الكثير من المفاهيم التي قدمتها الماركسية أصبحت اليوم من جملة المسلمات العلمية المقبولة لدى أوساط المثقفين والأكاديميين. ولكن بعيدا عن الجانب الثوري في الماركسية والدعوة الى المساواة بين الكادحين والقضاء على التمييز الطبقي، فهل يشعر الإنسان البسيط في حياته اليومية بأنه يمارس فعلا ماركسيا أو أنه يتبع مفهوما ماركسيا في فهمه للعالم؟

إن الواقع موجود بصرف النظر عن كيفية وصفه. وما أرادته ماركس والكثيرون ممن على شاكلته هو تغيير الواقع بما يتلائم مع الفكر الذي أنتجوه. فإلى أي مدى نجحوا في ذلك؟ يرى توماس كون في كتابه الشهير (بنية الثورات العلمية)^(١) أن نجاح نظرية ما مرهون بعدد متبعي تلك النظرية، وبقدرتها على الإجابة عن التساؤلات التي تثار في مجالها، ولو أحصينا النجاح الذي حققته الماركسية بما توفر لها من زمن وعوامل مساعدة أخرى كالمؤسسات التي تبنتها والدراسات التي كسبت حولها وقارنا كل ذلك بالنجاح الذي حققه السيد الشهيد الصدر بمجهود فردي وبإمكانات أريد

(١) Kuhn, Thomas, ١٩٦٢. The Structure of Scientific Revolutions. Chicago; London: (١)

أن أسميها خرافية (رغم تحفظي على الكلمة)^(١) لوجدنا أن السيد الشهيد إن لم يكن قد فاق نجاح الماركسية في زمن قياسي فإنه لم يقصر عنها. والنجاح الذي نقصده هنا هو القدرة على التغيير بأدوات بسيطة وإمكانات أبسط.

وللأسف الشديد بقي هذا النجاح مقصوراً على العراق وقاعدته الجماهيرية من أتباع مذهب أهل البيت بشكل خاص. فنحن لا نتوقع أن يحقق أي فكر شيعي إمامي مهما كان أصيلاً ومتفرداً أي نجاح كبير في العالم الإسلامي وذلك للتجزؤ الواضح من لدن إخواننا من السنة لكتابهم ومفكرهم وتجاهلهم لمفكري مدرسة أهل البيت. ففي الوقت الذي يطلق فيه أحد باحثي الغرب على السيد الشهيد محمد باقر الصدر آدم سميث



(١) يتحدث السيد الشهيد بصراحة المعهودة والمحزنة لمن يتأملها عن إمكاناته الاقتصادية والنفسية والاجتماعية التي يكب في ظلها بحوثه ودراساته وسيأتي في متن هذا البحث بعض الأمثلة عن تلك الإمكانيات. وعنه قدس سره نقل لي مباشرة أحد تلاميذه مامعناه أنه قال لو أن ما أتيح لأينشتين من إمكانات مادية ومعنوية قد أتيح له لجاء بالعجب العجاب. وفي أجوبته على استفتاءات أرسلتها إليه في عام ١٩٩٤، وفي أحد اللقاءات التي تشرفت فيها بالحديث معه في عام ١٩٩٧ حول مسائل علمية وأخرى خاصة ذكر ما معناه أنه قادر على مناقشة العديد مما يعتبر من المسلمات العلمية الآن، من قبيل تعريف المادة، والنظرية النسبية، وبعض المبادئ الأساسية التي يقوم عليها الفكر الغربي، ولكنه قدس سره كان يكتم ذلك لأن الأولويات كانت تحتم عليه المبادرة إلى الأولى فالأولى، وما كان يمارسه من تقيية في عدم الحاجة إلى كشف مرتكزات حركته منذ البداية.

عصره^(١) نرى الكثير من الدراسات الاقتصادية المكتوبة بعد كتابه الضخم 'اقتصادنا' تتغافل حتى عن الاشارة اليه ضمن مصادرها أو مناقشته بأي شكل من الاشكال. على الرغم من أن هذا الكتاب هو فتح مبین في مجال النظرية الاقتصادية عامة والإسلامية خاصة وهو انتصار للقرآن وللإسلام وللمسلمين لما يؤكد من أن القرآن الكريم والإسلام بشكل عام هما مصدران أساسيان لكل العلوم الإسلامية وهما قادران على قيادة الحياة بكل مرافقها.

المؤسسة الدينية

مشكلة السيد الشهيد الصدر مع المؤسسة الدينية تتجلى في أمرين:

١- أولهما نفسه كشخص وعالم أحس بضرورة التجديد والتغيير في مرحلة تاريخية مهمة. وما كان يحوم حوله من شبهات كالطعن في علميته مرة وفي عدالته تارة.

٢- ثانيهما مشروعه التغييرى والمنهج الذى تبناه والذي يستدعى إلى الأذهان مشروع استاذة محمد باقر الصدر وما لاقاه من ردود فعل متباينة وإشكالات لم تحل حتى هذه اللحظة.

وفي كلا الحالين يرجع الإشكال إليه شخصيا لماذا هو؟ ولماذا الآن؟ وما المطلوب؟ وما الفائدة؟ ومن الضامن؟ وهل ستحقق المصلحة؟ وقائمة

(١) Pfeifer, Karen. ١٩٩٧ Is there an Islamic Economics? In Benjamin, J. & Stork, J.,

طويلة من الاشكالات التي لم يشأ السيد الشهيد أن يتناولها إلا بقدر ما يتوقف عليه توضيح أهداف حركته. ولكنه مع ذلك لم يترك سؤالاً واحداً يعتقد أنه جوهرى وحيوي لقضيته ولفهم الناس إلا وأجاب عليه بكل وضوح وجرأة. وهذا الوضوح وتلك الجرأة هما اللذان أحدثا ما ظنه الصديرون من أتباعه الحد الفاصل بين الصدر ومن خالفه مهما كانوا وأيا كانوا.



ولئن كانت المفاهيم التي طرحها كالحوزة الناطقة والحوزة الصامتة أو الحوزة التقليدية والحوزة العاملة أو المجددة الغرض منها التمييز والتعريف فقد ذهب أتباعه أبعد من ذلك وأخذوا يشنعون على مخالفيه في الرأي ومناوئيه في المواقف ويكيلون لهم شتى الإتهامات مما أنعكس سلباً في بعض الأحيان على ماأراده السيد الشهيد من منهج إقامة الحجة والدليل والدعوة لما فيه المصلحة باحسن الطرق وأنجعها. لكنه لم يكن لديه الوقت الكافي لمراجعة تلك الاشكالات الناجمة عن اندفاع مريديه الذين توسموا فيه خلاصهم المرتقب وكانوا ينظرون لكل ما يعطل حركته نظرة ريبة بل وأكثر من ذلك كانوا يحاولون تذليل جميع تلك العقبات الماثلة أمام قائدهم بشتى الوسائل مهما وخمت عواقبها.

السلطة البعثية

كان السيد الصدر الثاني يعي تخوم المنطقة المحرمة والخطوط الحمراء التي لا يمكن تجاوزها لدى نظام البعث وكان يحاول تكيف حجم

حركة التفسير ذات الحضور الضخم والأثر العريض ضمن تلك التخوم. غير أن الثورة أصبحت أقوى من أن تحدها حدود النظام، والتعاطف الجماهيري تجاوز في واقعه كل حسابات النظام. ومن حضر الجمعة الشعبانية التي دعا إليها الشهيد الصدر جميع من استطاع من اتباعه لا بد وأن شاهد بعض المسؤولين في النظام الذين كانوا يترددون على باب مسجد الكوفة من جهة الغرب وهم يضطربون إضطراب الإرشية في مراتبها لا تفصح وجوههم إلا عن قلق وغم من هول ما يرون. بدأ الرجل يصلي وحيدا وقد كان حيس داره ردحا من الزمن، وهاهو اليوم يقف خطيبا في مئات الآلاف جلهم من الشباب المتحمس الذي يعي ما يفعل ويعرف ماذا يعني أن يهتف مثل هذا الجمع بحياة رجل من آل الصدر في بلد رئيسه صدام حسين.

الوضع الأقليمي و السياسة الخارجية الأمريكية

إن الحرب المريرة التي كانت تستعر مع الجارة إيران على مدى ثمان سنوات كان معظم وقودها من الشيعة من كلا الطرفين وهذا يفسر حرص دول الجوار على إدامتها حتى تستنزف كلا الطرفين. وهذا لم يعد سرا بعد أن كشفت المصادر الأمريكية وبعض المصادر العالمية عن تلك الرغبة لدى الحكومة الأمريكية وقتئذ. وماتريده الحكومة الأمريكية لا بد وأن تريده الكثير من الحكومات العربية^(١). فمن يريد دولة في العراق يحكمها

(١) لكن يجب الفصل بين ما تريده الحكومات وماتريده الشعوب. فليس من الخافي أن الشعوب العربية والاسلامية على اختلاف مشاربها كانت تتألم لتلك الحرب التي

الأغلبية الشيعية؟ ومن يطبق أن تكون الحكومة إسلامية ثورية؟ هذا الفهم هو أحد المعوقات التي لا بد وأن تكون قد امتلأت أمام السيد الشهيد في طموحه لتأسيس دولة إسلامية تقوم على مذهب أهل البيت. ولكن من المؤكد أن رهان السيد الصدر لم يكن على أحد سوى الله وقاعدته من الجماهير المؤمنة به. وهذا إن لم يبدو كافيا في نظر الكثيرين إلا إنه كان أكثر من الكفاية وزيادة لدى السيد الشهيد ومن يستمع لخطبه ومقابلاته سيجد ذلك واضحا دون أدنى لبس.



العوامل المالية، والتراكمات الاجتماعية و الوضع المؤسسي داخل الحوزة العلمية

لقد كانت الإستقلالية الإقتصادية للحوزة العلمية سببا رئيسا في ديمومتها وبقائها رغم ما عتور مسيرتها من قمع واضطهاد لعلمائها ورموزها. ومن المظاهر الرئيسية لقوة عالم ما وقدرته الواسعة على التصدي لمراكز القيادة الدينية في الحوزات الشيعية هو المظهر المادي متمثلا بالضرورة بحجم القاعدة التي تقلده وتؤدي عن طريقه حقوقها الشرعية. فليس العلم

قوضت أو كادت كياني الدولتين. ولكن معظم الحكومات العربية للأسف الشديد كانت تتعامل مع القضية بكل براغماتية وانعدام ضمير. فمن الحكومات من كان يدفع بالعراق ليقا تل بالنيابة عنه ليصرف أحمادا دينة أو مواقف طائفية، وبعضها كان يريد الفصاص من الشعب العراقي ويريد التريخ من معاناته ومآسيه وبعضها كان يتملق أمريكا وصدام للحصول على الدعم والمنح.

والاجتهاد والورع والعدالة وغيرها من الصفات الضرورية للزعيم الديني هي وحدها ما يُمكنُ العالم من إحداث تغيير ما. فتاريخ الحوزة العلمية شاهد على ذلك وبالأخص تاريخها الحديث.

لقد مر على الحوزة العلمية فقهاء ومفكرين من الطراز الأول وربما تصدوا لجملة من العمليات الإصلاحية سواء أ داخل الحوزة أم خارجها، ولكن أثرهم لم يكن موازيا أو مساويا لجهدهم المعرفي والحركي لانعدام مصادر التأثير الأساسية وأولها الدعم الجماهيري والإمكانات المادية. ولنضرب على ذلك مثالين واضحين دون الحاجة إلى الإسهاب في توضيح ما أشرنا إليه.

الفقيه والفيلسوف والمجدد محمد رضا المظفر يعد واحدا من أعلام الشيعة في التاريخ المعاصر، وكانت مكانته العلمية مما لا يختلف عليه إثنان. وعلى الرغم من محاولاته الكثيرة وعمله الدؤوب من أجل إصلاح النظام الحوزوي وإحداث تغيير في واقعه حينذاك، منيت محاولاته بالإحباط ولم يبق له ومنه إلا الجهد العلمي. والمثال الصارخ الآخر يتجلى في مفكر العصر وشهيد العراق الأول السيد محمد باقر الصدر. فقامته العلمية السامقة وجهوده الجبارة ارتطمت مرارا بنمطية ورتابة لانهاية لها. ولولا دمه الفائر وقرار الشهادة الذي اتخذته عن علم وإصرار ويقين لكان حاله حال الشيخ المظفر. فالشيخ المظفر والشهيد الصدر الأول يشتركان في جانب ويختلفان

في جانب آخر. فكلاهما كان قليل الإمكانات المادية^(١) بيد أن المظفر قدم إلى الحوزة من الجنوب ليزاحم أسماء ومقامات قديمة الرسوخ في تلك الجامعة العتيقة. أما الشهيد الصدر الأول فجدوره تضرب عميقا في تلك المدرسة وله مقامه الاجتماعي ومكانته التي لا ينازعه فيها أحد. مع ذلك بقي التيار السائد والتراث المتراكم للنظام الحوزوي يشكل إحدى الصعوبات لمن كان يطلب التغيير من داخل المؤسسة ذاتها.



عندما عزم الشهيد الصدر الثاني على التصدي لقيادة المجتمع كان يعلم يقينا أن هناك أولويات وتراتيبات لا يمكن لمشروعه أن يكتب له النجاح دون أن يعالجها. والمعضلة المادية كانت إحدى أهم المعوقات التي كان مشروع الإصلاح لا يتم إلا من خلال حلها. فمن عرف السيد الشهيد محمد الصدر عن كذب يعرف أنه ابتدأ مرجعيته بنفر قليل من الاتباع^(٢) وانتهى به الأمر الى مئات الآف إن لم يكن الملايين من المقلدين.

فهل من المعقول أن المفكر الذي يعتمد على نظرية الاحتمالات والتحليل في منهجه العلمي لم يعمل بهما في منهجه الحركي؟ فلو أنه لم يكن على يقين من نتائج حركته وغاياتها لما أقدم على مثل هذه الخطوة المهولة التي يتجنب مثلها الكثيرون ممن أتيج لهم مالم يُتَّحِ عشرة للسيد الشهيد الصدر. فلقد أعاد فتح العديد من المدارس واستوعبت حوزته

(١) أقصد بها تلك الأمكانات التي توهله لقيادة حركته الإصلاحية دونما منغصات.

(٢) قال لي أحد طلبته المقربين أن أولى الصلوة التي كان يقيمها في برانيه كان يأتيه به إثنان أو ثلاثة من مريديه.

العديد من الطلبة الجدد وبدأت مدرسته بالاتساع في وقت قياسي وكل ذلك كان يتطلب إنفاق المال لإدامة الزخم المتنامي وبالواقع نفسه إن لم يكن بأفضل منه. وأعتقد أن الطريقة الناجحة التي أدار بها السيد الشهيد مدرسته ومرجعيته يجب أن تُحلَّل وتُدْرَس بوصفها واحدة من أنجح طرق إدارة المؤسسات في أوقات الأزمات وتحت شتى عوامل الضغط. وأخص الإدارة المالية والتنظيمية.

وقد المعنا سلفا الى التحدي الاجتماعي بوصفه أحد العوامل المثبطة التي تعترض طريق المرجع القيادي. فبمن يصل من يده جزاء؟ ولئن هدّ أمير المؤمنين إنفراط الناس من حوله وعصيانهم له إلا قليلا منهم فالشهير الصدر لا يبد وأن عاش هذه المعاناة وهو يسلك طريق أمير المؤمنين الموحش المقفر. فكان أن وضع ما يطلق عليه بالوجهة الاجتماعية والمفاهيم الأخرى التي كانت تشكل السواتر والموانع بين المرجع وأتباعه تحت قدميه وجرّد نفسه من جميع الهالات إلا تلك التي حباه إياها رب العالمين ومنها عشق الناس له، إذ رفعه الله بين الناس درجات بعدما تواضع لله.

اتذكر وأنا الذي عشت تلك اللحظات المفعممة بالأمل والألم^(١) كيف

(١) لله وللتاريخ أدعو كل من استطاع أن يوثق تلك اللحظات بأي شكل كان أن يبذل غاية المجهود في أن تبقى تلك الصفحات من تاريخ العراق ناصعة واضحة لا تكلف في توثيقها ولا زيف لإن مافيهما من الحق وإن قل كفيلا بدحض الباطل وإن كثر فقد كانت مفعممة بمظاهر التضامن والشجاعة والإيثار والرغبة في التغيير في زمن حالك كثير الظلم.

أن مناوئي الصدر كانوا يسخرون من هذا الكهل الذي يريد أن يطيح بالنظام بعصاه وكفته. وكيف أنهم استهاتوا باديء الأمر بالجمعة ومن يصلحها وكثير منهم كان يتوقع أنها إن استمرت فلن تتعدى الحول. وأتذكر كيف جهد بعض أصدقائي من دعاة الإيمان الى طبع واستنساخ كتيبات قديمة تنص على بطلان صلاة الجمعة في عصر الغيبة وبثها بين الناس ليعدلوا عن إتباع محمد الصدر. وقد كان ذلك يبدر منهم كما يقولون حرصا على الدين من الضياع والتخبط والبدع التي أوجدها محمد صادق الصدر بزعمهم. وهذا لم يكن تصرفا فرديا ينحصر في مكان من العراق دون غيره بل كان سلوكا جماعيا يرجع في موقفه الى تراث عريض تقادم وضرب أطنابه في المؤسسة الدينية وأضحى له مكانة مقدسة، فكأن نظام الحوزة العلمية قد نزل به الروح الأمين أو شرعه النبي الأكرم أو استحسنته المعصومون. وكأنه ليس نظاما أوجده علماء غيورون على الدين في مرحلة زمنية ما ويجب أن يتجدد بتجدد الزمان وتغير الظروف، وأن لا يقف عائقا بوجه الإصلاح والتغيير إن كانت المصلحة تترجى من ذلك الإصلاح وذلك التغيير.

الوضع الصحي والنفسي للسيد الشهيد

إن أعوام العزلة القسرية والرقابة الصارمة التي فرضتها السلطات البعثية على السيد الصدر وما خلفته فترة السجن والتعذيب من آثار سلبية على صحته ونفسيته لم تدخل اليأس والخنوع لنفسه وضميره بقدر ما أحدثت في كيانه من تصميم وعزم على نصرة الإسلام والحقيقة والدفاع عن المضطهدين المقموعين من أبناء العراق.



يعرف الكثيرون ما كان يعانيه السيد الشهيد من آثار تعذيب بقيت علامات واضحة على جسده يحملها معه شاهدا على قهره جلاليته واستمراره بصبره الأيوبي يصارع علامات الكهولة ومنغصات المرض ليلتقي في كل جمعة بأحبته كما عودهم، مجددا عهدته بأنه سيخوض غمار المواجهة على الرغم من كل شيء. وكان يرفض الحديث عن أسقامه لأنه يريد ثوابها من الله وحده. فقد أسقط في أيدي من يدعون إعتلالهم وكبرهم ليتجنبوا التصدي لقيادة الأمة بعدما ضرب محمد محمد صادق الصدر المثل في تجاوز كل تلك الاعذار. مع كل ذلك بقي الوضع الصحي والنفسي الذي خلفته التحديات الجسيمة وخذلان البعض غصة ما انفك الشهيد الصدر يعبر عنها بيده الممدودة للجميع وبدعوته لمن أراد أن يتقدم عليه فيأتم هو به.

الوضع الفكري و عامل الزمن

إن المفكر الذي يريد أن يؤسس توجهها جديدا أو أن يدشن فكرا غير مألوف يحتاج الى عمل متظافر وجهد تراكمي تتوفر فيه جميع الإمكانيات المادية والمعرفية فضلا عن النفسية. وحرارة السيد الشهيد بما تؤسسه من قطيعة مع التيار السائد ومانستمره من مدرسة السيد محمد باقر الصدر التي لم يُتَح لها التوسع والتمام كانت تواجه لحظة حرجة لأنها وضعت فكرا أصيلا غير مألوف على المحك وقيد التطبيق. فكان التحدي الأكبر أن تأتي بفكر جديد ومفيد تحتاجه المرحلة ويلبي حاجات المجتمع

الملحة ضمن محددات سياسية ومؤسسية لانتيج الكثير من الحرية ولا تعايش مع ما يخالفها. فمشروع السيد الصدر الفكري والثوري لم يكن متناسبا مع الوقت المتاح له مطلقا.

كان الشهيد الصدر يريد استكمال نظرية السيد محمد باقر الصدر بعد مناقشتها، وكان يريد أن يرسخ مشروعه التمهيدي في أذهان القاعدة الجماهيرية. وكان يريد أن يحول المجتمع الخائف المقموع التائه، الى مجتمع شجاع ناثر يعرف ماذا يريد والى أين يتجه، كل ذلك في فترة قياسية لا تتعدى الخمس سنوات. ومن المعروف أن من يشتغل بالفكر والتظير لن يجد متسعا في وقته بل وفي جميع موارده الذاتية والموضوعية ليقوم بتطبيق فكره ونظرياته التي آمن بها مع القاعدة الجماهيرية لا سيما إن كانت تلك الأفكار والنظريات كلية وشاملة وتمس حياة الناس في الصميم. ولم يكن السيد الشهيد مرتابا في يوم ما من أن نظام البطش البعثي سيحول بينه وبين كل ذلك. فقد كان يحمل كفه على كاهله معلنا عن استعداده لمواجهة الموت وترقبه للنهاية المحتومة.

الأهداف العامة لحركة السيد الشهيد

لا نستطيع في هذه اللحظة إلا أن نتحدث عن عموميات حركة السيد الشهيد الثاني في معظم أبعادها لأسباب منهجية وأخرى معرفية. ونتمنى أن يتاح الوقت للمزيد من الدراسات التفصيلية والبحوث المتخصصة في الجوانب الفكرية والحركية للمدرسة الصدرية.



ولا بأس في إجمال الأهداف العامة لحركة السيد الشهيد الصدر الثاني كما عشناها ولمسناها سواءً من خلال المعاشية اليومية، أم من خلال وسائل المعلومات المتاحة في ذلك الوقت كالاستفتاءات واللقاءات والكتابات المطبوعة، أو من خلال الاستنتاجات العقلية وهي متاحة للجميع بشرط البناء على مقدماتها العلمية الصحيحة.

١- تحرير العراق من الطاغية

لا يستطيع المرء أن يفكر أو أن ينتج أو أن يتقدم في ظل نظام سياسي جائر يهيمن على جميع الوسائل ويشغل الناس في كيفية البقاء على قيد الحياة فحسب. لقد أدرك السيد الشهيد أن التعايش مع نظام البعث هو ضرب من المستحيل وأن كرامة الإنسان العراقي كإنسان وكفرد مبدع يحمل تكليفاً شرعياً ومسؤولية تاريخية لا يمكن أن تُنجز في ظل هذا النظام. فمدار حركة السيد الشهيد هي الخلاص من سبب الدمار الذي لحق بالعراقيين وبلدهم على أيدي البعثيين وتأسيس حكومة عادلة تمثل طموحات العراقيين وتطلعاتهم.

٢- تحرير العراقيين من الصنمية والتحجر

المتأمل في مقولة السيد الشهيد "لقد حررتكم فلا تعودوا من بعدي عبداً سيدرك عمق المسؤولية التي كان السيد الشهيد يستشعرها تجاه العراقيين، وهي تحريرهم. ولكن تحريرهم من ماذا؟ لم يكن مشروع التحرير مشروعاً سياسياً فقط. أي بمعنى أنه محاولة لتخليص شعب من نظام

سياسي جائر. بل كان تحريرا فكريا واجتماعيا في المقام الأول. إتخذ هذا التحرير رمزية كبرى في تشنيع السيد الصدر على الذين يقبلون أيدي العلماء وعلى العلماء الذين يسمحون للناس بتقيل أيديهم. حتى أضحت تلك ظاهرة متأصلة في المجتمع الشيعي العراقي. ليس ذلك فقط، بل تحرير الناس من الشعور بالدونية، والتبعية اللاواعية لرجل ما أو فكر ما أو مؤسسة ما. وبدأ أول مابده بنفسه وفكره ومؤسته ووضع كل ذلك تحت مشارف النقد والتحليل.



لقد أهدى السيد الشهيد أئمن وأعظم هدية لإتباعه بل ولمسلمي العراق عموما وبالأخص الشيعة، أهدهم نعمة النقد والتحليل والتدبر في الأشياء وعدم أخذ الأمور على عواهنها. ولئن أساء البعض إستخدام إشتراطات النقد وآلياته فهذا ليس ذنب السيد الشهيد بل ذنب المسيئون. فهل نلوم الخالق الذي أعطى نعمة العقل لجميع البشر على الرغم من أن بعضهم يستخدم تلك النعمة في الفتك بالآخرين وإلغاء آدميتهم؟

لقد بدأ الإنسان البسيط الذي لم يكن له عهد بالإلتزام الديني يسأل عن قضايا تتعلق بعباداته وواجباته، وكان يحاول أن يفهم الاختلافات بين العلماء ويتبنى في بعض الأحيان مواقف يراها صحيحة ثم يحاول مناقشتها أو التراجع عنها أو تبنيها. وبالجملة، فقد قدحت حركة السيد الشهيد عند الكثيرين من أبناء المجتمع وعند الشباب خصوصا أسئلة جوهرية تتعلق بوجودهم وبوضعهم العام، لقد كانت تلك فرصة عظيمة لتأمل الذات وتكوين الوعي الأولي خاصة لمن لم تكن الحياة تعني لهم الشيء الكثير

في زمن صدام. وأنا أتذكر جيدا المرأة العجوز في منطقة القبلة في البصرة حينما سألتها أصدقاء ولدها الذين كانوا يقضون معه معظم أوقاتهم في التدخين والغيبة واللهو والفحش عن صديقهم، أجبتهم راح لصلاة الصكر. كانت تسمي السيد الشهيد الصدر "الصكر" وقالت أن ولدها ذهب ليحضر صلاة الصدر. فكم من هم على شاكلة ولدها ذهبوا لصلاة الصدر؟

٣- تأجيج الثورة في نفوس المستضعفين الطامحين لتغيير المجتمع

منذ تسلم حزب البعث السلطة في العراق في ستينيات القرن الماضي، أخذ الدين الإسلامي كعقيدة وكممارسات يومية بالتراجع والغياب عن حياة الناس اليومية، فانتشرت مظاهر السفور والخلاعة، وحل الفساد في جميع أوصال المجتمع حتى وصل الذروة في نهاية ثمانينيات القرن العشرين. ولا نقصد بالضرورة الفساد القيمي والأخلاقي، بل حتى الفساد المؤسساتي والمعرفي.

ونستطيع أن ندرك حجم ذلك الخراب بوسائل كثيرة هي من صميم البحث العلمي ويمكن الركون إليها والاعتماد عليها بوصفها بيانات بحثية (data) يمكن تحليلها لاثبات صحة ما ندعيه. فعلى الصعيد الاجتماعي والأخلاقي يمكن للصحف والمجلات والصور الملتقطة في ذلك الحين في الجامعات والمؤسسات الأخرى أن تدلنا على ما وصلت إليه ظاهرة السفور والتبرج^(١)، والخلاعة في بعض الأحيان. وبمراجعة سجلات الدوائر

(١) لا يدعو الباحث بأي شكل من الأشكال أن تمارس الدعوة للعفاف والألتزام

ومنهجية إنجاز المعاملات وطرق إدارة الدولة يمكن أن نستنتج أن النظام المؤسساتي كان منهاراً ومنخوراً من الداخل بآفات الفساد المالي والإداري والرشا والوساطة والمحسوبية. وفي مجال التعليم يمكننا أن نلاحظ أنهيار صرح التعليم في العراق، والذي كان يحظى بسمعة إقليمية وعالمية من خلال مراجعة البحوث والدراسات الأكاديمية التي رصفت بها رفوف المكتبات والمخازن دونما جدوى. ناهيك عن مقلدات العراق وموارده التي أستترفت من أجل ملذات حسنة من المعتمهين وشهواتهم ونزواتهم التي لاتحدها حدود. وتقارير الأمم المتحدة والمنظمات العالمية الإنمائية يمكن أن تصور لنا التراجع المهول لموارد العراق والأستنزاف الذي لحق بثرواته.

لا أدعي أن حركة السيد الشهيد قد حولت كل ذلك الركام إلى صرح حضاري متألق يخطف بسناه الأبصار، وما ينبغي لها أن تكون كذلك مع كل ما ذكرنا من ظروف وتحديات ومعوقات. لكننا هدف ذلك الحراك كان يتمركز حول بث الأمل في الفرد والمجتمع وإذكاء الهمة

بأساليب قسرية وعنيفة تفر الناس عن الدين الحنيف. ومن الخطر أيضاً أن يترك أمر الدعوة إلى الغلاظ الجفاة من الناس ممن لا يحسنون الإقناع ولا يفقهون من الدين إلا القشور والسطحيات. فيهلكوا ويُهلكوا معهم الناس. فكم من سافرة متبرجة وكم من رجل غير ملتزم دينياً دافعاً عن الدين وعن مواقف وطنية بل وضحايا بحياتهما حينما تحين ساعة التمحيص والابتلاء وكم من الذين يتظاهرون بالالتزام ينكصون على أعقابهم ويفشلون إذا أزفت ساعة الاختبار. ولكن ينبغي على المؤمن في نفس الوقت أن يبرأ مما يظن أنه مخالف للشرع وأن يعمل على التغيير وفق المراتب التي بينها الفقهاء.



والتنبه الى دور جميع الأفراد في الإعداد لدولة العدل الإلهي. فكيف لأمة أن تحيا وأفرادها كأنهم الأحداث؟ وكيف لبلد أن يُبنى والناس فيه يسامون الخسف وسوء العذاب وليس ثمة متململ وليس ثمة ضاحج؟

٤- بث الوعي الديني والتفقه بين جميع افراد المجتمع (فقيه في كل

بيت)

لعل مما أصبح مثاراً للجدل وللتهمك في بعض الأحيان حول حركة الشهيد الصدر هو فتحه باب التفقه على مصراعية. فكثرة المعتمدين بشكل عام والشباب منهم بشكل خاص لم تكن أمراً مألوفاً في الكثير من مدن العراق عدا تلك التي تتمركز فيها المؤسسات الدينية. ففي ثمانينيات وبداية تسعينيات القرن العشرين كان الدارسون في الحوزة العلمية يعملون الى تغيير زعيم الحوزوي الى زي إعتيادي إذا ما انتقلوا من مكان الى مكان أو سافروا الى أهليهم الذين يسكنون في محافظات أخرى. وكان الكثير منهم على قلة أعداد طلاب العلم النسبية واختلاطهم بين الناس لا يظهرون أنفسهم كطلاب علم حوزويين إلا للمقربين الثقة.

أما بعد تولي السيد الصدر زعامة الحوزة العلمية، أحس الكثيرون منهم بأن لهم من يمثلهم ويطالب بحقوقهم. وتنبه الكثيرون من مدرسة الصدر إلى مايراد بهم من دور فباتوا غير آبهين بخوض غمرات المسؤولية وتفحم عقبات الخوف والتردد، ممارسين بذلك تكليفهم الشرعي في

التصدي لبث الوعي في المجتمع والإعداد لمرحلة المواجهة مع النظام. وأصبح أحد أهداف الحركة الصدرية "فقيه في كل بيت" قريب المنال^(١) لكنه يتطلب تضحيات جسيمة.

٥- نصرة مذهب أهل البيت واستعادة مكانة الشيعة محليا واقليميا وعالميا



كأي شيعي موال لمدرسة أهل البيت، كان السيد الشهيد يشعر بالقمع المركب الذي يُمارس على الفكر الشيعي. وكأي شيعي عراقي كان الصدر يشعر بأنه لا صوت له ولا رأي في أي محفل دولي أو منتدى إسلامي. وهذا القمع المركب سببه النظام في الداخل والأصوات الناشزة التي تسعى الى تشويه مذهب أهل البيت في الخارج. وكأي مفكر يحمل هم أمة الإسلام وهم قضيته الكبرى كان السيد

(١) للإصناف والحقيقة يجب أن نذكر أن مقلدي السيد الشهيد من تلامذته ووكلائه كانوا أنموذجا في الحماسة والإقدام. بيد أن عمرهم الحوزوي القصير وسني الدراسة التي غلب عليها العمل الرسالي أكثر من التطوع على نمط التعامل الحوزوي الذي كان في بعض الأحيان مغرقا في الشكليات والأخلاقيات على حساب الموقف المعرفي والعملية، جعل من الكثيرين منهم يندفعون متجاوزين مآظنه الآخرون حدود اللياقة والكياسة المعهودة في طلاب العلم الديني. إلا أن الصدر يفرسوا ذلك على أنه دفاع عما يعتقدون أنه الحق، ومحاولة لإبعاد كل ما من شأنه أن يعيق مشروع قائدهم. فإحساسهم بقصر الوقت وضخامة المسؤولية وجسامتها كان يورقهم ويدعوهم لتخطي جميع العقبات بأي شكل كان.

الشهيد يسعى لإعلاء كلمة الدين وتثبيت مذهب أهل البيت. وليس أصدق على ذلك من عباراته الخالدة مثل "كل ما عندنا من الحسين، والدين بدمتكم والمذهب بدمتكم ولا ينبغي التفريط فيهما بقليل ولا بكثير" وعزوه كل ما حققته نهضته الإصلاحية إلى توفيق الله وحسن ظن المؤمنين به. وتأكيد في جميع أعماله وتحركاته على أن مذهب أهل البيت يستحق أكثر من ذلك، وأن الإسلام العظيم باق ما بقي ذكر أهل البيت عليهم السلام. فقد نذر حياته وأدى نذره لهذا الهدف^(١).

٦- التمهيد لظهور الإمام المهدي عليه السلام كنتيجة حتمية ونهائية

للاستقامة

يُتوج الشهيد الصدر فكره وكفاحه بأن يضع حجراً في بناء التمهيد لظهور الإمام المهدي عليه السلام. وسواءً أكان ذلك حجراً أم بناءً شامخاً فهو في ميزان العمل خطوة إيجابية نحو الظهور المبارك. ومنهج السيد الصدر وسلوكه كان كما أراده لأي مكلف في موسوعته المهدية. فدوره في عصر الغيبة والتمهيد هو دور العالم العامل الذي يضيف له علمه ومكانته ومسؤولية واعباءً أخرى علاوة على كونه فرد في مجتمع ومسلم موالٍ مؤمن بحتمية

(١) لذلك فإن مسؤولية الصدرين جسيمة جداً. إذ ينبغي أن يحسنوا تراث الرجل

ويكونوا زينا له لا شينا عليه ويراقبوا المنهج الذي اختطه لهم بدمه الطاهر. فالرجل بدأ دعوته بالعلم والحكمة والموعظة الحسنة، وأقام على ذلك المنهج وقضى عليه وترك عمله يقول كلمة الفصل.

إقامة دولة العدل الإلهي على يدي المهدي والأئبياء المذخورين لهذه المهمة عظمى. فمن غير الممكن أن يدعو الناس الى أمور لا يفعلها هو، أو أن يته عن خلق ويأتي بمثله. فلقد كان واع لهذه المنزقات الخطيرة موطننا نفسه على تجنبها.

فالمجتمع البعيد عن الله والذي يعاني من القمع والتكليل لا يستطيع النهوض بأية أعباء مهما خفت. والعالم الذي يبئس من قدرته على إحياء الهمة وبعث الإيمان في نفوس الناس مثله كمثل الذي مر على قرية فقال أنى يحي هذه الله بعد موتها. فلا يبئس مع الثقة بالله وحسن التوكل عليه. وقد نوه في أكثر من مقام أن التقوى والاستقامة وبناء النفس وترويضها من أهم عوامل النصر والتمكين للمؤمنين. وما كان الإمام ليظهر للناس وهم راغبون عنه زاهدون فيه إلا أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

المنهج الحركي

إن من أهم مميزات المدرسة الصدرية هو تطابق منهجها الفكري والحركي. فكلاهما يؤدي الى الآخر. وكلاهما مكمل للآخر. إذ وضع الشهيدان الصدران العمل الرسالي والحراك الاجتماعي بموازاة العمل الفكري والتقيفي. لكننا الأدوار تختلف باختلاف الظروف والسياقات والعوامل المتاحة.

ففي الوقت الذي تفرض فيه التقيية نفسها على العالم وتقييد حركيته وفعله الرسالي، ينبغي أن يجهد في تنمية وتعزيز الجوانب الفكرية والثقافية. وإن سنحت الفرصة للعمل دون الأستغراق في التنظير والتقييف أخذ العالم



زمام المبادرة وياشر في قيادة المجتمع مادام هناك من يستمع ويتبع. وإن أعرض الناس عن المنهجين إشتغل بالدعوة والتوعية والترغيب لما فيه خير الناس. وعلى ذلك تكون هذه المدرسة منتجة في جميع المراحل وشتى الظروف، لا تعرف التلكؤ والتراجع، لأن طريق التمهد لا ينبغي فيه النكوص أو القهقرة.

وكما كان للمنهج الفكري سماته المميزة، فالمنهج الحركي تميز بعدة سمات نذكر منها:

١- حرق المراحل وتجاوز الزمن

ذكرنا سلفاً أن الزمن المتاح لحركة السيد الشهيد الصدر، ومعرفته بدوافع النظام وما ستفضي إليه ثورته لم تكن تلك العوامل مما يساعد على الأسترخاء والعمل المتأنبي ومراجعة الأخطاء وتقويم الأداء وما إلى ذلك مما تتسم به التجارب الثورية التي يتاح لها العمل ضمن حاضانات إجتماعية أليفة الى حد ما^(١). لقد أراد السيد الصدر أن يختصر الزمن وينظر ببصره الثاقب وعقليته المحللة الناقدة الى ما بعد الصدر. فاشتغل على تحقيق

(١) فعلى سبيل المثال استطاعت الثورة الإسلامية في إيران أن تأخذ وقتاً كافياً في النمو والتطور على الرغم من دخول إيران الحرب الظالمة مع النظام البعثي وعلى الرغم من جميع العقبات التي جابهتها إلا أنها نمت ضمن حاضنة أليفة - وهو الشعب الذي ساند الثورة ودعمها بقوة - غير أن الحاضنة التي نشأت فيها حركة السيد الصدر كانت عدوانية الى حد ما كشفت عن شرستها ووحشيتها بعد اغتيال السيد الشهيد ونجليه عندما تعرض الصدرىون للاجتاث والملاحقة والتكيل.

أهداف عالية المنال في وقت قصير نسبياً.

وهنا يجب أن نوضح بأن السيد الصدر لم يكن يمتلك العصا السحرية أو يهتم بمعرفة الاسم الأعظم أو استخدامه ليحول عراق صدام حسين في تسعينيات القرن العشرين الى بلد يوازي بلدان الاتحاد الأوروبي من حيث حقوق الانسان ورفاهية العيش ومقدار التنمية. إن ما أراد الرجل أن يحققه هو أن يُحيي الأمل في نفوس العراقيين في الخلاص من الظلم والجور الذي غلف حياتهم على مدى قرن من الزمن بعدما ينس الناس من الخلاص وباتوا يؤلفون الخرافات حول طاغية العراق وسبب بقاءه في السلطة^(١) كان الصدر يقول لاتباعه إعملوا وكأنني أنا رئيس جمهوريتكم، وهذا نوع من إزاحة الوهم وكسر الخوف وتحرير النفس من أرباب السلطة الذي كان يأكل ويشرب مع العراقيين.

٢- إثارة القضايا الخلافية والقضايا المبتكرة

أشار السيد الصدر غير مرة بأن جميع المراجع اعتمدوا ويعتمدون على الشيعاء وعلى حواشيهم في الدعوة الى مرجعياتهم. وبما أنه كان ممن

(١) يعرف العراقيون جميعاً ما كان يدور من أحداث يومه حول سبب بقاء صدام رغم كثرة محاولات الاغتيال والتمرّد ورغبة أمريكا في الأطحاه به، ووصلوا الى درجة من اليأس هي قناب قوسين أو أدنى من الكفر، حيث كان بعضهم يرى أنه يسخر الجان لحمايته، وآخرون يرون أن هناك أكثر من صدام، وآخرون يظنون أن أمريكا هي التي تحميه، وآخرون يرون أن هذا ابتلاء من الله صبه على العراقيين وهو كفيل برفعه.



لا حاشية له باديء الأمر وممن لا يشاع عنهم إلا ما يريب، عمد الى أسلوب جذب الأنظار علميا وفكريا. وهذا أيضا من موارد الإشكال التي تحجج بها بعض منتقديه. فقالوا أنه أثار مسائل خلافية لايحسن كشفها لعوام الناس درءا للمفاسد المترتبة عليها. ولكنه كان يرى أن المصلحة تتوقف عليها لا المفسدة، فأصبحت المسألة رأي بإزاء رأي. ومن أكبر القضايا الخلافية التي أثارها السيد الشهيد بل والتي اعتمد عليها اعتمادا كبيرا في حشد الناس وتأسيس قاعدته هي صلاة الجمعة^(١). ويمكن أن نلخص بعض أسباب إثارة تلك القضايا بما يلي.

أ- الظهور بقوة للمجتمع

في معظم مجتمعاتنا العربية والإسلامية، يتبنى الناس بعض المواقف والتوجهات بما يتلائم مع ثقافتهم وقدراتهم الفكرية. فمفاهيم مثل كمال ممنوع مرغوب، و"خالف تعرف" وغيرها كثير توطر أنماط التفكير لدى الكثيرين من الناس. ومن الحكمة ومقتضيات العقل أن يُخاطب الناس على وفق أنماط تفكيرهم وأن يُستفزا عقليا ومعرفيا بالكيفية التي يتفاعلون معها.

(١) وصلاة الجمعة أيضا من المواضيع المهمة التي يمكن للباحثين أن يدرسوها بشكل علمي ومتجرد لاستطلاع تأثيرها في المجتمع في زمن السيد الشهيد وبعد رحيله باستخدام المناهج والأدوات البحثية الحديثة في العلوم الاجتماعية. لأن هذه الظاهرة لم تعد مرحلة زالت بزوال المؤثر بل بقيت مستمرة وبأشكال متعددة الى يومنا هذا.

لذا كان من المفيد أن تثار مثل هذه الأمور للفت أنظار الناس لفكر جديد وتوجه عقلي ومعرفي مختلف. وبما أن صاحب هذا التوجه لا يخشى من ردود الفعل مهما تباينت لثقته بما يقدم من معرفة، فلا جناح عليه أن يظهر للناس بأي فكر كان طالما أن بوسعه الدفاع عنه وتبريره. هذا مما ساعد على أن يضع السيد الصدر قدما راسخة بين أقدام العلماء وأن يخطف إليه أنظار الكثير من الباحثين والمراقبين ورجال الدين حين ظهوره لتأسيس مشروعه الإصلاحية.

ب- إثبات التفرد والريادة والأعلمية

وهذا سبب آخر ونتيجة للسبب الذي ذكر أعلاه. فليس الظهور للمجتمع والبروز العلمي هو غاية في حد ذاته لأن ذلك سيكون من حب الدنيا والرياء وطلب السمعة، ولم يكن ذلك مطلقا في وارد السيد الصدر بدليل النهاية التي اختارها. ولكن كان ذلك تمهيدا لتأكيد أعلميته وهي مناط زعامة المؤسسة الدينية وولايته على مقلديه بل حتى على غير مقلديه لأنه كان يرى لنفسه الولاية العامة المطلقة وهو ممن يؤمن بولاية الفقيه المطلقة^(١).

(١) مبحث ولاية الفقيه أعقد وأكبر من أن يناهش في مثل هذا البحث، ولكن الباحث يرى أنه في ظروف استثنائية مثل التي كان يمر بها العراق كان الناس يحتاجون إلى من يجمع كلمتهم ويقودهم وهذا مستحيل في حال تزاخم القيادات واختلاف



٣- استخدام الامكانات الفكرية للدين والمذهب وتوظيفها لغرض

الإصلاح

إن كان المنهج الفكري لعالم ما يعتمد على الإرث الفكري المتراكم ومجموع الخبرات والمهارات والتجارب المكتسبة، فما هي أدوات الإنتاج على مستوى الفعل الاجتماعي؟ وبعبارة أخرى إن كانت النظريات تصنعها الأفكار فمن يصنع حركات التغيير والثورة؟ إن الثورات تحركها الأفكار ومالم يتبنى الناس تلك الأفكار الثورية فلن يكون هناك للفكر أي فعل في العالم الخارجي. ولكن غالباً ما تحتاج النظريات الثورية الى قواعد تؤمن بها وتبناها لكي تفعل فعلها التغييرى، وهذا يتطلب من النخبة المؤمنة بتلك النظريات والأفكار إيصالها الى الجماهير بأمانة وصدق.

في بلد يعيش فيه النظام على قمع الناس وتكسيم الأفواه وتحجيم جميع الحريات بما فيها حرية التفكير والاعتقاد، كيف يستطيع رجل واحد أن ينظم شعباً - وليس خلية أو حلقة أو مجتمعا صغيراً - وأن يث فيهم

الآراء، ربما كان هذا مبرراً لدعوة السيد الصدر للولاية العامة، ولا نعلم ماذا كان سيحصل لو أن السيد الشهيد كتب له البقاء ونجحت ثورته. فتراث الرجل شاهد على أنه كان ممن يراجعون أنفسهم ويصححون أخطاءهم بل ويكشفون خطأهم للناس دونما غرور وكبر وإصرار على الخطأ، وهذا درس بليغ ينبغي للصديين قبل غيرهم التعاطي معه بحذر، فبقاء فكر الشهيد واستمراره تكمنان في مراجعته وانتقاده وتطويره لا في تصنيفه وتحجيره والنظر اليه على أنه مقدس لا تلم فيه ولا لیس.

أفكارا تصطدم مع أفكار السلطة القمعية بشكل صارخ وبطريقة مفتوحة؟ إن المسألة تحتاج الى أكثر من ذكاء وعزيمة. لقد سماها السيد الشهيد التوفيق الإلهي وعزا كل النجاحات لهذا التوفيق. ولكن هذا الخطاب يفهمه المؤمنون بالتدخل الإلهي في صنع التاريخ. فكيف بمن لا يؤمن إلا بما يدرك ويلمس ويستتج بعقله بناء على مدركاته الحسية.

يمكن أن نقول لمن لا يؤمن بالتدخل الإلهي أحيانا في تغيير مسار التاريخ، خذ اليك صلاة الجمعة وعراق بمواصفات عراق صدام حسين في التسعينيات واعطنا مثل ما حققه محمد صادق الصدر فيما لا يزيد عن عامين. فإن قال أنه لا يستطيع فنقول له هذا ما نسميه التدخل الإلهي. وفيما يلي بعض تلك الامكثات التي استخدمها السيد الصدر في حركته الإصلاحية.

١- صلاة الجمعة

صلاة الجمعة فریضة معطلة عند الشيعة الإمامية في حال غياب الإمام أو كون نائب الإمام غير مبسوط اليد. وبما أن نائب الإمام في دولة صدام حسين لم تكن له يد أصلا فضلا عن كونها مبسوطه، فصلاة الجمعة تعد من المستحيلات ومما لا يمكن تصوره عقلا.

وبعبارة أخرى فصلاة الجمعة في عراق التسعينيات كالشجرة الميتة. أو الآلة المعطلة. وإحياء الشجرة أو تشغيل الآلة تحول دونهما كل ممنوعات الأرض وتحفظاتها. ولا يمكن لأي عاقل أن يقدم على عمل جسيم باستخدام آلة عديمة المفعول. إلا إن كان له رأي آخر وكان يرى ما



لا يرى غيره.

بينما كان النظام يعقد اجتماعاته الحزبية في جميع مرافق المجتمع ومؤسساته على شكل حلقات لا يزيد عدد أكبرها عن عشرين أو ثلاثين فردا معظمهم مشارك بالإكراه، كان السيد الصدر يعقد اجتماعاته بحضور الآلاف من المريدين معظمهم مشارك حبا وكرامة، وفي الوقت الذي كانت إجتماعات حزب البعث تحيد الدين عن حياة الناس وتسلبهم عنه كان السيد الصدر يثبت الدين في قلوب الناس وينعشهم به. فكان يعمل تماما بالضد مما يعمل حزب البعث. وكان الهدف الأول والأخير دينيا خالصا.

٢- الحقوق الشرعية

إن مسألة الحقوق الشرعية لدى الشيعة تثير مواقف متعددة بتعدد الجهات التي تمثلها. فمن مشنع منتقد يعد الموضوع بدعة ابتداعها القائمون على المؤسسة الدينية لحفظ امتيازاتهم الطبقية، ومن حاسد لمنزلة المؤسسة الدينية الشيعية المستقلة عن أي سلطة كانت بسبب استقلاليتها المالية، ومن مستهفم منتقد يريد معرفة شرعية هذه الموارد وأما كن صريفها. ومالم يكن هناك مبرر واضح وشرعي لجمع تلك الأموال وموارد تصريفها سيكون هناك إشكال تاريخي وأخلاقي كبير لا ينبغي التغاضي عنه.

فمن غير الممكن أن تبني مؤسسات الفكر العلماني قوانين المساءلة والنزاهة ورفع شعار "من أين لك هذا" وتغلق المؤسسة العلمية الدينية ملف الحقوق الشرعية بوجه المستشكيلين. لقد أعطى السيد الصدر وبشكل واضح مبررات ما كان يصل إليه من حقوق شرعية وذلك عن طريق العمل على فتح

المدارس الدينية، وترميمها وصرف رواتب الطلبة، بالإضافة الى الإنفاق على مستلزمات العمل الرسالي ودعم صلاة الجمعة وإدامتها. فوضح للناس كيف يمكن لهذا المورد أن يحدث التغييرات المرجوة في المجتمع. ولنا أن نفكر فيما لو أن جميع الحقوق الشرعية التي تصل الى المراجع توظف في خدمة المجتمع وبناء المشاريع التنموية وتخليص الناس من الفقر والحاجة والبطالة، كم سيصبح المجتمع قويا متماسكا عزيزا لا يمكن استغفاله والتجاوز على كرامته.



لقد ساهمت الحقوق الشرعية التي كان مقلدوا السيد الصدر يؤدونها إليه برفد حركته بشيء من الزخم المرجو، مع ذلك بقي هناك بعض العجز في الموازنة التشغيلية والإستثمارية في مشروع السيد الصدر. وقد كان ذلك واضحا في تدني رواتب طلابه مقارنة بغيرهم، وفي تلكو بعض المشاريع العلمية والدينية التي أراد السيد الصدر تنفيذها على عجلة لاستيعاب أعداد الطلبة المنخرطين في الدراسة الحوزوية ولتغطية النفقات الأخرى كالمعونات المقدمة للمحتاجين من الناس. وهكذا يمكننا القول ان موارد تصريف الحقوق الشرعية كانت واضحة وبإمكان الناس تلمسها.

٣- إدارة القواعد الجماهيرية وتوجيهها

لقد كان العراقيون ثورة كامنة تحتاج الى قائد يذكي أوارها. لكن صفات القائد ومؤهلاته هي ما كان محل اختلاف. وكان الخوف لدى الكثير من القيادات من أن يفعل العراقيون بقادتهم كما فعل اليهود بنبي الله موسى عليه السلام عندما أعجزوه بمطالبيهم التي لا تنتهي، أو كما فعل الذين

خذلوا الحسين وتباطأوا عن نصرته. غير أن هذا الخوف لم يكن مبرراً إذا ما نظر المرء الى تكليفه الشرعي بصرف النظر عن سببته ممن سينقلب على عقبه. رأى السيد الصدر أن تكليفه الشرعي هو التصدي لقيادة القاعدة الجماهيرية فانبرى لهذا التكليف وكله ثقة بالله وبالذين أحبوه من الناس. وماتبقى عليه سوى أن يوجه تلك القاعدة نحو الدور التغييرى الذى أراده لها. وللتاريخ المنصف أن يحكم فيما إن كان قد نجح فى ذلك أم أنه أخفق.

نظرة عامة فى المنهج العلمى:

أشرنا فى أكثر من مكان الى أن تحليل حركة السيد الصدر بكل أبعادها لهو أمر مستعص على عمل بمثل حجم البحث الحالى. ولكن الفصل بين جوانب حركته سىتيح للباحثين أن يتناولوا تفاصيل أكثر وتحليل أعمق وأدق. وهذا البحث يحاول رسم الملامح الأساسية التى توطر حركة السيد الصدر وينبه إلى أن تلك الملامح هى مما لا يمكن فصله إلا لإغراض البحث والدراسة. لأن جميع تلك العوامل متداخلة فيما بينها ويؤثر بعضها فى البعض الآخر بشكل حيوى.

أرى أن المنهج العلمى للسيد الصدر مر بمراحل ثلاث. وهذه المراحل تظافرت فيما بينها لتنتج المرحلة النهائية التى توجهتها نهضته وحركته الإصلاحية. وهذه المراحل هى:

١- المرحلة الأولى منذ بدء الدراسة الحوزوية وحتى إغتيال السيد

الشهيد محمد باقر الصدر

- ٢- المرحلة الثانية التي أعقبت إغتيال السيد محمد باقر الصدر وما تلاها من مضايقات وغياب عن المؤسسة الدينية والاجتماعية.
- ٣- المرحلة الثالثة التي شهدت ظهوره على الساحتين الدينية والاجتماعية وحتى شهادته.

تتسم كل واحدة من هذه المراحل بمزايا خاصة فرضتها الظروف المحيطة بالسيد الصدر وتشكل كل من هذه المراحل جانبا مهما من شخصيته الفكرية والحركية. وستترك الخوض في تفاصيل مميزات تلك المراحل وتأثيراتها على الشكل النهائي لحركة السيد الشهيد لدراسات لاحقة - إن كتب الله لنا البقاء- لكننا سنتحدث بشكل عام عن السمات العامة والمؤثرات التي كان لها دورا واضحا في حركة السيد الصدر. وكما كان المنهج الحركي للسيد الشهيد يواجه بعض التحديات، كان منهجه الفكري والمعرفي يواجه تحديات أخرى.

١- عدم توفر المصادر

أنتج السيد الصدر معظم مؤلفاته اعتمادا على ما كان متاحا لديه من كتب في مكتبته أو على ما قرأه في سنوات الدراسة الحوزوية وبقي عالقا في ذاكرته. ففي مقدمة الطبعة الثانية لكتاب *أضواء على ثورة الحسين* (١٩٩٦) يكتب السيد الصدر:

وعلى العادة، في أغلب ما أكتب، وأنا قليل الأمكانيات اجتماعياً



واقتصادياً وعلمياً. أعني قلة الكتب والمصادر... فقد كتبت هذا الكتاب اعتماداً على حافظتي وذهنني فقط. في حدود ما تصيّدت من نصوص ومفاهيم خلال مراجعاتي العامة خلال حياتي العلمية. ولم يكن من الممكن في العجالة إرجاع كل حديث إلى مصدره. ولئن كان عندي شيء قليل من الكتب، فإنها بلا شك لا تسمن ولا تغني من جوع في تخريج هذه المجموعة من النصوص. ولذا بادرت إلى إصداره بقوة قلب خالياً من المصادر واعتذرت عن ذلك في المقدمة وتم الأمر. ولا بأس بذلك فان الطريقة القديمة للتأليف كانت على ذلك وليس بدعاً غير مقبول من طرق التأليف. وإنما يستند في واقعة على الوثيقة الشخصية للمؤلف. كما كان السلف الصالح يستند إليها. فليكن هذا واحداً منها.

٢- عدم توفر الوقت

لم تكن قلة المصادر هي العائق الوحيد الذي كان السيد الصدر يعاني منه في نشاطه الفكري، بل كان ضيق الوقت ومسؤولياته الكثيرة عاملاً آخر يضيف المزيد من الضغط على المشروع الإصلاحية برمه. ففي مقدمة كتاب فقه الطب^(١) أورد السيد الصدر مايلي:

الا ان اشغالي بكثير من امور هذه الدنيا اللنية منع من الاستمرار بكتابته ولم ينجز منه الا ما يراه القارئ الكريم الى نهاية القسم الثاني في هذا

(١) نسخة الكترونية تم تنزيلها بتاريخ ٢٤/٢/٢٠٠٨ من موقع: <http://www.csst->

المطبوع. ولعل الاستمرار الان فيه بمنزلة الميؤوس منه حاليا على اقل تقدير.

٣- تزاحم الجهد الحركي مع الجهد العلمي

لم يهتم السيد الشهيد الصدر بالتأج الفكري أثناء حركته الإصلاحية إلا بقدر ما يتيح له هذا التأج من مكانة محترمة في أوساط العلماء. لأنه كان يظن أن العلم دون العمل سيكون وبالا على صاحبه. ومما يمكن استنتاجه أيضا أن السيد الصدر قد فضل العمل على العلم في تلك المرحلة. وهناك الكثير من الاستفتاءات واللقاءات التي تشير الى ذلك ومما لامتع في هذا البحث لتناوله.

المميزات العامة للمنهج العلمي

١- الإطار المنهجي والنظري

لقد تميز المنهج العلمي للسيد الشهيد بكثير من المزايا المتفردة ولكنه من الناحية المنهجية والنظرية كان قد ارتكز على منهجية السيد الشهيد محمد باقر الصدر. لاسباب جوهرية نذكر منها:

١- إعتقاد السيد محمد الصدر أن الشهيد محمد باقر الصدر هو أنبغ العلماء وأعلمهم في تاريخ الشيعة المعاصر. وأن أفكاره ومنهجه هي من أفضل ما أنتجه المؤسسة الدينية الإمامية في مئة عام على الأقل.

٢- تذكير الشيعة بهذا المفكر والمصلح الكبير وتحريك التساؤلات حول تصفيته وشهادته في ضمائر الجماهير، مما سيسهم في إعادة مفهوم الشهادة المرتبط بالأمام الحسين عليه السلام معززا بمثال معاصر حي يتجسد في



شهادة السيد محمد باقر الصدر وشقيقته الأستاذة بنت الهدى.

٣- التشديد على النظرية الكلية الموحدة التي أسسها السيد الشهيد

ومضامينها:

أ) الإسلام دين عالمي وهو الكفيل بقيادة البشرية الى نهايتها السعيدة

كما جاء في فلسفتنا واقتصادنا والإسلام يقود الحياة، والأسس المنطقية

للإستقراء الرياضي على سبيل المثال لا الحصر.

ب) القرآن دستور كوني في حياة البشر وفيه مقدمات لكل ما

يحتاجه العقل الآدمي المتدبر المؤمن. ودليل ذلك استنباط نظرية الاقتصاد

الاسلامي من القرءآن واحاديث النبي الأكرم وأهل بيته عليهم السلام. وهذا يحد

ذاته كان إنجازا معرفيا ضخما للمسلمين أينما كانوا وفي اي عصر كانوا.

والبناء على الآيات الكريمات من قبيل ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ

شَيْءٍ﴾، و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا

يُحْيِيكُمْ﴾.

ج) الأيمان بالعمل السياسي والحزبي الذي هدفه تنظيم القواعد

الجماهيرية وإذكاء روح الأيمان والتجديد لديها. وشدة الإنقياد للعمل

السياسي والإنهماك فيه يجب أن تتلائم مع متطلبات ذلك العمل وماتحتمه

المرحلة. فيبدو أن الهدف الذي يراد منه هو التنظيم بالدرجة الأساس لا

التنظير؛ لأن الإسلام هو النظرية الكبرى والمرجعية الوحيدة لكل مسلم

يريد أن يمارس العمل السياسي. وإلا لتحول العمل السياسي خارجا عن

النظرية الإسلامية الى عمل سياسي علماني يتبع المرجعيات العلمانية. وهذا

بالتأكيد ما لم يرده الصدران الشهيدان.

٢- الموسوعية، والاسهاب غير المخل في بسط المعلومة

إن من أكبر الأدلة وأوضح المصاديق على أن هدف عالم أو مفكر ما هو تثقيف الجماهير وتوعيتهم هو أسلوبه المبسط ووضوح افكاره. فكثير من العلماء يحيطون مؤلفاتهم بعبارات غامضة تستعصي على الفهم لا يستطيع استيعابها حتى القراء المثابرون فكيف ببسطاء الناس. وبما أن الثقافة الدينية يجب أن تكون في متناول كل فرد، لذا يجب أن يكون أسلوب الذي يريد تثقيف المجتمع دينياً سلساً واضحاً. وقد أورد السيد الشهيد رغبته هذه في النقطة الرابعة من مقدمته لكتاب (شذرات من فلسفة تاريخ الحسين عليه السلام) إذ يقول:

إننا اتفقنا فيما بيننا (يعني هو ومحقق الكتاب): أنه لا حاجة إلى أن تكون عبارة الكتاب جزلة ورصينة - كما يعبرون - بل يحسن أن تكون بنفسها انعكاساً لسلسلة المحاضرات الأصلية ووضوحها، فإنه سيكون أعم فائدة وأشمل نفعاً. (ص ٩).

أما عن الموسوعية في تناول الموضوعات بشكلها الكلي أو حتى في جزئياتها، فقد انتهج السيد الصدر أسلوب التحليل والاحتمالات في كثير

(١) شذرات من فلسفة تاريخ الحسين عليه السلام، السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره، تحقيق

الشيخ أسعد الناصري، مركز الدراسات التخصصية في فكر السيد الشهيد محمد



من مؤلفاته. وهذا يدل على طول نفس الباحث وعمق تفكيره. والموسوعية عادة ما تكون من عمل فرق الأبحاث والمؤسسات ولا يمكن لفرد بمفرده وبإمكانات كالتالي كانت متاحة لمحمد الصدر أن يتناول أي موضوع بكل تفاصيله وفروعه. وهو يصف منهجه في بعض مؤلفاته بما يلي:

ولا شك ان فقه الطب (وفقه) الفضاء مفتقر الى هذه الطريقة الثانية الا انها تحتاج الى وقت اولاً والى اختصاص ثانياً او تعاون بين الاختصاصيين. وهو مما لا يتيسر بسهولة. كل ما في الامر اني وددت الفات النظر اليه هنا، عسى ان يكون فكرة مطروحة لمن يجد في نفسه الكفاءة لذلك. او وفق الله سبحانه هذا العبد الخاطيء للخوض فيه. فإنه على أي حال يحتوي على خدمة جلّى للفكر الاسلامي ودحض للفكر المعادي على كل المستويات. بما فيه التقليدي الذي يرى ضرورة بقاء ما كان على ما كان. سامحهم الله.

٣- تطبيق الاحتمالات الرياضية في المسائل الفقهية و تطبيق

المنهج التحليلي ومنهج الأطروحات في تفسير القرآن الكريم

تبنى السيد الشهيد الصدر الثاني منهج التحليل والاحتمالات (الأطروحات) أسوة بالشهيد الأول. وقد أوضح الشهيد الثاني السبب من وراء ذلك. وهو كما يستفاد من أقواله أنه يتورع عن القول عن المعصومين مالم يقولوه فيغدو ذلك كذبا صريحا على الله ورسوله والأئمة^(١). ولنتأمل

(١) وهذا عمري أبلغ درس لكل من يرجو الأمانة في العلم والمعرفة. فالرجل يعمل

قوله في النقطة الثامنة من كتاب (شذرات من فلسفة تاريخ الحسين)^(١):
 النقطة الثامنة: إنه لا شك أن النظر إلى فلسفة تأريخ
 المعصومين عليهم السلام وأفعالهم وأقوالهم من الصعوبة بمكان، لأن ذلك
 حتماً فوق المستوى الإعتيادي للبشر. كما حاولنا البرهنة عليه في
 مقدمات كتابنا عن ثورة الحسين عليه السلام.



ومن هنا يكون أي كلام مخالف للواقع، من الكذب على الله
 وعلى المعصومين عليهم السلام، وهو من أعظم الكبائر في الدين. فبينما يريد
 به الفرد الإفادة والثواب، فإنه ينال اللعنة والعقاب. إلا أن الذي يهون
 الخطب، هو أسلوب الأطروحات الذي عرضناه وعرفناه في مقدمة
 (منة المنان). وهو الأسلوب الذي اتخذناه هنا أيضاً، بل هو موجود
 أيضاً في أغلب مؤلفاتي ودروسي. فإن كثيراً من الوجوه والإعتبرات
 والإلتفاتات، لو صح التعبير، إنما هي أطروحات مناسبة للمقدار الذي
 نستطيع أن نفهمه ونعلمه من مستوى المعصومين عليهم السلام. ويبقى الواقع
 منحصراً بضروريات الدين وواضحات التأريخ من ناحية، وبما يعلمه
 الله سبحانه من الأسرار الواقعية التي نحن في مستوى النقص والقصور
 عن الإلتفات إليها والحصول عليها. (ص ١٠ - ١١).

بآية «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» فكيف بالذين يخوضون في دماء الناس
 ومقدراتهم مدعين أنهم ينطقون عن الله وكتبه وأتبيانه. وكيف بمن يتبنى رأياً ولا
 يريد أن يناقشه وكأنه الحق ومادونه الباطل.

(١) مصدر سابق.

أما عن موسوعيته وجهده المعرفي ورغبته في الإحاطة بجميع الأطروحات الممكنة لقضية ما فتجسد في مناقشته لجميع وجوه المسائل. وهذا يذكرنا بحادثة السؤال الذي عرض على الإمام العسكري عليه السلام في قضية المحرم الذي قتل صيدا. فالسيد الصدر في قضية التلقيح الاصطناعي في كتاب ماوراء الفقه يرجع المسألة الى ٢٨٠٠ وجها محتملا. وهذا المنهج لو أُتيح لفريق بحثي أن يتبناه في معالجة القضايا الفقهية والعقائدية لأصبح لدينا تراثا فكريا عظيما يحيط بمعظم إن لم يكن جميع وجوه القضايا الخلافية. ولقد كان هذا منهج الشهيد الصدر، يعمل به ما أتاح له الوقت وما أتاح له الإمكانيات. وهو يشير الى ذلك في مقدمته لكتاب فقه الطب^(١):

واود الالماع ايضاً الى ان فكرة (فقه الطب) يمكن ان تنطبق على

معنيين او طريقتين:-

الاولى:- طريقة المسائل المتعددة على شكل الرسالة العلمية. وهو ما

طبقتاه في (فقه الفضاء) و (فقه الطب) و (فقه الموضوعات الحديثة).

الثانية:- طريقة التحليل النظري الفقهي والبحث في التفاصيل، كما

طبقتاه في (ما وراء الفقه) و (فقه الاخلاق). كما هو معلوم للقارئ اللبيب.

٤- الريادة في تناول فقه الفضاء

إن تناول موضوع فقه الفضاء يضع السيد الشهيد في مقدمة علماء

المسلمين المشتغلين في هذا المبحث ويعطيه الريادة دون منازع. فعلى قدر

(١) نسخة الكترونية تم تنزيلها بتاريخ ٢٤/٢/٢٠٠٨ من موقع: <http://www.csst->

معرفتي المتواضعة لم يسبق السيد الشهيد الى هذا الموضوع أي فقيه إسلامي وينبغي على علماء المسلمين من ناحية الأمانة العلمية والإعتراف بالجميل والسبق أن يшиروا الى ذلك الإنجاز وينوا عليه بحوثهم^(١).

٥- الفكرة في موسوعة ماوراء الفقه

لا يحاكي السيد الشهيد في هذا المؤلف العقل الإسلامي فحسب، بل هو يحاكي العقل العلمي (ويخاصه العقل الغربي). فلقد كان موافقا حتى في عنوان الكتاب. ونحن نعلم أن مفاهيم الماوراءيات تبحث عادة فيما تعجز عن إدراكه العديد من الوسائل العلمية والحسية. ومثال على ذلك مفهوم ماوراء الطبيعة (metaphysics) الذي يتعاطى مع الظواهر اللافيزيائية أو اللامادية. فيبدو أن السيد الشهيد أراد بجهد المعرفي إلى أن يصل بنا الى أقصى تخوم الفقه وأن نلامس أبعاد التشريع الإسلامي العظيمة بكل طاقتها. وهو في هذا المؤلف لا يظيف الى الفكر الإسلامي جهدا معرفيا وفقهيا متفردا فحسب. بل هو يدشن منهجا متفردا في تناول الفقه لانتزاعه في أن نسميه المنهج الفقهي الصدري.

ولا يفوتني أن أذكر أن الكتاب رغم المعلومات الفقهية الضخمة ورغم موسوعيته التي تدل على عمق فكر المؤلف وطول نفسه المعرفي،

(١) وهذا يرتب مسؤولية أخرى على الصلدين في أن يقدموا هذا المجهود الرائع للعالم الإسلامي وغير الإسلامي مما له الأثر في حفظ تراث أستاذهم وإعطائه ولو جزءا من إستحقاقاته.



أعتمد في مصادره على ما هو متيسر لدى السيد الشهيد وما تمكن من مراجعته ضمن الفسحة الزمنية المتاحة له. ومن اللطائف أن نرى أن السيد الشهيد وهو العالم الكبير لا يستكف عن الإحالة الى كتب بسيطة جدا كالكتب التي يستخدمها طلاب المرحلة الابتدائية أو المتوسطة، وبعض الكراريس الأولية كما في بعض التعريفات المصرفية التي أحال فيها الى كراس مصرف الرافدين أو هذه العبارة التي أشار في هامشها الى أنها مأخوذة من كتاب للأول المتوسط: "وظل الارض يتكون من جزء مركزي مخروطي الشكل شديد السواد يسمى بالظل المظلم وما حول تلك المنطقة اقل سوادا تسمى شبه الظل. فاذا دخل القمر منطقة شبه الظل فان لونه يأخذ بالاحمرار، وما ان يدخل منطقة الظل حتى يسود لونه، فيحصل الخسوف الكلي". (ماوراء الفقه، ج ٢ ق ١. ١٩٩٣. النجف: مطبعة الآداب). وهذا خير دليل على أن الرجل كان يحول التراب الى تبر ولو أن وسادة غيره ثبتت له لأبدع وأجاد خيرا من ذلك وأكمل، رغم أنه لم يقصر.

٦- الفكرة في فقه الاخلاق

جواهر بين التراب. هكذا أشار السيد الشهيد الى كتابه فقه الأخلاق والى بعض مؤلفاته الأخرى في أكثر من مناسبة. والقاريء في هذا الكتاب يرى من جملة ما يرى أن السيد الشهيد عمد الى إدراج أدعية بالكامل في كتابه رغم تواجدها في كتب معلومة كمفاتيح الجنان وضياء الصالحين وغيرها من كتب الأدعية. وأظن أن السبب في ذلك هو ارتباط تلك الأدعية بمواردها إرتباطا عضويا وأنها لا بد وان تكون دالة قطعاً على نمط السلوك المتناول.

ومما هو معلوم أيضا أن السيد الشهيد كان سالكا عارفا بالله لا يتحدث عن ذلك إلا ما فاض على لسانه في أكثر من مناسبة. وهذه الشذرات العرفانية التي يثرها في كتبه لا يوفق لاصطيادها إلا من كان ذو حظ عظيم. فهي من ثمرات حياته المباركة وخلاصة فكره ونفسه الشفافة. وأعتقد أن فقه الأخلاق يمثل منهج السيد الشهيد العرفاني وهو الأداة التي صقل بها نفسه طيلة حياته المباركة. ومن التقاه أو تحدث إليه أو نظر في عينيه سيدرك أن هذا الكهل الصلب يمتلك براءة دونها براءة الأطفال وروحا شفافة لا يملك جلسيه إلا أن يعشقها.



وخلاصة القول أن الجهد المعرفي للسيد الشهيد يستفز بكله وجدان العاقل المتبصر ويحفز فيه روح الأيمان والنقاء. وهو ليس بدعا من علماء مذهب أهل البيت قاطبة فهذا دينهم ولكنه تفرد في منهجه وأسلوبه، وكذلك تفرد في سلوكه وحركيته. وبهذا يستحق أن يكون مدرسة قائمة برأسها ينهل منها الطالبون العلم والعمل.

الإنجازات التي حققتها حركة السيد الصدر (قد)

كما هو شأن الحركات الفكرية والثورية وكما هو شأن المدارس المتفردة الأصيلة، لاتخلو مدرسة الشهيد الصدرين من انتقادات وآراء ومناقشات في جميع جوانبها العلمية والعملية - أي التطبيقية. وهذه ظاهرة صحية طالما أنها اتخذت أساليب العلم ونهج المعرفة في النقد والدراسة. وهذا مارحبه به السيد الشهيد الثاني نفسه وهو يشير الى تحقيق كتاب

أضواء على ثورة الحسين في مقدمة الطبعة الثانية^(١):

ثم إنني فجأة وعلى غير توقع استلمت نسخة مليئة بالهوامش والمصادر. قام بها أحد الفضلاء الساكنين في سوريا. كأنه أشفق على هذا الكتاب من هذا النقص فحاول تبني الموقف جزاءه الله خيراً. وهو طبع بتوقيع رمزي له وللمطبعة على ما أعتقد. وأن كان بإخراج جيد وورق صقيل.

إلا أنه قد علق عليه بدون أن يفهم مقصودي. وأعطى لنفسه الحرية في التصرف أكثر من اللازم. ومن هنا أعتقد أنه بالرغم من جهده فإنه لم يكن موفقاً في عمله. غير أن نقطه القوة فيه هو أنه ألفتنا إلى بعض المصادر التي لم تكن تخطر على البال.

فهو لم يشنع على المحقق عمله وإن كان يظنه لم يوفق الى فهم مقاصده، بل شكره على جهده. وهذا هو شأن الباحث المنصف. وبعد ذلك أشار الى التحقيق الذي قام به الشيخ العبادي وذكر أنه اختلف معه بالرأي وتقبل منه ذلك لأن حرية الفكر والرأي مكفولة للجميع^(٢).

وبقي هذا الكتاب متأرجحاً من حيث المصادر حتى تصدى له

(١) مصدر سابق.

(٢) وهذا موجه للصدرين قبل غيرهم، فالنقد البناء والاختلاف بالرأي لا يفسد في الود قضية ولا يسيء الى مقام السيد الشهيد. فعليهم أن يفتحوا على جميع الآراء والانتقادات ويستمروها في إدامة فكر مدرسة الشهيد الصدرين.

جناب الأخ المفضل الشيخ كاظم العبادي الناصري دام عزه لخوض غمار هذا البحر الواسع. وتعب عليه تعباً متكاملًا وكان يعرض ما يكتبه عليّ جزاءه الله خيرًا. وكان المجموع هو هذا الكتاب الذي بين يديك. ولم يخل تعليقه من بعض النواحي من بيان بعض الأشكالات، ولو ضمناً، على المؤلف وأنا عرفت ذلك ورضيت به، أخذاً بحرية التفكير المحفوظة لدينا في الحوزة العلمية الشريفة جيلاً بعد جيل^(١).



وعلى الرغم مما يمكن أن نصفه من نجاح واضح لحركة السيد الشهيد الصدر، وانطلاقاً من موقف السيد الشهيد في الأخذ بحرية التفكير والرأي سأترك هذا الباب من البحث مفتوحاً لعل الله سبحانه وتعالى أن يوفقني لاستقصاء مدى تأثير مدرسة الشهيدين الصدرين وبالخصوص حركة السيد الشهيد محمد صادق الصدر وفكره في المجتمع العراقي خصوصاً والإسلامي عموماً باستخدام وسائل علمية موضوعية كالإستبيانات واللقاءات وغيرها من طرق البحث الكمي والكيفي التي لا محاله ستسفر عن نتائج موضوعية وعلمية.

ولا بد أن نقول وبكل صراحة أن النتائج يمكن أن تأتي سلبياً أو إيجاباً. فإن كانت إيجاباً فهذا دليل على أن حركة السيد الشهيد الصدر ومدرسته كانت موفقة وناجحة في إحداث التغيير والتأثير المرجو في

(١) المصدر السابق نفسه.

القواعد الجماهيرية. وإن جاءت النتائج سلبية فهذا يعني وجود خلل ما علينا أن نكرس أنفسنا لتصحيحه. فنحن على يقين أن الخلل لم يكن في السيد الشهيد ولا في مدرسته (حاشاه من ذلك) فقد أدى ما عليه وبلغ. ولكن مع ذلك لا ينبغي لنا الفشل في مواجهة الحقائق أو أن نعمد إلى تحريفها كما نشتهي. لأن المدرسة الصدرية أقوى وأكبر من ذلك.

الصدر الثاني
المرتكزات الكلامية والفقهية
في نظرية العمل الاجتماعي

جواد علي كسار

ملاحظة منهجية

انطلاقاً من زاوية معينة يمكن أن نلاحظ بأن عملية إحياء ذكرى الشهيد السيد محمد باقر الصدر قد مرت بمرحلتين، تكاد كل مرحلة أن تغطي زمنياً عقداً من السنوات.

في العقد الأول إتسمت منهجية الإحياء غالباً بتأكيد الحياة الخاصة للسيد الشهيد وما يرتبط بها من خواطر وذكريات. كذلك التركيز على الجانب الحركي التعبوي المباشر، ما خلا بعض الممارسات الفكرية والتحليلية المعمقة.

ربما كانت حاجة المرحلة إلى هذا اللون من الإحياء هي في طبيعة العوامل التي سوغت اهمال الجوانب الأخرى في شخصيته، والاهتمام بالجانب المشوب بعاطفة زخّارة.

أما مع العقد الثاني فقد انفتح الإسلاميون على الجوانب المعرفية والفكرية للسيد الشهيد وتطورت منهجيات الإحياء حتى شهدنا ولادة عدد من الأعمال العميقة في هذا الاتجاه^(١).

(١) ينظر كتوصيف أولي لما كتب عن الصدر خلال عقدين: السيد محمد باقر الصدر في المكتبة الإسلامية: مراجعة في أهم ما صدر حوله من أعمال بعد استشهاده، سمرمد الطائي، مجلة التوحيد، العدد ١٠٣، ربيع ١٤٢١هـ ص ١٣٩-١٨١.



وهذا لا يعني انتفاء الحاجة للجانب الحركي والتعبوي، بقدر ما يشير إلى ضرورة الترام منهجية متوازنة في الإحياء. فالتركيز على الجهة التعبوية وحدها يغيب المرتكزات المعرفية والفكرية للشهيد الصدر، ويحوّله إلى ظاهرة طارئة لا تلبث أن يتجاوزها الحدث باختفاء مبررات الحاجة التعبوية وغيابها.

ثم إنّ التشبث بالجانب الأول وحده يوقع الإحياء بالتكرارية المملة والخطابية المنفردة ويؤهم بفقر الشخصية وهي تُقَطَّع عن معيها المعرفي والفكري الخصب. كما يكون من مردوداتها السلبية حبس الشخصية في نطاق ساحة ضيقة وحرمان بقية المسلمين من عطائها. هذا بعكس ما لو اتسمت منهجية الإحياء بالتكامل والتوازن بين المعرفي والتعبوي، فعندئذ ستفتح الساحة عليها انطلاقاً من حاجاتها لا من بعد احادي مملى عليها.

ربما كانت هذه الملاحظة هي التي تفسر لنا انغلاق الساحة الإيرانية كمثال - على السيد الشهيد الصدر الأول في العقد الأول، وانفتاحها عليه بشكل مذهل لا يتوقعه حتى أبناء الساحة العراقية في العقد الثاني^(١).

(١) ينظر كوصيف أولي لاهتمام الساحة الإيرانية بمدرسة الصدر: الشهيد الصدر والساحة الثقافية الإيرانية: مسارات الانفتاح ومناطق التفاعل مع منظومته الفكرية، خالد توفيق، المنتدى، العدد الأول، نيسان ١٩٩٨.

وهي بنفسها التي تفسر الانفتاح النسبي للساحة الفكرية العربية على بعض مكونات مدرسة الصدر والتعاطي مع أفكاره بهذا القدر أو ذاك^(١).

مع الصدر الثاني

وإذ نواجه حدثاً مماثلاً مع سقوط رمز آخر من آل الصدر مضرراً بدم الشهادة في سبيل الله، فالأمل أن لا يتكرر المسار ذاته بحيث يُهمل الجانب المعرفي كلامياً وفقهياً وفكرياً ويتجه التركيز بأكمله إلى الجانب



(١) ينظر كمثال على ذلك: تجديد الفقه الإسلامي... محمد باقر الصدر بين النجف وشيعة العالم، شبلي المصطفى، الترجمة العربية، دار النهار، بيروت ١٩٩٨. أيضاً: فلسفة الصدر، محمد عبد اللاوي، دار الإسلام، لندن ١٩٩٩. وبشأن منهج الصدر في التفسير الموضوعي وما قدمه من تطبيقات في دراسة المجتمع والسنن التاريخية، فقد لاحظت عناية في الدراسات العربية ربما فاقت المكونات الأخرى في مدرسة الصدر. ينظر مثلاً:

- مصادر التفسير الموضوعي، د. أحمد رحمانى، مكتبة وهبة، القاهرة ١٤١٩هـ.
- التفسير الموضوعي في كفتي الميزان، د. عبد الجليل عبد الرحيم، عمان ١٩٩٢.
- منهج البحث في التفسير الموضوعي للقرآن، د. زياد خليل محمد الدغامين، عمان ١٤١٦هـ.

- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، الأردن، ١٤١٨هـ.

أيضاً: التفسير الموضوعي: مقارنات بين السيد الصدر وآخرين، جواد علي كسار، مؤسسة الثقافيين، بيروت، ٢٠٠٠م.

التعبوي. فلو سرنا على هذا النمط من الإحياء فسرعان ما نقع بالتكرار، ومن ثمّ نحرم أنفسنا من الاطلاع على البنى التحتية التي انتجت الحركة الإحيائية الهائلة التي قادها الصدر الثاني. ويتغيينا البناء التحتي وعدم اكتشافنا له سنحوّل الصدر الثاني إلى ظاهرة طارئة برزت على الساحة ثم ما لبثت أن انطفأت وخبا وهجها وانتهى كلّ شيء، من دون أن نعطي أنفسنا أو الآخرين فرصة اكتشاف المنهجية التي افرزت هذه الشخصية بفعلها الإحيائي الضخم، لكي يكون بالمقدور مواصلة ذلك النهج.

وغير خفي ان هذا ما تتبناه وترغب به احدى القراءات السائدة في الساحة عن الصدر الثاني، والاسلوب التعبوي المسطح في الإحياء يغذي هذه القراءة، ويهبها زاداً مجانياً يعزز موقعها، ويزودها بما يقوي منطقتها، وهي تزعم: أنظروا هذا هو الصدر؛ عدّة شعارات، وبضعة خطب جمعة، وفورة هياج شعبي عصفت بأجواء العراق ثم ذوى وتلاشى وانتهى كلّ شيء، فعلام هذه العناية بالصدر!؟

ثم ان هذا النمط المبتسر من الإحياء يقوّض الجوانب العملاقة في الشخصية الصدرية ويحجمها في نطاق اهتمامات الساحة العراقية في إطار لحظتها الحاضرة. وهذا ما بتنا نلمسه سريعاً في الساحات التي نحتك بها، منها الساحة الإيرانية التي عجزت عن أن تقول شيئاً بعد أن انطفأ وهج الحدث، وابتعدنا عن لحظة الاستشهاد (لحظة الذروة) بفاصلة أقل من شهرين. وعندما مرت الذكرى السنوية الأولى لسقوط الصدر صريعاً في سبيل دين الله وكرامة الإنسان لم تبس هذه الساحة ببنت شفة، ويقيناً أن

بعض أسباب ذلك يعود إلى أسلوب الإحياء الذي غيَّب كبرى إنجازات الصدر على الصعيدين الحوزوي والفكري العام، وتعاطى مع ظواهر الحالة الإحيائية الصدرية، كصلاة الجمعة، وإشاعة ثقافة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وترسيخ الممارسات الشعائرية خاصة تلك التي ترتبط بسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، وتقوية بنيان حوزة النجف الأشرف وربط الناس بها؛ تعاطى وإياها مفصولة عن مرتكزاتها العلمية والفكرية التي تشهد للصدر الثاني بقدم راسخة وقامة سامقة في مضماري العلوم الدينية الحوزوية والفكر الإسلامي المعمق، لا تقل في عمقها وألقها عما قدمه بقية رموز الإحياء الإسلامي في العراق والعالم الإسلامي إن لم ترد عليها.

للأسف لا يزال أسلوب الإحياء الأحادي هو الذي يهيمن على الساحة حتى لحظة كتابة هذه السطور، مما يهدد بنتائج عكسية على الساحة المتفاعلة مع الصدر، ويعود بأضرار - صرنا نلمسها بوضوح - حتى على الحالة التعبوية ذاتها.

مثال من إرادة النهضة

إذا ما أردنا أن نستحضر رموزاً إحيائية كبيرة حضرت لها مواقع راسخة في ذاكرة المسلمين خلال قرن من الزمان لرأينا أن السبب الأهم يعود موضوعياً إلى الجهود الحثيثة التي بُذلت لاكتشاف مرتكزاتها المعرفية كلامياً وفكرياً وفقهياً وقرآنياً، ومن ثم تأسيس مشروعاتها في الإحياء والنهضة على أساس تلك البنى العميقة. هكذا مرّ الحال مع جمال الدين



الأفغاني، محمد عبده، عبد الحميد بن باديس، عبد الرحمن الكواكبي، محمد إقبال، محمد حسين الثاني، محمد حسين كاشف الغطاء، محمد جواد البلاغي، هبة الدين الشهرستاني، حسن البنا، نواب صفوي، عبد الحسين شرف الدين، محسن الأمين العاملي، محمد جواد مغنية وغيرهم كثير.

لقد اشتغلت آلية التحليل والتنظير حيال فكر هؤلاء وما خلفوه من آثار، بحيث صدرت عنهم عشرات الكتب المستقلة ومئات البحوث وألوف المقالات وعقدت حولهم مئات الندوات والمؤتمرات، حتى انتهى الأمر لتبلور أسمائهم كراداة للإحياء الديني، وتميّزت مناهجهم وما اقترحوه من سبل للإحياء والنهضة^(١).

وليس الصدر الأول والصدر الثاني بدعاً من هؤلاء الرجال في ضرورة أن تخضع دراستهما إلى منهجية الإحياء الشامل المتوازن، ويتم الابتعاد في التعاطي معهما عن الأحادية والتسطيح.

أجل، نعترف أن هذه المنهجية صعبة وهي بالتأكيد أشقّ من أسلوب الإحياء الأحادي. كما أن ساحتنا العراقية لم تتدرب بعد بما فيه الكفاية

(١) ينظر كمثال لهذه الدراسات: الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني، الترجمة العربية، بيروت ١٩٧٧. أيضاً: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، د. فهمي جدعان، بيروت ١٩٨١. كذلك: الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري، مرتضى مطهري، طهران ١٤٠٢هـ

ولا يخفى ان الكتاب الأول يتبع منهجية علمانية، والثاني منهجية إسلامية لكنها اقتصائية، والثالث منهجية إسلامية تجمع بين رموز الشيعة والسنة.

للتعامل مع هذه المنهجية. لكن ليس ثمَّ شكَّ أنها الأكفأ والأوفق حظاً في التعريف برجالنا وفي طليعتهم صدرا العراق، وتحويلهم من ظواهر موسمية طارئة إلى خطوط راسخة لها حضورها الدائم في الوعي والحركة^(١).

بديهي لا تعني هذه الملاحظة إهمال الجانب التعبوي في شخصية الصدر الثاني بل تعني النظر إليه مؤسساً على الجانب الأول. وفي الوقت ذاته لا تعني تجريد الشخصية عن البعد الديني والدعوي والغيرة على دين الله تحت طائلة تضخيم الجانب الفكري والنظري بحيث يبدو الصدر كأنه منظر وحسب لا تشغله هموم الدين ولا تعنيه قضايا شعبه، بل لا بد أن يكون الدين هو المحور، وأن التوجه إلى التأصيل والتجديد الفكري هو جزء من رسالة الدين نفسه.

لكي تخرج هذه الأسطر عن طابعها المجرد نمّر على إشارات سريعة في الجانب الفكري تأتي بمتزلة الأرضية لتفسير بعض خطوات الحركة الإحيائية التي قادها الصدر الثاني خلال السنوات الأخيرة من حياته المباركة.

كما ستطلق هذه المختارات الفكرية من فرضية مؤداها أن المخاطب بهذا المقال يعرف سلفاً ما أثير عن السيد الشهيد الثاني من كلام حيال حرakte الإحيائية وما رمي به قبل استشاده.

(١) قدم كاتب هذه السطور تطبيقاً أولياً لهذه الفكرة في مقال: منهجية الإحياء بين



١- مواجهة الرؤية الساكتة

ينطلق السيد الشهيد الثاني من فهم فقهي مؤسس على فهم كلامي (رؤية معرفية في فهم الإسلام نفسه) يفيد بأن المسلمين مسؤولون عن تطبيق الأحكام الإسلامية وامتثالها بكل تفاصيلها على الصعيدين الفردي والاجتماعي وفي نطاق الأحكام الخاصة والعامة، في مقابل فهم آخر يقول بتعطيل بعض الواجبات في عصر الغيبة.

حاضر العالم الإسلامي

في البدء يقدم السيد الشهيد تصوراً لوضع العالم الإسلامي حاضراً انطلاقاً من حيثيات ثلاث، هي:

أولاً: الأطروحة الإسلامية نفسها التي سرعان ما راحت تعاني الانحراف بعد غياب النبي الأقدس صلى الله عليه وآله، متمثلاً بـ«انقطاع التطبيق الناجح للشريعة الكاملة»، ثم بـ«ابتناء الحكم في البلاد الإسلامية على أساس من المصالح والسياسة الظالمة المنحرفة»، وأخيراً: «ضعف المستوى الأخلاقي لدى الناس بشكل عام، وتقديهم مصالحهم الشخصية على اتباع تعاليم دينهم سواء على الصعيد الفردي أو الاجتماعي»^(١).

(١) تاريخ الغيبة الكبرى، محمد الصدر، دار التعارف، بيروت ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ص

٢٦٦-٢٦٧. وسأشير للمصدر بعدئذ بلفظ: الغيبة الكبرى فقط.

وأود أن أنبه إلى ان السيد الصدر انتهى من تأليفه في ٩ تشرين الأول ١٩٧٠، وبذلك يكون عمره عند تأليف هذا الكتاب (٢٨) عاماً فقط.

يضاف إلى هذه الصورة عامل آخر في الوسط الشيعي يتمثل بغيبة الإمام المهدي عليه السلام « تلك الغيبة التي توجب للغافل عن البرهان الصحيح، الشك بل الإنكار»^(١).

وبفعل ما حلَّ بالإسلام في هذه العصور التي نعيشها «أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وطورد المخلصون على إخلاصهم وحسن تصرفهم»^(٢).



ثانياً: تحديات الأنظمة الحاكمة والحضارة الغربية: ثم تفاعل كبير بين الاتجاه العلماني المضمّر أو الصريح الذي قامت عليه مشروعات الأنظمة القومية والقطرية في بلاد المسلمين وبين الضغط الاستعماري الغربي على العالم الإسلامي.

هذا ما تبّه إليه الشهيد الصدر الثاني أسوة ببقية رجال الإحياء والنهضة وجميع العاملين المخلصين في العالم الإسلامي.

فعلى صعيد الأنظمة الحاكمة يسجّل السيد الصدر ثلاثة عناصر مشتركة حيالها، ينطلق العنصر الأول من حقيقة تفيده أن الأنظمة السابقة التي توارثت الحكم في بلاد المسلمين حتى سقوط السلطنة العثمانية عام ١٩٢٣م كانت على انحرافها تقوم: «باسم الإسلام وعلى أساس تطبيقه» على حين: «لا تجد اليوم على وجه الأرض حاكماً على الإطلاق يمثل هذا الاتجاه، بعد

(١) الغيبة الكبرى، ص ٢٦٧.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٤٣٤-٤٣٥.

أن اتجهت أساليب الحكم إلى المادية والعلمانية»^(١).

أما العنصر الثاني فيتمثل بالتعقيد الكبير الذي راحت تتسم به مؤسسة الدولة، حتى إن أجهزتها أخذت تبتلع الشعوب والمجتمعات الإسلامية بحيث امتدت الدولة على المساحة الكاملة التي ينبغي أن تستوعب المجتمع والدولة وألغت كرامة المجتمع ووجوده تماماً، من حيث التضخم الذي أصابها «في الجهاز العسكري وجهاز الشرطة، ونوع الأسلحة، وشكل الحكم، وأسلوب التجسس والمطاردة، وتنظيم الدولة، والأحزاب والتكتلات إلى غير ذلك»^(٢).

إن الأساس في وظيفة الدولة أن تكون مدافعة عن أطروحة المجتمع وخدمة له. بيد أن انهيار الكيانات السياسية التي كانت تحكم المسلمين باسم الإسلام، وصعود نجم الدولة القومية والقطرية فيما أطلق عليه بعصر الاستقلال ومرحلة التحديث، أفضى إلى أن تبتلع الدولة الأمة وتسحقها تماماً لتحل محلها»^(٣).

أما العنصر الثالث في محنة المسلمين حاضراً مع أنظمتهم فيتمثل بوقوف

(١) الغيبة الكبرى، ص ٤٤٤.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٤٤٤-٤٤٥.

(٣) وهذا ما دعى مفكراً من طراز برهان غليون أن يخترل المحنة العربية ويكتفها بوقوف الدولة المترسبة عن الحداثة الغربية ضد الأمة، في كتابه المهم: المحنة العربية: الدولة ضد الأمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٣.

هذه الأنظمة وحمايتها لكل ما يهدد هوية المسلمين وانتمائهم الذاتي، وذلك عكس ما كان عليه الموقف في السابق حيث كان المجتمع يتعرض أيضاً لتيارات إلحادية وأساليب هدامة «إلا أنها كانت ضعيفة، مرفوضة من قبل الرأي العام المسلم، ومطاردة من قبل السلطات الحاكمة»^(١).

هذه الصورة التي تتحالف فيها الدولة مع أعداء المسلمين يقدم لها السيد الصدر الوصف التالي قبل أكثر من ثلاثة عقود من الآن: «وأما التيارات الإلحادية ونحوها اليوم، فهي مدعمة بتفكير المفكرين وتأليف المؤلفين، ووسائل الإعلام العالمية، ومدعمة أيضاً بالتأييد المطلق من قبل كثير من الدول، تُبذل عليها الميزانيات الطائلة والأساليب الهائلة. وتطارده من يعارضها ويدعو الناس إلى رفضها والتوجه إلى الحق المتمثل بالإسلام، وتعاليم الله»^(٢). أما ما صار إليه الواقع في اللحظة الحاضرة، وبعد أكثر من ثلاثين عاماً من النص الصدري، فهو أمر متروك لمعايشتنا الحسية ومحتتنا العملية مع هذه الأنظمة في كل مكان.

بشأن الغرب فليس هناك ما يدعو السيد الشهيد الثاني أن يتنكر لما حققه من مكاسب ضخمة على مستوى العلم ومعطياته الهائلة في المجال الاجتماعي وفي الجانب الفكري والثقافي، بل ومدح النتائج الرائعة للتقدم

(١) الغيبة الكبرى، ص ٤٤٥؟

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٤٤٥.



العلمي^(١)، لكن ذلك لم يمنعه رؤية الجانب الاستعماري الاستغلالي للحضارة الغربية في علاقتها مع العالم الإسلامي، إذ اصطف الغرب مع الاتجاهات المناوئة للضغط على المسلمين في تكوين «تيار الردة عن الإسلام، وأقصد به التيارات المعادية للإسلام، والتي تحمل بين طياتها معاني الخروج عنه والتبري من عقيدته، بما فيها تيار التبشير المسيحي الاستعماري، وتيار الحضارة الغربية المبني على التحلل الخلقي وإنكار المثل العليا... تلك التيارات التي استطاعت أن تصطاد من أمتنا الإسلامية ومن العالم كله ملايين الأفراد»^(٢).

ثالثاً: الحيثية الثالثة التي يطل عليها السيد الصدر في توصيف حاضر العالم الإسلامي تتمثل بواقع المسلمين وما آلوا إليه بعد الذي حلّ بالأطروحة الإسلامية من الداخل والخارج. فالمسلمون يواجهون ضغوطات الإرهاب والإغراء معاً بما لا نظير له «لا في عصر النبوة ولا في عصر الظهور»^(٣) هكذا يسجّل صراحة ودون لبس.

(١) ينظر: اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني، محمد الصدر، الكتاب الرابع من

موسوعة الإمام المهدي، دار التعارف، بيروت ١٩٧١، ص ١٣-١٧. وقد انتهى السيد

الشهيد من تأليف هذا الكتاب في ١٤/١/١٩٧٦، وبذلك يكون عمره عند التأليف (

٣٤) عاماً.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٢٦٨.

(٣) الغيبة الكبرى، ص ٤٣٥.

بين الإرهاب والإغراء يسير المسلمون على أنصال حادة تهدد وجودهم ومصيرهم كل لحظة. فإذا ما أختار المسلم الإخلاص فعليه من جهة: «تحمل التضحيات والمشاق في سبيل إيمانه وتمسكه بإسلامه، تلك المشاق التي لم تكن موجودة في عصر النبوة ولن تكون موجودة في عصر الظهور»^(١). كما ينبغي له من جهة أخرى مواجهة إغراء عصر الفتن والانحراف وما يتسم به «من جمال وحضارة وتنظيم، وما لا يتبع تياراته وحكامه من ضمان للمال والشهرة والراحة في الحياة»^(٢).



يضاف إلى عامل الظلم والإغراء عامل آخر يتمثل بـ «ضعف التبليغ الإسلامي وما يسببه من الجهل والفراغ العقائدي»^(٣). وحين تعيش المجتمعات المسلمة ضغوطات هذه الكماشة من الطبيعي أن يفشو فيها قلة الإحساس بالمسؤولية، ويبدو عليها الهزال والضعف، وإن كان لها من القوة أرصدة أخرى مذكورة، تحتاج إلى من يكشفها ويفجر مكنوناتها.

ما العمل؟

بإزاء هذا الواقع يقدم السيد الصدر رؤيتين للتكليف الشرعي في عصر الظهور، يمكن متابعتها كما يلي:

الرؤية الأولى: هي التي تختار السكوت والعزلة وتؤكد جانب

(١) الغيبة الكبرى، ص ٤٣٤.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٤٣٦.

(٣) الغيبة الكبرى، ص ٤٦٠.

العبادات الفردية وإهمال العمل الاجتماعي تماماً. ومع أن بعض أصحاب هذه الرؤية مأخوذون نفسياً بهيبة الانحراف وواقعون تحت سطوة الواقع المؤلم، إلا أن فيهم من يوجّه موقفه شرعاً على أساس فهم خاص للإسلام والتكليف الشرعي يؤدي به إلى الترام هذا الجانب، والانحياز إلى موقف عملي سلبي ضدّ العمل الإسلامي العام بجميع صنوفه.

هذه الرؤية تؤدي بالبعض على الصعيد العلمائي إلى «الاقتصار في العمل الإسلامي عند العلماء التقليديين على التدريس وإقامة الجماعة والإفتاء إذا سألهم أحد، ولا شيء غير ذلك ما عدا مصالح شخصية لا تمت إلى المجتمع بصلة»^(١).

على حين تفضي علي صعيد أبناء المجتمع عامة إلى «التركيز في العمل الإسلامي على جانب العبادات، والإهمال الكامل أو الغالب للعلاقات الاجتماعية العامة، ولوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوها من المسؤوليات العامة في الإسلام، مما هو قليل في مجتمعاتنا المسلمة منذ عهد غير قريب»^(٢).

يتسلح أصحاب هذا الاتجاه بعدد من الأمور منها فهم خاص للتكليف في عصر الظهور ينحو إلى السلبية، والى العزلة والتقية والسكوت على الظلم والحاكم الظالم. وهذه مسائل يستفيض السيد الشهيد بمناقشتها وفق

(١) الغيبة الكبرى، ص ٩٤ - ٩٥.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٩٤.

رؤية كلامية فقهية، ليخرج بنتائج مهمة في توجيه ما تحث عليه كثير من أخبار عصر الغيبة من العزلة، تنسجم مع القواعد الإسلامية العامة التي تفيد عموم الجهاد وعدم تعطيل أحكام الإسلام في هذا العصر.

ينطلق في نقاش ذلك كله من السؤال التالي: «هل من وظيفة الفرد المسلم هو السلبية والانعزال عن الأحداث، وعدم وجوب إعلان المعارضة ومحاولة تقويم المعوجّ من الأفراد والأوضاع، أو إن وظيفة الفرد في نظر الإسلام هو العمل الاجتماعي الفعال والجهاد الناجز في سبيل الله ضدّ الظلم والطغيان؟»^(١).



من الواضح أن لكيفية التعاطي مع الانتظار أثراً مباشراً - في الوسط الشيعي على الأقل - في توجيه المجتمع بهذا الاتجاه وذاك. ولا يخفى وجود حالة من الانتظار السلبي تجعل انتظار الإمام المهدي عجلت سبباً «للتكاسل عن الإصلاح وترك العمل الاجتماعي وعدم معارضة الظلم والظالمين»^(٢). وقد يتماهى بعضهم للقول إنه: «يجب توفير الظلم والجور وترك العمل استعجالاً لظهور المهدي عجلت ... انطلاقاً من الاعتقاد بأن المهدي عجلت لا يظهر حتى تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً»^(٣).

(١) الغيبة الكبرى، ص ٣٧٢.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٣٤٦.

(٣) الغيبة الكبرى، ص ٣٤٦.

المرتكزات الكلامية للرؤية الثانية

الرؤية الثانية: وهي تفيد وجوب العمل الإسلامي العام انطلاقاً من عدد من المرتكزات الكلامية، منها:

أولاً: أن كل ما في الكتاب والسنة واجب والمسلمون مسؤولون عن امتثاله وتطبيقه، وليس ثمّ ما يخصه أو يرفعه حتى انتظار المهدي ع. يكتب السيد الصدر: «إن الأحكام الإسلامية الموجودة في الكتاب والسنة كانت ولا زالت معروفة وسارية المفعول، ولا زال الناس مسؤولين عن تطبيقها وامتثالها بكل تفاصيلها. ومن الواضح أن الاعتقاد بوجود المهدي ع لا يرفعها ولا يخصّها لضرورة الدين وإجماع المسلمين»^(١). على هذا الضوء ينبغي لكل مسلم أن «يراجع الأحكام الإسلامية ليعرف ما فيها من جوانب شخصية وجوانب عامة، لكي يطبقها على حياته الخاصة والعامة، ويباشر العمل الاجتماعي العام طبقاً للتكليف الإسلامي بالجهاد أو الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر أو مكافحة الظلم»^(٢).

ثانياً: من المرتكزات الكلامية الرائعة التي يطرحها السيد الشهيد الثاني لوجوب العمل هو مقتضى الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وآله، إذ لا معنى لهذا الإيمان مع ترك الالتزام بشريعته وإهمال العمل بشيء من تفاصيلها. يكتب: «فإن معرفة النبي صلى الله عليه وآله بصفته حامل مشعل

(١) الغيبة الكبرى، ص ٣٤٩.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٣٤٩.

العدل إلى العالم لا يكون بالاعتراف التاريخي المجرد بوجوده ووجود شريعته، بل بالمواظبة التامة على الالتزام بتطبيق تعاليمه والأخذ بإرشاداته وتوجيهاته، وإلا كانت الفرد منكرراً للنبي صلى الله عليه وآله على الحقيقة وإن كان معترفاً بوجوده التاريخي»^(١).

ثالثاً: من المرتكزات الكلامية التي تتصل بالوسط الشيعي خاصة والقواعد الشعبية الموالية للإمام المهدي عليه السلام، هو ما ذكره من أن الإيمان بوجود الإمام المهدي عليه السلام وانتظاره يلزم العمل بالإسلام في أحكامه الفردية والعامة لأن هذا هو ما يُرضي الإمام. يكتب: «يجب على الفرد أن يجعل نفسه على مستوى رضاء الإمام المهدي عليه السلام قبل ظهوره وبعده. ولن يكون كذلك إلا إذا كان ممثلاً للأحكام الإسلامية بدقة سواء ما كان منها على المستوى الشخصي أو على المستوى الاجتماعي. ولن يُحرز رضا الإمام بطبيعة الحال بالانحصار على الجانب الشخصي من أحكام الإسلام، لأن في ذلك عصياناً للأحكام الاجتماعية والإصلاحية، وهو ما لا يرضاه الله تعالى ولا رسوله ولا المهدي»^(٢).

رابعاً: يواجه المسلمون عدداً من الأحاديث التي تدعو للركون إلى الحاكم حتى مع انحرافه وظلمه. وهذا ما نظرت له مدرسة الفقه السلطاني؛ فقه الطاعة والسكوت على الحاكم الظالم. لقد ناقش الصدر مرتكزات هذا

(١) الغيبة الكبرى، ص ٣٣٧.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٣٤٨-٣٤٩.



الفقه بعمق^(١)، وانتهى بوضوح إلى «أن الأمر بالصبر مع الحاكم المنحرف وتحمل ظلمه وتعسفه بالسكوت، غير مطابق للقاعدة الإسلامية. والأخبار الدالة عليه لا يمكن قبولها بحال، وذلك لأنها تعاني من الطعن في صدورها عن النبي ﷺ وفي دلالتها على المطلوب أيضاً»^(٢).

أما وجوب الطاعة فهو متعلق بالحاكم الشرعي العادل. يكتب: «فإن وجوب الطاعة خاص بالحاكم الشرعي العادل»^(٣).

أما إذا كان الحاكم «يأمر بمعصية الله أو يشرع قانوناً منحرفاً أو يؤسس عقيدة باطلة، فلا طاعة له»^(٤). من الواضح أن الأنظمة في بلاد المسلمين حاضراً تجمع بين الأمر بالمعصية السلوكية والتشريع الوضعي وإشاعة العقائد الفاسدة المنحرفة، فلا طاعة لها، وهي بذلك تفتقد الشرعية بمعناها الديني، فضلاً عن افتقارها إليها بالمعنى الذي تقرره الفلسفة السياسية المعاصرة، حيث لا تلقى أغلب هذه الأنظمة قبولاً من شعوبها وتأييداً يسمح لها بممارسة السلطة.

خامساً: من المرتكزات الكلامية أيضاً معالجة السيد الشهيد لأخبار العزلة في عصر الفتنة، وهي كثيرة لدى الفريقين، إذ ينتهي بعد بحث واسع ومكثف إلى أن العزلة لا تعني «الانصراف التام عن المجتمع والاعتكاف

(١) تنظر هذه المناقشات: تاريخ الغيبة الكبرى، ص ٤٠٨ فما بعد.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٤١٠.

(٣) الغيبة الكبرى، ص ٤١٢.

(٤) الغيبة الكبرى، ص ٤١٢.

في الزوايا»^(١)، بل هي وسيلة للعمل في سبيل الله وتدرج في أحد مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «وكم قد عملت السلبية في التاريخ أعمالاً كبيرة وبعيدة الأثر، قد تعدل الأعمال الإيجابية، بل قد تفوق بعضها بكثير»^(٢). علاوة على أنها إذا كانت «تتضمن مفهوم المقاومة أو المعارضة أو الجهاد ضدّ وضع ظالم أو أساس منحرف، فإنها تكون واجبة بوجوب الجهاد نفسه، وتكون في واقعها عملاً اجتماعياً متكاملًا»^(٣).

في المقابل إذا كانت العزلة «تتضمن تركاً للعمل الاجتماعي الواجب في الإسلام، فهي العصيان والانحراف بعينه»^(٤). وبذلك لا ينبغي أن تكون العزلة «كلية ومطلقة، بل الواجب اعتزال التيار الذي يخاف المكلف منه على نفسه أو دينه. وأما اعتزال المجتمع بالكلية فهذا أمر غير لازم بل غير جائز إسلامياً، إذا كانت هناك فرص للعمل الإسلامي من جهات أخرى»^(٥).

أخيراً يصير السيد الشهيد إلى تقرير القاعدة التالية: «فالاندفاع في أي المسلكين العمل والعزلة إلى نهاية الشوط غير صحيح، وإنما الصحيح هو قصر السلوك على مقتضيات العدل ومتطلبات الإسلام، فإن كان العمل واجباً كان على الفرد أن يعمل وإن كانت العزلة واجبة كان على الفرد أن

(١) الغيبة الكبرى، ص ٣٩٥.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٣٨٦.

(٣) الغيبة الكبرى، ص ٣٨٥.

(٤) الغيبة الكبرى، ص ٣٩٢.

(٥) الغيبة الكبرى، ص ٣٨٦.



يعتزل»^(١).

سادساً: من المرتكزات الأخرى هي الطريقة التي يعرض بها مسألة التقية، وكيف تتحول في إطار هذا الفهم إلى وسيلة لديمومة العمل ونموه، كما سيأتي توضيح ذلك في نقطة لاحقة.

سابعاً: الحصيلة التي ينتهي إليها السيد الشهيد الثاني من مجموع هذه المرتكزات الكلامية هي: «الالتزام بالتعاليم الإسلامية الحقة... وهذا من واضحات الشريعة، فإن مقتضى شمول تعاليمها وعمومها لكل الأجيال، وجوب إطاعتها وتطبيقها على واقع الحياة في كل الأجيال، سواء ما كان على مستوى العقائد والمفاهيم، أو ما كان على مستوى الأحكام»^(٢). كما يضيف في موقع آخر: «إذن فتكون الأحكام الإسلامية الصادرة المعلنة منذ عصر الرسالة، نافذة المفعول بكل تفاصيلها وخصائصها، من دون معارض ولا ناسخ، ويجب على الفرد إطاعتها وامتثالها»^(٣).

وإذا كان هناك عدة خطوط يزعم كل واحد منها أنه الذي يمثل الفهم الصحيح، والطريق المنقذ، والمنهاج السليم، فإن السيد الشهيد يسجل بوضوح ناصح إلى أن البحث الكلامي أثبت في مرتبة سابقة بأن «المطلوب إسلامياً، هو متابعة خط الأئمة عليهم السلام الذين هم البقاء الأمثل للنبوّة والإسلام... فلا بد من التمسك به والسير عليه خلال الغيبة الكبرى، لكي ينجو به المسلم

(١) الغيبة الكبرى، ص ٣٩٥.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٣٦٧.

(٣) الغيبة الكبرى، ص ٣٦٨.

من الفتن وبتعد عن مزالق الانحراف»^(١).

ورؤية مثل هذه تفضي لا شك إلى وجوب العمل للإسلام لتطبيقه وامثال أحكامه، ورفع ما يمنع عن ذلك من عوائق مهما كانت طبيعتها وأياً كان مصدرها.

٢. من التغيير إلى الدولة

هل يقتصر النظر الفقهي للسيد الشهيد على الجانب السلبي المتمثل بمكافحة الظلم ومواجهة الحكام، وممارسة الإصلاح الاجتماعي عبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أم إنه يتجاوز ذلك إلى الجانب الإيجابي المتمثل بتأسيس الدولة الإسلامية وإقامة نظام الحكم الإسلامي؟ لا أريد أن أنسب إلى السيد إلا القدر الذي أتقن من صحة نسبته إليه.

أول ما يبدو لنا أن تلك المرتكزات الكلامية التي ساقها لوجوب العمل هي بنفسها خير دليل على إيمان صاحبها بإقامة نظام الحكم الإسلامي، على اعتبار أن جزءاً من أحكام الإسلام يبقى معطلاً بغياب هذا النظام.

أما عندما ننتقل إلى النصوص التي بين أيدينا فهي تدلّ أنّ الصدر الثاني يؤمن صراحة بأهمية الدولة وأن التطبيق الديني يبقى من دونها ناقصاً، فالإسلام أسس دولة كاملة في أول البعثة، حيث «مارس النبي ﷺ لأول مرة هذه الدولة بنفسه»، و«دعا إلى تأسيسها في كل مجتمع يؤمن بالإسلام،



(١) الغيبة الكبرى، ص ٣٧٢.

وأوضح أنه بدونها يكون التطبيق الديني الإسلامي ناقصاً^(١).

ثم إن السيد الشهيد يتحدث في ثانيا كتاباته عن النظام الاقتصادي والإداري والقضائي في الإسلام وغير ذلك من النظم التي لا يمكن تصوّر تحققها على الأرض من دون أن يكون هناك نظام حكم إسلامي يوطرها. على أن من المفيد أن نشير إلى أن ما أدلى به من رؤى في كتبه المتأخرة حيال ولاية الفقيه فيها دلالات كافية على إيمانه بالدولة، وإن كان لم يفصح عن التفاصيل.

أجل، ثم في عدد من النصوص إشارة إلى طبيعة الفكر السياسي الذي يتبناه يمكن لدراسة مستقلة أن تتوفر على ذلك وتخرج بحصيلة مهمة على هذا الصعيد.

ففي إحدى هذه النصوص يحمل على تصور تقليدي عند فئة من الإسلاميين يساوي بين الحكم العادل وبين الحكم الاستبدادي الذي يكون فيه السلطان «هو الحاكم بأمره، المطلق العنان في التصرف، وليس له مجلس وزراء، ولا برلمان ولا لجنة استشارية ولا هيئة قضائية» ويدينه بالقول: «إن هذا بعيد عن روح الإسلام كل البعد. فإن الإسلام وإن كان يرى للرئيس الإسلامي صلاحية مطلقة في التصرف، إلا أنه لا يتوقع منه القيام فعلاً بكل شيء، بل إنه يوزع صلاحياته على المؤمنين الموثوقين من شعبه، كل حسب قابليته وموهبته، فهناك قضاة وهناك مستشارين وهناك سلطة تنفيذية

(١) اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني، ص ٥٠٣.

كاملة، بحسب ما يحتاجه كل ظرف من سلطات»^(١).

يعود تاريخ هذا النص إلى أكثر من ثلاثين عاماً مضت يوم كان السيد الشهيد في الثامنة والعشرين من عمره، أما عن التصور الذي انتهى إليه في أواخر حياته، فذلك يحتاج إلى بحث مستأنف.

من اللفتات الأخرى في فكره السياسي هو ما يراه من مسؤولية الدولة الإسلامية عن الآخرين وما يقع عليها من واجب النصرة والهداية انطلاقاً من ولايتها، حيث يسجل: «إن من أوضح تعاليم الإسلام وواجباته هو ولاية الدولة الإسلامية على العالم ووجوب هدايته إلى الحق. ولم تكد تتخلى أي دولة إسلامية في التاريخ عن هذا الواجب، بل طبقت بحسب الإمكان تطبيقاً واقعياً أو شكلياً»^(٢).

٣- الإسلام مناهج الثورة

ككل رادة الاصلاح والإحياء في العالم الإسلامي يؤمن السيد الشهيد الثاني ان الدين هو أطروحة التغيير في العالم وهو الجهاز المحرك للتأريخ، مع خصوصية واضحة لدور الإسلام في العالم الإسلامي.

فعن دور الدين عامة ينطلق السيد الشهيد من قناعة تامة في أن الدين «كان ولا يزال أساس الثورات والمطالبة بإقامة الحق والعدل على مدى التأريخ»^(٣).

(١) الغيبة الكبرى، ص ٩٢-٩٣.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٩٦.

(٣) الغيبة الكبرى، ص ٣٤٧.



وبشأن الإسلام خاصة فهو منهاج النهضة في العالم الإسلامي لاسيما في العصر الحديث. ف«ابتداءً بغزو نابليون لمصر وانتهاءً بغزو الإنكليز للعراق خلال الحرب العالمية الأولى» واجه المسلمون الاستعمار مواجهة دموية «وقد كان الاتجاه العام لهذه المواجهات هو التضحية في سبيل الإسلام»^(١).

لكن ما حصل خلال العقود الأخيرة هو أن «حاولت المادية المعاصرة السيطرة على الأيديولوجية العامة للثورات في عالم اليوم»^(٢).

رأي في الثورة

ما دام الحديث قد بلغ هذه التخوم من المفيد أن نمر على معنى ذكره السيد الشهيد في ضرورة الثورة وطبيعتها وتوقيتها. ما يراه بهذا الشأن ان الظلم إذا نفشى في المجتمع وشاع الحيف بين الناس، وبلغ السيل الزبى فلن يبقى من طريق إلا الثورة الدموية التي تجتث مرتكزات الظالمين وتستأصلها من الجذور وتقضي على الظالمين قضاء تاماً. وثورة مثل هذه لا يمكن أن تنطلق إلا حين يستشري بين المجتمع شعور عام بأهميتها يفضي إلى موقف مسؤول واع ومنظم، لكي تكون الثورة ممكنة وانتصارها مأمولاً. بتعبير آخر يبدأ دور الثورة الشاملة عندما يئس المجتمع والمصلحون من الإصلاح، وعندما تستنفد وسائط الإصلاح مفعولها وتصل العملية الإصلاحية إلى الطريق المسدود، وكذلك عندما يصل الانحراف والظلم

(١) اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني، ص ٦٢٣.

(٢) اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني، ص ٦٢٣ - ٦٢٤.

إلى مستوى الانقلاب الشامل على موازين الاستقامة والعدل، فعندئذ لا مفر عن الثورة لإعادة الأمور إلى نصابها، وقلب الحالة إلى ضدها، ليتسنى ممارسة البناء الإجتماعي من جديد، في ظل مشروع حضاري آخر.

ما يراه السيد الشهيد ان الإسلام مارس هذا المشروع التغييري الثوري الشامل، حيث « كانت هذه الفكرة في صدر الإسلام مطبقة عملياً، ولكنها غير مفهومة للعموم لعدم استيعاب الذهنية العامة لها»^(١).

ثم انقطع هذا المسار عن تأريخ المسلمين خاصة وتأريخ البشرية عامة لئستأنف مجدداً مع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م. فقد كان من مزايا هذه الثورة على ما يذهب إليه السيد الصدر: «إنها تحتوي لأول مرة في البشرية المعروفة على الشعور الاجتماعي العام الواعي المنظم بالظلم والحيث، وانه لا يزول إلا بالثورة الدموية التي تجتث الظالمين من جذورهم، لكي يتسنى البدء بالبناء الاجتماعي من جديد»^(٢).

ما يبدو لي ان السيد الشهيد يقرن بين الثورة الشاملة وبين ارتكازها على أطروحة فكرية ومشروع حضاري متكامل، وإلا فتأريخ المسلمين حفل بثورات دموية كثيرة، لكنها لم تقترن بأطروحات فكرية أو بأيديولوجية شاملة ترتكن إليها. كما إنها كانت محدودة في نطاق جغرافي وبشري معين.

(١) اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني، ص ٦٢٨.

(٢) اليوم الموعود، ص ٦٢٨.



الطريف ان السيد الشهيد ينطلق من هذا المعيار في تقويم أبرز ثورات الواقع الأوربي بعد عصر النهضة، فيأخذ على الثورة الانكليزية إنها: «كانت بيضاء غير دموية فهي لا تنطبق على هذه الفكرة تماماً»^(١). وأما «الثورة الأمريكية فقد كانت أقل تنظيمياً وأضعف في الأيديولوجية الفكرية من الثورة الفرنسية»^(٢).

بذلك بقيت الثورة الفرنسية هي وحدها التي تميزت في أوروبا لأنها استطاعت «أن تنظر إلى البشرية نظرة شاملة، فتقرن الثورة بإعلان حقوق الإنسان والمواطن، فتعترف للمظلومين ببعض الحقوق الرئيسية في نظرها»^(٣). من البديهي ان هذا الكلام يدخل في فهم الثورة الفرنسية من دون أن يعني الحكم على صحة مشروعها و«الاعتراف بصحة ما ورد فيه، أو أن واضعيه قد نجحوا في إعطائه الصيغة العادلة، كيف وقد ناقشنا ذلك وأبرزنا زيفه بوضوح في كتابنا: نظرات إسلامية في إعلان حقوق الإنسان»^(٤).

ما يبدو من هذه الرؤية ان الثورة الشاملة عند السيد الشهيد هي ممارسة ترتبط بانقلاب حضاري كلي في حياة البشرية يقوم على أساس مشروع فكري جديد، ونظام جديد منبثق عن ذلك المشروع، وقانون جديد يضبط الحياة الإنسانية مستمد من أيديولوجية الثورة.

(١) اليوم الموعود، ص ٦٢٨.

(٢) اليوم الموعود، ص ٦٢٨.

(٣) اليوم الموعود، ٦٢٨.

(٤) اليوم الموعود، ص ٦٢٨.

هذا المفهوم ينطبق على ممارسات كبرى النبوات في التاريخ الإنساني، وفي الطليعة النبوة الخاتمة التي جاءت بالأيديولوجية الإسلامية. أما ما يحصل من نهضات وثورات بعد ذلك فينظر إليه السيد الشهيد على أنه عمل تصحيحي داخل الإطار الفكري للمشروع الحضاري ذاته، كما حصل في تاريخ المسلمين الذي شهد ثورات كثيرة، بيد إنها لم تكن شاملة بلحاظ أنها لم تهدف إسقاط الإطار الحضاري للمشروع الإسلامي واستبداله بإطار آخر، قدر ما كانت تريد تصحيح الأوضاع داخل البيئة الإسلامية ذاتها وإعادةتها إلى الموازين الإسلامية.



٤. أزمة القيادة وأزمة الوعي

في تحليل يسوقه السيد الصدر الثاني لواقع المسلمين في التاريخ وفي العصر الحاضر، باحثاً عن أسباب التأخر وما أصابهم، يرصد من بين أهم العوامل التي أدت إلى ذلك دور القيادة «فإن الأمة بدون القائد ليست إلا أفراداً مشتتين مبعثرين، لا يمكنهم أن يحفظوا أي مصلحة تتعلق بالمجموع، ما لم يرجع الأمر إلى الاستقطاب القيادي والتوجيه العام المركزي»^(١).

ثم يلفت النظر في نص آخر إلى إن الأمة عُلمت في منازلها الكبرى بسبب فقدان القيادة والوعي، فقد: «أثبتت غالب حوادث التاريخ فشل الأمة الإسلامية في حروب الدفاع حال فقدانها للقيادة والوعي. ومن هنا وصل الأمر إلى ما وصل إليه من سيطرة الأعداء، حتى غرّينا في عقر دارنا، وأخذ منا طعامنا

(١) الغيبة الكبرى، ص ٣٤٠.

وشرابنا، وقد منا استقرارنا وأمننا»^(١).

وبنلك تكون أهم عوامل الانحراف الممكن وجودها في المجتمع: «هو انحراف القيادة، لما للقيادة من أثر بليغ في صياغة المجتمع وبلورته»^(٢).
على هذا الأساس ينبغي أن نتفهم تأكيد الصدر الثاني البارز دور القيادة ومركزيتها في الحركة الإحيائية التي أطلقها، وعلى ضوء هذه الخلفية من الوعي لدور القيادة ينبغي أن ننظر إلى عنوانه الذي طرحه ومارس من خلال العمل بوصفه ولياً لأمر المسلمين، بالإضافة إلى التكيف الفقهي الذي يركز إليه السيد الشهيد في استخدام العنوان، فقد رام من ذلك إسباغ المزيد من المركزية على دوره في العراق، وإلغاء «شرعية» القيادة الطاغوتية للنظام الوضعي البائد، وليس منافسة أو مزاحمة موقع ولاية الأمر في بلد آخر كما سعت أن توحى بذلك بعض القراءات التشويشية التي كلفت الأمة عامة والشعب العراقي خاصة خسائر فادحة عليها أن تتحمل مسؤوليتها تاريخياً وأخروبياً.

انطلاقاً من هذا الفهم العميق لدور القيادة وممارسة التغيير من خلال الإسلام، نهض الصدر الثاني بحركته الإحيائية المباركة التي استوطنت أصداءها ربوع الرافدين، إيماناً منه إنه: «كلما توفر للقائد الإسلامي المقدار الكافي من الناصرين والمؤازرين، وجب عليه إسلامياً اجتثاث حكم

(١) الغيبة الكبرى، ص ٣٧٩.

(٢) اليوم الموعود، ص ٥٠٦.

الظالمين»^(١) كما يقول نصاً.

تبقى مسألتان أخريان ترتبطان بالقيادة، هما:

الأولى: من الذي يمثل القيادة العامة التي تخوض عباب العمل الإسلامي بمعناه العريض وعناوينه الشرعية التفصيلية بحيث تتمحور من حولها الجهود وتتكلل معها الطاقات لتحقيق المراد؟

ما يفهم من نصوص السيد الشهيد أن هذا المنصب يكون للحاكم الشرعي^(٢)، وهو الفقيه المؤهل، الذي ينبغي له أن ينهض بالمصالح العامة للمجتمع، ويكون له من الصلاحيات ما للأنظمة والحكومات الوضعية على أقل تقدير. وهذا البحث عند الصدر الثاني يحتاج إلى دراسة مستقلة، خاصة أنه عرض لأفكاره حيال المسألة وأدلى بتفصيلات مهمة في السنوات الأخيرة من حياته، تزامناً مع انطلاق حركته وسط المجتمع العراقي^(٣).



(١) اليوم الموعود، ص ٦١٨.

(٢) يذهب السيد الشهيد إلى ان الجعل الشرعي لتصدي الفقيه إلى الأمور العامة يُصرف إلى عنوان «الحاكم» وليس «الولي». وبذلك يسمى هذا الفقيه «الحاكم الشرعي» وليس «الولي الشرعي أو الولي العام»، وان كان يصح عليه اللقب الثاني مجازاً. ينظر: ما وراء الفقه، السيد محمد الصدر، طبعة النجف الأشرف، ١٩٩٦، ج ٩، ص ٩٢.

(٣) ينظر في بعض المصادر لدراسة موقف السيد الشهيد من المسألة: ما وراء الفقه، ج

لكن برغم محورية ما يتبناه السيد الشهيد من قيادة الحاكم الشرعي (الفقيه المؤهل)، فنحن نلمس في نصوصه ما ينم عن احترام وتقدير لبقية الأدوار، منها دور المفكر الإسلامي، وعدول المؤمنين، بل عامة المكلفين من امتثال التكاليف الشرعية، والنهوض بمهام الخير العام، مما لا يحتاج فيه الأمر إلى تصدٍ من الفقيه وإشراف مباشر منه. والمجتمع بخاصة المجتمع العراقي الذي عاش غياباً كبيراً لمصادر العطاء الديني يتسع لألوف الفعاليات والنشاطات التي يمكن أن تنطلق في سياق ممارسة الخير العام، وامتثال كثير من مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمرتبته الواجبة والمستحبة، دونما حاجة إلى تصدٍ تفصيلي من الحاكم الشرعي، إلا ما كان يدخل في صلاحياته، وله صلة بالمفاصل المتقدمة من العمل ذات العلاقة بالمصالح العليا للمجتمع.

لقد رصدتُ للسيد الشهيد الثاني نصوصاً مهمة تحث على الالتفاف حول العلماء والمفكرين الإسلاميين، جاءت على مستوى لغة الفكر العام (أي بغير اللغة الفقهية)، يسجل في أحداها إن عملية استنباط الأحكام وبيان مفردات العقيدة الصحيحة «إنما توكل هذه المهمة إلى المختصين بالنظر

أقل ما يقال هنا هو أهمية استلال هذا البحث وطبعة مستقلاً، أو أن يُضم إلى البحوث الأخرى ذات الصلة بالموضوع.

ينظر أيضاً: ما وراء الفقه، ج ١٠، ص ٦٥-٩٤، مجلّد «ولاية عدول المؤمنين»، أيضاً: ما وراء الفقه، ج ٥، ص ٦٥ فما بعد، مجلّد «الولاية على الطفل»، كذلك: فقه الموضوعات الحديثة، السيد محمد الصدر، دار الأضواء، بيروت، ١٤١٩هـ ص ٢١٧.

إلى الأدلة الإسلامية واستنتاج الأحكام، والمفكرين الذين اتبعوا أنفسهم في تحقيق وتدقيق العقائد والمفاهيم والأحكام»^(١).

ما دمنا نتحرى الأمانة في معرفة أفكار السيد الشهيد الثاني وعرضها، فينبغي أن نشير إلى إن ما نستشفه من نصوصه وهو يحيل إلى المفكرين الإسلاميين ويقر بدورهم في ممارسة التوجيه، لا ينصرف إلى ما يطلق عليه في لغة الثقافة المعاصرة بـ«المثقف» حتى «المثقف الديني» إلا ما دلت عليه قرينة خاصة. فأولاً هناك فرق بين المثقف والمفكر من حيث أن المفكر أعمق، إذ هو في الأغلب يبرهن على ما يطرحه من أفكار، قائده الدليل في النقض والإبرام، وهو إلى ذلك صاحب منظومة تؤسس لعلاقة بين الأفكار، أو له رأي ونظر على أقل تقدير. أما المثقف فليس كذلك.

هذه المسافة بين المفكر والمثقف تبقى على حالها في مجال ممارسة الثقافة والفكر الإسلاميين، إذ تبقى صورة المفكر الإسلامي أكثر ألقاً وأجدر بالاحترام من صورة المثقف الإسلامي. وعلى كثرة ما تشهده الساحة الإسلامية من كتابات حول الإسلام تصدر من خارج النطاق الحوزوي، فإن ما يتصف به أغلبها إنها «ثقافة» على حين لا يستحق وصف «الفكر» إلا قليل منها. والسبب أن الأغلب ينتج من أقلام ينطبق على أصحابها وصف «المثقف الإسلامي» وليس وصف «المفكر الإسلامي» وإن تخيل بعضهم غير ذلك.

(١) الغيبة الكبرى، ص ٣٦٩.



بكلام أوضح، إن ما نفهمه من وصف المفكر الإسلامي الذي يحيل إليه السيد الشهيد ويحتفي بدوره، هو العالم الحوزوي الذي له اهتمامات معرفية تتخطى الفقه والأصول، أو هو المفكر من خارج الحوزة الذي له معرفة بموقف الإسلام فيما يكتب مستمدة من الحوزة مباشرة، أو أنها تستند إلى ما له حجة وشرعية.

على إن هذا التضييق في معنى المفكر الإسلامي لا يحرم المثقف الإسلامي من دور كبير بمقدوره أن ينهض به، وإن كان عليه الركون إلى حجة شرعية في جميع ما يتحدث به عن رأي الإسلام وموقفه.

الثانية: المسألة الثانية التي لها علاقة بالقيادة العامة في المفهوم الذي طرحه السيد الشهيد، هو ما يلحظ على بعض القراءات من سعيها لتعطيل طاقات الخير والحؤول دون انبعاثها باسم «الولاية» أو باسم «الحاكم الشرعي». على حين إن هناك ألوف الفعاليات وملايين أعمال البر والخير التي يمكن أن تنطلق دونما حاجة إلى تقييد انطلاقتها وحركتها بالفقيه المتصدي بعنوان الولاية أو بعنوان الحاكم الشرعي.

فالمطلوب من هذا العنوان بالدرجة الأولى هو امتثال التكليف الشرعي على هذا الصعيد، ومن ثم ينبغي الالتزام بما دلّ عليه الدليل وحسب لا أكثر من ذلك ولا أقل. وبعد ذلك فإن الفلسفة الاجتماعية للقيادة المحورية العامة هي ترتيب الأولويات، وتنظيم الجهود، عبر تفجير جميع طاقات الخير والعمل في المجتمع، لا تعطيل الطاقات والإمعان في حالة الجمود والركود باسم ربط جميع التفاصيل بالفقيه الولي أو الحاكم الشرعي.

فكم من الأعمال والمبررات والخيرات والمصالح العامة مما يستطيع أن ينهض به الأفراد والجماعات المؤمنة الصالحة دونما وجود حاجة أو مسوغ شرعي لتعطيلها أو تعويقها باسم القيادة العامة، إذ يلزم من ذلك نقض الغرض، لأن فلسفة القيادة العامة قائم على أساس تفجير جميع الطاقات وتوظيف كافة الإمكانيات.

هاتان نقطتان حيال القيادة نكتفي بإثارتها بانظار أن تنطلق المبادرات لدراستهما بدقة ووضوح، وعلى ضوء الحجة دون التعصب والعاطفة، ذلك «أن الحقيقة بنت البحث والمناظرة، والحق لا يثبت إلا بالبرهان»^(١) كما يقول السيد الشهيد، ومن أخرى من الإسلاميين بذلك، ودينهم قد: «حث على التكامل العلمي والذهني عن طريق التفكير والجدل البناء الحر، وقد أمر به القرآن الكريم وطبقه في نقاشه مع عدد من الآراء الخاطئة»^(٢).

مد قلب حالة اليأس إلى ضدها

علينا أن نسجل صراحة أن حالة اليأس من تغيير الداخل العراقي على أساس إسلامي - بل مطلق التغيير - استولت في مرحلة المعارضة على بعض الاتجاهات الناشطة والفاعلة في هذا الوسط، فضلاً عما تشبعت به قواعد شعبية عريضة راحت تعلن أنها مع الحل وإزالة الكابوس الجاثم على

(١) اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني، ص ٥٠٨.

(٢) اليوم الموعود، ص ٥٠٣.



صدر العراق، حتى لو جاء ذلك من الشيطان!

أما سيدنا الصدر الثاني فقد سار باتجاه معاكس تماماً وعضد ممارسته الإيجابية التي غرست الأمل بإمكانية التغيير على أساس الإسلام ومن خلال الأمة، بوعي نظري متألق على هذا الصعيد.

لقد أشار صراحة بأن بعض الأوساط: «تعتقد بأن العمل الإسلامي ضد الظلم والظالمين غير مؤثر بأي حال». ثم أوضح أن: «هؤلاء هم اليائسون الذين سيطرت هيبة الانحراف وهيمنة الظلم السائد في البشرية على نفوسهم، فاعتقدوا بعدم جدوى أي شيء من الإصلاح أو الأمر بالمعروف في هذا المجتمع الفاسد، ومن ثم اضطروا إلى السكوت وترك العمل انتظاراً لظهور المهدي عليه السلام، ليكون هو الرائد الأول في إصلاح العالم»^(١).

لقد كان السيد الشهيد واضحاً أشدّ الوضوح وهو يواجه اليأس بحقائق واضحة نظرياً عززها فيما بعد بخطوات عملية انطلقت بها حركته الإحيائية العملاقة، وهزته العنيفة لحالة الركود واليأس التي عمّت الأوساط، بل أطبقت على الآفاق إلا ما ندر.

فعلى الصعيد النظري استطاع فكر الصدر أن يصوغ عدداً من القواعد في هذا المجال يصلح جلّها أن يكون قوانين في ممارسة الفعل التغييرى، منها:

أولاً: لقد أكد أن هذا العصر الذي نحياه يتطلب مشاركة بالعمل

(١) الغيبة الكبرى، ص ٣٤٨.

الجاد المنتج من قبل الفرد والمجتمع. وهذا العمل يتطلب توافر ثلاثة عناصر مقترنة عقائدية ونفسية وسلوكية، وإلا تحولت حالة الانتظار عند الفرد والمجتمع إلى ضرب من «التعسف النفسي المبني على المنطق القائل: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾»^(١) المنتج لتمي الخير للبشرية من دون أي عمل إيجابي في سبيل ذلك»^(٢).

ثانياً: لقد ارتبطت الأمة في العراق بعلاقة آسرة مع الشهيد الصدر الثاني، فقد استطاع هذا السيد الجليل أن يجذبها بسلوكه المتواضع، وبمنهج اقتفى به خطى الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في نبذ الاسترخاء والدعة والراحة.

عندما نعود إلى الجانب النظري الذي يؤسس لهذا السلوك، نجده يعود لدى السيد الشهيد إلى إيمانٍ مطلق بأنَّ «الفرد لا يتكامل إخلاصه ووعيه الإسلامي إلا بالعمل والتضحية ومواجهة الصعوبات، لا بالراحة والاستقرار»^(٣) فكيف إذا كان هذا الفرد قائداً لشعب مقهور يعاني الأمرين كالشعب العراقي.

ثالثاً: العراق ساحة معقدة للعمل الإسلامي وشعبه عانى الكثير، لكن بدلاً من لغة التبكي والتحجيط ومنطق اليأس راح السيد الشهيد الصدر

(١) سورة المائدة: ٢٤.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٣٤٢.

(٣) الغيبة الكبرى، ص ٣٩٣-٣٩٤.



الثاني يستشرف في هذه الصعوبات آمالاً طموحة لدور مشرق لهذا الشعب في حركة الإسلام لا يوازيه دور أي شعب آخر من شعوب المسلمين. ولم يكن الصدر لينطلق في ذلك من عواطف مجانية، بل ارتكز إلى قواطين الفعل التغييري، منها القانون الذي ينص بأن وعي الأمة لا يتكامل بالاسترخاء والدعة والراحة. وكذلك القانون الذي يفيد بأن العمل للإسلام كلما واجه عقبات أكثر كان أعمق في أثره التكاملي.

وبنص تعبير السيد الشهيد: «إن الإيمان والعمل الإسلامي كلما واجه من العقبات أكثر واحتاج من التضحيات إلى عدد أكبر، كان مقرباً إلى الله تعالى بشكل أعمق، وموجباً لتكامل الفرد بنحو أسرع»^(١)، وإن: «العمل والعبادة خلال الخوف أفضل وأعلى في درجات الكمال من العمل في عصور الاطمئنان والرخاء»^(٢).

فالمطلوب في حركة التكامل ليس الإيمان محضاً بل الإيمان الممحص القادر على خوض المواجهة والصمود فيها وإحداث التحولات الكبرى في الحياة الإنسانية. وتعبير الصدر نفسه، إن الإيمان: «مهما يكن ضخماً لا يعتبر شيئاً ذا بال ما لم يكن ممحصاً. وأما الإيمان الساذج الفج فلا قيمة له في التخطيط الإلهي، لأنه يكون غرضاً لأول رمية، فاشلاً في أول تجربة»^(٣).

(١) الغيبة الكبرى، ص ٤٣٩.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ٤٤٤.

(٣) اليوم الموعود بين الفكر المادي والديني، ص ٥٠٦.

أما بشأن العراق خاصة موقعه في حركة الإسلام تاريخياً وحاضراً ومستقبلاً، فإن السيد الشهيد يذهب إلى أن هذا الإقليم هو مركز الثقل، بحيث لا يرقى إليه بلد آخر من بلاد المسلمين. بيد أن هذا التميز لم يأت عفواً ولم يكن بداعي عوامل عنصرية، وادعاءات وهمية فارغة مما نشهد له أمثلة في حركة عدد من الشعوب والبلدان في حاضر العالم الإسلامي، إنما كان الباعث إليه هو ما يتصف به: «من الصفات الواقعية التي تجعله المنطلق الوحيد في العالم لكل تلك الأعمال الكبرى»^(١) التي ترتبط بالتخطيط الإلهي لمستقبل البشرية ويومها الموعود.



عندما يعدّد السيد الشهيد الخصائص التي تميز هذا البلد ينتهي في الخصيصة الثالثة إلى أن ما يرفع هذا البلد إلى مستوى يتفوق فيه على جميع البلاد الإسلامية، ليس هو أفضلية ناتجة عن حالة جرافية أو وهمية، إنما يكون ذلك: «باعتبار ما يمرّ به الشعب هناك من مآسٍ ومظالم أكثر من غيره من الشعوب المسلمة»^(٢) وحيث يتمخض عن زيادة الظلم كثرة الإخلاص والمخلصين، فسيكون للعراق قصب السبق في إعداد أكبر عددٍ من هؤلاء، وتأهيل البلد عامة للنهوض بدور كبير في تكامل البشرية، والمساهمة الفاعلة في مستقبلها السعيد.

رابعاً: على ضوء ما مرّ، انتهى الصدر الثاني إلى قانون آخر في الفعل

(١) الغيبة الكبرى، ص ١١٩.

(٢) الغيبة الكبرى، ص ١١٩.

التفسيري يحوّل من الظلم والأوضاع الحالكة فرصةً ثمينة لتوفير الإخلاص في الأمة، بحيث إن المجتمع الذي ينأى بنفسه بعيداً عن أجواء الظلم والانحراف ليختار الرفاه، لا يستحق الموقع المرموق في التخطيط الإلهي الذي يسير بالبشرية صوب اليوم الموعود؛ وإن الأمة التي لا تعمل ضدّ الظلم ولا تفكّر برفعه وإزالته هي أمة خائنة.

بتعبيره **فَلْيَكُنْ**: «إن ما يرفع درجة الإخلاص في الأمة ويوجد شرط الظهور، هو العمل ضدّ الظلم فعلاً... ومن هنا نعرف أن الفرد الذي يهرب نفسه من ظروف الظلم، أو أن المجتمع الذي يعيش في الرفاه النسبي بعيداً عن هذه الظروف، فإنه لن يعمل ولن يستطيع الوصول إلى حدّ الوعي والإخلاص المطلوب... كما أن الأمة إذا شاع بين ظهرانيها الظلم والتعسف وكانت راضية به مستخذية تجاهه، لا يوجد العمل فيها ضدّه، ولا التفكير لرفعه أو التخفيف منه، إذن فسوف تكون أمة خائنة يتسافل إخلاصها وينمحي شعورها بالمسؤولية، وتحتاج في ولادة ذلك عندها من جديد إلى زمان مضاعف ودهر طويل»^(١).

خامساً: على هذه الأرضية من الوعي النظري ألقى السيد الشهيد نفسه في أتون المخاطر، وجرّ إليه الشعب العراقي، حيث بعث فيه عوامل الكرامة والعزة من خلال الإسلام، وأسكت إلى حدّ ملحوظ عوامل الخوف والاستخذاء، بحيث حوّل المحنة الشاقة التي يعاني منها هذا الشعب إلى

(١) الغيبة الكبرى، ص ١١٩.

محضن للعطاء الكريم، وحوّل حالات اليأس التي استبدّت بكثيرين داخل العراق وخارجه إلى آمال طالعة على خير عميم، وأمل بالفرج قريب. وهذا ما كان.

على ضوء هذا الفهم الذي تعضده أدلة شرعية، انتهى في قناعته إلى أنّ فضيلة العمل الإسلامي في هذا العصر كفضيلة اعتناق الإسلام نفسه والدخول إليه أول مرة. يقول: «إن العمل الإسلامي في سبيل الله بمختلف مستوياته مما يقع في عصر الهرج والفتن والانحراف، له من الفضل عند الله وعند رسوله كفضل اعتناق الإسلام نفسه»^(١)؛ وإن العبادة مع الخوف في دولة الباطل ليست مثل العبادة والأمن في دولة الحق.

بهذا الفهم المتماسك الذي يجمع بين أصالة العقيدة وعمق النظر الشرعي والوضوح الفكري، وبين سلوك عملي يستضيء بهذه الرؤية النظرية ويهتدي بها، واجه الصدر الثاني منطق التشكيك واليأس، ومزق سُرّ الدجل والضلال التي أسس لها النظام الساقط خلال عقود، ليكشف عن معدن كريم للإنسان العراقي، أزداد أصالة في أتون المحنة والظلم الفظيع، بدلاً من الاستحالة إلى الضدّ.

ثمّ عناصر أخرى تعضد هذه الرؤية وتستكملها تأمل العودة إليها في فرصة قريبة إن شاء الله.



القيم الأخلاقية في حركة
السيد محمد الصدر الإصلاحية

الدكتور

سعد علي زاير

قسم العلوم التربوية والنفسية

كلية التربية / ابن رشد، جامعة بغداد

مقدمة

على الرغم من وجود تراث فكري إسلامي ثرّ تركه الصالحون لهذه الأمة؛ لكنها تعاني من حالة الجمود والركود والاعتراب الفكري، لاسيما في استعمال الأساليب العلمية لعرض وتناول الأفكار والنظريات الإسلامية. وإن نسبة كبيرة من الطرائق والأساليب التعليمية والتربوية والأخلاقية التي تمسك بها المفكرون المسلمون عرفت بأسماء غريبة وانحسرت بسببها فرص الاعتماد على الطرائق والأساليب التي تعامل بها القرآن الكريم، والسنة النبوية واعتمد عليها العلماء، والمفكرون، والمصلحون، في عملية التربية والإصلاح؛ لذلك يرى الباحث أنّ حالة الجمود والركود والاضطراب الفكري يمكن أن ترجع إلى عدم استعمال المنهجية الإسلامية في طريقة تناول الأفكار والنظريات الإسلامية، وهذا ما أكّده عدد من الكتّاب الإسلاميين من أمثال الشيخ (فؤاد المقدادي) الذي قال: إنّ من أخطر ما يقوض صرح ثقافتنا الإسلامية الأصيلة وينخر في بنائها الرسالي هو الانحراف المنهجي في طريقة تناول أفكارها ونظرياتها وعرضها من طريق استعارة مناهج غريبة عن أصوله إلى تقومه وعن هيكل نظرياته التي ينبثق منها، ولعل أبرز العوامل المسببة لذلك هو الانبهار الثقافي بهذه المنهجيات الغربية التي تغذيها مؤسسات ووسائل الثقافة والإعلام العلمانية بشرائح



المثقفين المتغربين^(١).

ومن المسلم به إن تربيتنا لا تستطيع أن تغض الطرف عن تراثنا الإسلامي، بل أن من واجبها أن تحرص عليه وتفاخر به، وتعمل على المحافظة على ما فيه من قيم مادية وروحية وأخلاقية باقية مدى الدهر، وعليها بعد ذلك أن تنعم النظر في هذا التراث فتحتفظ بالصالح منه، وترك الطالح، غير آسفة ولا وجلة^(٢).

وفي أثناء عملية البحث عن طبيعة الإنسان المادة الخام التي يعالجها فلاسفة التربية أمكن تحديد المعالم الرئيسية للتربية، فنظرة الفيلسوف إلى الطبيعة الإنسانية تفسح أمامه المجال في معرفة الطريقة التي يعامل الإنسان بها، ومدى قابليته للتغيير بمؤثرات التربية، ومن ثمَّ يحدد مجال العمل معه بحسب قدرة الإنسان وإمكانياته ومدى تقبله لها^(٣) ولهذا فإن فلسفة التربية تتطلب تفكيراً عن طبيعة الإنسان، لأن فهم الإنسان هو مفتاح كل خبرة قد يفكر فيها الإنسان بوصفها ممرات للعالم^(٤) وفي ما يتعلق بطبيعة الإنسان،

(١) رسالتنا الإسلامية بين الأصالة والتغريب، فؤاد كاظم المقدادي / ٣، ط ١، مطبعة المعارف، مجمع الثقيلين العلمي، ٢٠٠٢م.

(٢) ينظر: فن التعليم عند ابن جماعة، حسن إبراهيم عبد العال / ٢٣، مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٩٧٧م.

(٣) ينظر: أبو حامد الغزالي فلسفته وآراءه في التربية والتعليم، محمد نبيل نوفل / ٨٩ رسالة ماجستير مطبوعة، تربية عين شمس - قسم أصول التربية، ١٩٧١م.

(٤) ينظر: العلاقة بين الفلسفة والتربية من منظور الاعتزال دراسات خلقية، سعيد إسماعيل علي / ٨٩، تقرير إبراهيم مدبور، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦م.

نلاحظ أنّ هناك اتجاهين مختلفين لدى فلاسفة التربية هما:

الاتجاه الأول:

يذهب إلى أنّ الإنسان يولد وقد انطبعت معه كل معالم شخصيته، وأنّ المعارف العامة تحددت منذ ولادته، وأنّ البيئة والتربية لا تؤثر فيه إلا قليلاً. وما دامت الطبيعة الأصلية غير قابلة للتغيير فإن وظيفة التربية بحسب هذا المفهوم هي إظهار ما كمنّ في داخل الإنسان الذي حددت شخصيته سلفاً. وبهذا يكون التغيير لجوهر الإنسان وإمكانياته ضئيلاً إن لم يكن منعماً^(١).



الاتجاه الثاني:

يرى أنّ الإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء، يقبل كل ما يطرأ عليه من مؤثرات البيئة والتربية، ما دامت طبيعته غير محددة سلفاً، فهو يقبل كل ما يحط به من أفكار ومعارف، وبالنتيجة تكون الطبيعة الإنسانية قابلة للتغيير والتشكيل بحسب ظروف البيئة والمجتمع التي تحيط به^(٢)، وإذا كانت الطبيعة الإنسانية غير محددة؛ فهي تقبل كل ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر^(٣)، وتكون مهمة التربية توجيهها نحو الخير، ومعنى ذلك أنّ لديه

(١) ينظر: نحو فلسفة التربية، وودرنج / ٨٦، ترجمة سعد مرسي احمد، فكري حسين

ريان، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٦٦م.

(٢) أبو حامد الغزالي فلسفته وآراءه في التربية والتعليم / ٨٩

(٣) ينظر: نحو فلسفة التربية / ٨٨

من الإمكانيات والاستعدادات ما يفعل بها الخير والشر^(١).

وهذا الاتجاه الأخير هو السائد عند كثير من مفكري التربية في العصر الحديث، وكان من أنصار هذا الاتجاه المرّي (جون لوك) ونظرته الأساسية أنّ الطبيعة الإنسانية لا تظهر عند الميلاد، وإنما هي نتيجة تأثير البيئة في مادة خام مرنة للكائن الحي لم تشكل بعد، وهي التي توجد عند الميلاد، ولهذا أكد أنّ الخبرة والبيئة هما مصدر المعرفة.

إنّ الفكر التربوي الإسلامي قد صاغ هذه النظرة قبل جون لوك وغيره، إذ صاغها بأسلوب يستند إلى الإبداع والابتكار، لصالحها في بناء التربية الإسلامية الأصيلة من دون أن تتأثر بأي فكر آخر. وقد جاء عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: إنّما قلب الحدث، كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شيء قبلته^(٢).

وقال الإمام الصادق عليه السلام يخرج إلى الدنيا - أي الإنسان - غيباً غافلاً عما فيه أهله، فيلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة، ثم لا يزال بتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً، وشيئاً بعد شيء، وحالاً بعد حال، حتى يألف الأشياء ويتمرّن ويستمر عليها، ويخرج من حد التأمل لها والحيرة فيها إلى التصرف

(١) ينظر: فلسفة التربية في القرآن، علي خليل أبو العينين / ٨٦، رسالة ماجستير

مطبوعة، دار الفكر العربي، ١٩٨٠م.

(٢) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي ١ / ٢٢٣، طهران، شركة طبع بحار الأنوار،

والاضطرار إلى المعاش بعقله وحيلته^(١)، ومن هنا يظهر أنّ نظرة الإسلام المتمثلة بأعمدته وهم آل البيت عليهم السلام مستندة إلى أنّ ليس هناك شيء يسمى شرّاً أو فساداً بالفطرة، هذا الذي دعت إليه بعض المدارس الإسلامية من طريق نظرية (الجبر). ومن طريق هذه النظرة الإسلامية عولج كل ما لا يتفق مع التربية الإسلامية من طريق مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا الذي نسميه اليوم بـ (الإصلاح)، وهو ضد الفساد، صلح يصلح ويصلح صلاحاً وصلوحاً^(٢). وعرفه (الترابي) بأنه: ضد الفساد، والإصلاح تقويم الفساد وتغيير المفسدة بما هو مصلحة وتبديل علاقات المجتمع بما هو وفاق، وهو تبديل ما تغيرت حوله ظروف البلاد فأحالاته ظلماً وفساداً. وإصلاح المرء نفسه تؤديه إلى الخير بعد سوء، والصلاح كل عمل الصالحات، كما يوصي بذلك القرآن الكريم واتقاء للخسران. وإصلاح المجتمع الذي يهدي به عامة للحق بعد نهج الباطل، وللعديل والخير والنظام بعد الظلم والفساد، في سبيل حسن العواقب (أريد الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)^(٣).



(١) لسان العرب، ابن منظور محمد بن مكرم الأفرريقي المصري / ٢١٠، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦.

(٢) آمالي الصادق، محمد الخليلي ٨١/١، النجف الأشرف، العراق، مطبعة النعمان، ط

ويمكن لنا تعريف الإصلاح بأنه: تغيير المفاهيم والقيم الفاسدة والمنحرفة في حياة الفرد والمجتمع واستبدالها بالمفاهيم والقيم الإسلامية الأصيلة، مع الأخذ بالحسبان التطور الزمني والمكاني والتطور العلمي والتكنولوجي الذي يشهده العلم ولا يقتصر هذا المفهوم - الإصلاح - على قطاع من دون آخر بل يشمل مختلف نواحي الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والسياسية وغيرها. ويعد الإصلاح الفكري الأساس الأول لكل إصلاح ولا يتم ذلك إلا من طريق إتباع المنهج الإسلامي الرصين.

الفصل الأول

المبحث الأول

السيد الشهيد محمد صادق الصدر عليه السلام

أولاً: نسب السيد الشهيد محمد صادق الصدر عليه السلام

هو محمد بن محمد صادق بن محمد مهدي بن إسماعيل بن صدر الدين بن صالح بن محمد بن إبراهيم شرف الدين بن زين العابدين بن علي نور الدين بن الحسين بن محمد بن علي بن محمد بن تاج الدين بن محمد شمس الدين بن عبد الله بن جلال الدين بن أحمد بن حمزة الأصغر بن سعد الله بن حمزة أكبر بن أبي السعادات محمد بن أبي محمد عبد الله بن أبي الحرث محمد بن أبي الحسين علي بن عبد الله أبي طاهر بن أبي الحسين محمد المحدث بن أبي الطيب طاهر بن الحسين القطعي بن موسى بن أبي سبحة بن إبراهيم المرتضى بن الإمام أبي إبراهيم موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم عليهم أفضل الصلاة والسلام^(١).

(١) ينظر: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، حسن السيد هادي الصدر / ٤٥٤، شركة النشر



ثانياً: ولادته ونشأته ووشادته:

ولد سماحته في ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٦٢هـ - ١٩٤٣م، وهو يوم عيد المولد النبوي الشريف وعاش في كنف جده لأمه آية الله العظمى محمد رضا آل ياسين، وعاش كذلك في كنف والده السيد الحجة محمد صادق الصدر، إذ كان وحيداً لوالده السيد محمد صادق الصدر، وقد نشأ سماحته في بيت علم وفضل، ورزق العلم منذ صباه على يد والده، وكان لنشأته وتربيته الدينية انعكاس واضح في خلقه الرفيع وبشاشته وصدوره الرحب الذي يستوعب كل الأسئلة الموجهة إليه، تزوج من بنت عمه السيد محمد جعفر الصدر ورزق بأربعة أولاد هم (مصطفى ومقتدى ومؤمل ومرضى) وله بتان، واستشهد بتاريخ ١٩/٢/١٩٩٩م، على يد أعتى دكتاتور في تاريخ العراق.

ثالثاً: حياته العلمية

بدأ السيد الشهيد الدرر الحوزوي في سن مبكرة في سنة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م، إذ تعمّم وهو ابن أحد عشر سنة مبتدئاً دراسته به (النحو) وغيره كما هو معتاد حوزوياً على يد والده السيد محمد صادق الصدر، ثم على يد السيد طالب الرفاعي، ثم الشيخ حسن طراد العامري أحد علماء الدين في لبنان، أكمل بقية المقدمات على يد السيد محمد تقي الحكيم (ت ١٤٢٣هـ) صاحب كتاب (الأصول العامة للفقّه المقارن) والشيخ محمد تقي الايرواني. دخل كلية الفقه عام ١٣٧٣هـ - ١٩٦٠م دارساً على يد ألمع أساتذتها، فقد درس الفلسفة الإلهية على يد الشيخ محمد رضا المظفر (ت ١٣٨٣هـ)،

والأصول والفقهاء المقارن علي يد السيد محمد تقي الحكيم (ت ١٤٢٣هـ)، والفقهاء علي يد الشيخ محمد تقي الايرواني، وكان من أساتذته في هذه الكلية الشيخ مهدي مطر وبعض الأساتذة من ذوي الاختصاص والدراسات غير الحوزوية كالسيد عبد الوهاب الكربلائي مدرس اللغة الانكليزية إذ كان سماحته من أفضل طلاب صفه، كذلك الدكتور حاتم الكعبي في علم الاجتماع، والدكتور أحمد حسن الرحيم في علم النفس، والدكتور فاضل حسين في التاريخ. تخرج سماحته في كلية الفقه سنة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م ضمن الدفعة الأولى من خريجي كلية الفقه، وكان من زملائه الذين تخرجوا معه المرحوم الدكتور أحمد الوائلي، والشيخ مسلم الجابري، والسيد عدنان البكاء، والسيد مصطفى جمال الدين، وغيرهم.

دخل السيد الشهيد مرحلة السطوح العليا في الحوزة العلمية في النجف، إذ درس كتاب الكفاية للشيخ محمد كاظم الخراساني علي يد السيد محمد باقر الصدر (ت ١٩٨٠م)، ودرس كتاب المكاسب علي يد السيد محمد تقي الحكيم، وقد كان لدراسته عند هذين العلمين الأثر الأكبر في صقل موهبته العلمية ونموها، ارتقى السيد الي مدارج البحث الخارج، فحضر بحث الخارج في الأصول للسيد محمد باقر الصدر، وحضر بحث الخارج عند المحقق المرحوم السيد أبي القاسم الخوئي.

أما إجازته في الرواية فكانت له إجازة من آية الله ملا محسن الطهراني الشهير بأغا بزرك (ت ١٣٨٩هـ) صاحب كتاب (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) عن أعلى مشايخه وهو حسين النوري صاحب كتاب



مستدرك الوسائل، ومنهم أيضاً والده السيد الحجة محمد صادق الصدر،
 وخاله الشيخ مرتضى آل ياسين، والسيد عبد الرزاق المقرم صاحب كتاب
 (مقتل الحسين) عليه السلام، وآية الله السيد حسين الخراساني، وآية الله السيد عبد
 الأعلى السبزواري (ت ١٤١٤هـ)، والدكتور حسين علي محفوظ.

أجيز بالاجتهاد من أستاذه السيد محمد باقر الصدر في عام ١٣٩٦هـ -
 ١٩٧٧م، وكان عمره ٣٧ عاماً.

رابعاً: مؤلفات السيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر عليه السلام:

- ١- نظرات إسلامية في حقوق الإنسان.
- ٢- فلسفة الحج ومصالحه في الإسلام.
- ٣- أشعة من عقائد الإسلام.
- ٤- القانون الإسلامي وجوده، صعوباته، منهجه.
- ٥- موسوعة الإمام المهدي. وتتألف من أربعة أجزاء.
- ٦- ما وراء الفقه وهو موسوعة مؤلفة من عشرة أجزاء.
- ٧- فقه الأخلاق جزأين.
- ٨- فقه الفضاء.
- ٩- رفع الشبهات. (عن الأنبياء)
- ١٠- محاضرات في الأخلاق.
- ١١- بحث حول الرجعة.
- ١٢- بحث حول الكذب.

- ١٣- كلمة في البداء.
- ١٤- الصراط القويم.
- ١٥- منهج الصالحين (خمس أجزاء).
- ١٦- مناسك الحج.
- ١٧- كتاب الصلاة.
- ١٨- كتاب الصوم.
- ١٩- أضواء على ثورة الحسين.
- ٢٠- شذرات من فلسفة تاريخ الحسين.
- ٢١- مئة المثان في الدفاع عن القرآن.
- ٢٢- منهج الأصول (خمس أجزاء).
- ٢٣- دورة كاملة في البحث الخارج الأصول عند المحقق الخوئي (مخطوط).
- ٢٤- دورة كاملة في البحث الخارج الأصول عند السيد محمد باقر الصدر (مخطوط).
- ٢٥- مباحث في كتاب الطهارة الاستدلالي في شرح العروة الوثقى من تقارير السيد الشهيد محمد باقر الصدر (مخطوط).
- ٢٦- مباحث في كتاب الطهارة الاستدلالي في شرح العروة الوثقى من تقارير المحقق الخوئي (مخطوط).
- ٢٧- بحث المكاسب الاستدلالي تقارير السيد الخميني قدس سره (مخطوط).
- ٢٨- اللمعة في أحكام صلاة الجمعة (مخطوط).



- ٢٩- مسائل في حرمة الغناء.
- ٣٠- حرمة حلق اللحية.
- ٣١- ولاية الفقيه.
- ٣٢- فقه الدماء الثلاثة.
- ٣٣- فقه العشاير.
- ٣٤- حكم تغسيل الأموات.
- ٣٥- بحث حول الشيطان.
- ٣٦- مسائل وردود (أربعة أجزاء).
- ٣٧- الرسالة الاستفتائية (ثلاثة أجزاء).
- ٣٨- بحوث متفرقة في الفقه، والتفسير، وقواعد اللغة العربية،
والمقالات الاجتماعية.
- ٣٩- له عدة مشاركات في مجلات عديدة كمجلة الإيمان، ومجلة
النجف، ومجلة العرفان اللبنانية.

المبحث الثاني الأخلاق والمنهج الإسلامي

أولاً: الأسس الأخلاقية:

تمثل الأسس الأخلاقية الهوية الإنسانية ولها جذورٌ فطرية، وهي أسس ثابتة وخالدة، أي لا تتغير بسبب مضي الزمان، والتحولات والتطورات الاجتماعية الطارئة. ومنها على سبيل التمثيل حسن الوفاء بالعهد، أو حسن مقابلة الإحسان بالإحسان وهذه قضية خالدة وحقيقة ثابتة، وتعدّ قانوناً أخلاقياً لا يتغير أبداً، وهكذا الحكم بقبح الخيانة وخلف الوعد. واستناداً إلى هذا الأساس فإن الفئات البشرية الاجتماعية طائفة من الأصول والأسس التي امتزجت بالفطرة والطبيعة البشرية وتكون ثابتة وخالدة^(١).

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض هذه الأصول والأسس العقلية الأخلاقية الثابتة، إذ قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(٢).

(١) ينظر: العقيدة الإسلامية، جعفر سبحاني/٣٢، سوريا، دار التعارف للمطبوعات،



وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).
 وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ
 وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾^(٢).

وإذا كانت الأسس الأخلاقية أساساً ثابتة وخالدة وهي واحدة في كل
 البشر؛ فإنها فطرية، وعلى الإنسان أن يظهر هذه الأسس من طريق الممارسة
 والانخراط في مواقف الحياة، ويكون التعامل مع الأفراد والجماعات^(٣).

ويكون اكتساب القيم والاتجاهات والعادات ذات الأثر الإيجابي
 البناء كالتعاون والتساند الاجتماعي وحب الخير، وبصرف النظر عن الجانب
 الديني؛ فإن الفضائل الخلقية والملكات الطاهرة هي من الضروريات
 الحيوية، إذ قال الإمام علي عليه السلام: لو كنا لا نرجو جنة، ولا نخشى ناراً، ولا
 ثواباً ولا عقاباً؛ لكان ينبغي لنا أن نطالب بمكارم الأخلاق؛ لأنها تدل على
 سبيل النجاح^(٤).

(١) سورة يوسف: ٩٠.

(٢) سورة النحل: ٩٠.

(٣) يُنظر: تخطيط الدروس في المواد الاجتماعية، علي عثمان سرحان / ٢٨، دار

الفرقان، السعودية، ١٩٨٨م.

(٤) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف مجموعة ورام، أبو الحسين بن أبي الفراس

الاشترى ورام / ١ / ١١، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ط ٣، ١٩٦٩م.

ثانياً: الإصلاح والمنهج الإسلامي :

من الواضح والمسلّم به أن الإسلام أساسه التفكير الدائب في عملية التغيير والإصلاح والانتقال للأفضل، إيماناً بسنة التكامل الذي هو الغاية من الخلق كله، وان مصادر الفكر الإسلامي المتمثلة بكتاب الله والسنة المطهرة تستند في منهجها نحو التغيير والتكامل إلى الآيات الشريفة والأحاديث النبوية الصريحة، بوجوب التحرك للتغيير والتطوير والإصلاح المتواصل، قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١)، ويقول عز وجل ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾^(٢).

إن التغيير والإصلاح في المنظور الإسلامي سنة من سنن الله التشريعية، وطريقة يعتمد عليها المصلحون الرساليون، ويدعون لها لتحقيق مجتمع الخير والسعادة في الدارين^(٣).

وقد أفردت في الكتب الفقهية مساحة واسعة لهذا الغرض تحت

(١) سورة الرعد: ١١.

(٢) سورة هود: ١١٦-١١٧.

(٣) المدارس الإصلاحية، محمد باقر الناصري/٢٩٣، مجلة الفكر الجديد، العدد ٩،



عنوان (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

وخير مثال للإصلاح إن الرسول الأعظم ﷺ تعامل مع أمة جاهلية بكل ما للجاهلية من معنى، إذ كانوا متشتتين، يقتل بعضهم بعضاً وتنتشر الفواحش بينهم كالزنا وشرب الخمر، ونكاح زوجات الآباء، واكل مال اليتيم، والبخس في الميزان، ووأد البنات وغيرها من الفواحش، واستطاع أن يحولها إلى أمة عظيمة سطعت شمسها على الآفاق كلها^(١).

وبعد استشهاد الرسول ﷺ وانقطاع الوحي جاء دور أئمة الهدى عليهم السلام فهم الرواد الحقيقيون لحرركات إصلاحية متتالية، إذ كان كل إمام يضطلع بدور خاص به ويأتي الأمام الذي يليه ليستكمل هذا الدور أو يبدأ حركة جديدة من طريق حاجة الواقع المعاصر له^(٢).

إن المشروع الإصلاحي بدا واضحاً بقوة عن أهل البيت عليهم السلام في حركة الإمام الحسين عليه السلام، فقد كانت المجتمعات الإسلامية تحت حكم بني أمية، إذ ابتعدت عن الأصالة الإسلامية، نتيجة الجهود التخريبية التي بذلها معاوية ومن بعده -يزيد- من قبيل وضع الأحاديث وإعادة المفاهيم الجاهلية إلى الحياة ومن أبرزها أن يجعل الخلافة في بني أمية متوارثة من

(١) يُنظر: دور الأئمة في الحياة الإسلامية محمد يعقوبي / ٢٠، شرح وتعليق السيد

الشهيد محمد الصدر، دار أنوار الهدى للطباعة والنشر، ٢٠٠٣هـ.

(٢) يُنظر: عناصر شخصية المسلم في آثار أهل البيت عليهم السلام، محمد يعقوبي / ٢٣، مكتبة

الشيخ يعقوبي للنشر، إيران، قم المقدسة، ٢٠٠٥هـ.

الآباء إلى الأبناء كما فعل عندما أوصى بالخلافة ليزيد من بعده^(١).

إن هذه الأوضاع إذا لم تعالج سوف تؤدي إلى اندثار معالم الإسلام وفكره الأصيل وتشريعاته الإلهية، وهذا ما دفع الأمام الحسين عليه السلام إلى القيام بالنهضة الإصلاحية. وكان الهدف الكبير الذي يسعى إليه والشعار الذي رفعه هو طلب الإصلاح في أمة جده صلى الله عليه وآله^(٢).

ولكي يكون الإنسان خليفة الله في الأرض، وصيانة الأمة من الانحراف، وضمان عزاها وكرامتها من الأمم، ولضمان سعادة الدارين الدنيا والآخرة، علينا أن لا نترك هذه الفريضة (الإصلاح) من طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومحاربة مصاديق الجاهلية الجديدة وصورها، لان الجاهلية بحسب المفهوم القرآني لا تعد حقبة زمنية انتهت بطلوع شمس الإسلام بل هي حاله اجتماعية تتردى إليها الأمة ويتكس إليها المجتمع كلما عرض عن شريعة الله^(٣)، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٤).

ولإصلاح الأمة وصيانتها من الانحراف، ولإعداد الإنسان الكامل ليمارس دوره خليفة في الأرض، لا بد من إعداده وتربيته من طريق منهج

(١) يُنظر: دور الأئمة في الحياة الإسلامية / ٥٣.

(٢) يُنظر: مقتل الإمام الحسين، محمد الهنداوي / ٤٥، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.

(٣) يُنظر: دور الأئمة في الحياة الإسلامية / ٥١.

(٤) سورة المائدة: ٥٠.



منظم على وفق التصور الإسلامي للإنسان، والكون والحياة، ويمكن تعريف المنهج بناءً على هذا بأنه "نظام متكامل من الحقائق والمعايير والقيم الإلهية الثابتة والخبرات والمهارات الإنسانية المتغيرة التي تقدمها مؤسسة تربية إسلامية إلى المتعلمين فيها لغرض إيصالهم إلى مرتبة الكمال التي هيهم الله لها، وبذلك يكونون قادرين على القيام بحق الخلافة في الأرض عن طريق الإسهام بإيجابية وفعالية في عمارتها وترقية الحياة على ظهرها على وفق منهج الله"^(١).

ثالثاً: علاقة المنهج الإسلامي بالتغيير الاجتماعي:

على المنهج أن يأخذ بالحسبان ما يدور في المجتمع من تحديات ثقافية واجتماعية، وبما أنه أداة التربية الرئيسة في تحقيق أهدافها، فعليه أن يكون مرناً فيحافظ على القيم والمبادئ الإسلامية الأصيلة مع استيعابه للتغيرات الاجتماعية والثقافية للمجتمع الجديد، فلا يقف في وجه التغيير والابتكار، وبهذا يساعد المنهج المتعلمين على تحقيق الوعي بأهمية التغيير؛ فيكسبهم اتجاهات إيجابية نحو التغيير المنشود، ويمكنه من التكيف معه، ويؤدي دوراً مهماً في تزويد المتعلمين بالمهارات والاتجاهات التي تساعد على أن يكونوا هم أنفسهم من عوامل التغيير الاجتماعي وذلك من طريق تنمية التفكير العلمي الناقد لديهم^(٢).

(١) الإصلاح، محمد تقي المدرسي / ٦٥، مطبعة ذي القربي، إيران، ١٩٩٨ م.

(٢) يُنظر: نحو منهج تربوي معاصر، نجاح الجمل / ١٢١، ط ٥، عمان، الأردن، ١٩٨٨ م.

الفصل الثاني

الأخلاق في حركة الإصلاح

المبحث الأول

حركة الإصلاح



أولاً: الحركة الإصلاحية في فكر السيد الشهيد :

لا نبالغ إذا قلنا أن السيد الشهيد محمد صادق الصدر رحمته الله يعد ظاهرة إصلاحية فريدة من نوعها، إذ إن التحول الكبير الذي أوجده في المسار الإسلامي في العراق، هو تحول أثبت الكثير من الذكاء والبراعة والإبداع، وقبل ذلك الإخلاص في العمل والاستعداد الدائم للتضحية من أجل تحقيق الهدف الكبير، وكان من نتاج ذلك الظاهرة الإصلاحية الكبيرة التي أحدثتها، وتكمن خصوصية هذه الظاهرة الفريدة في المشروع الإصلاحية له لاعتبارات منها، المكان الذي تحرك به في هذا المشروع وهو العراق المحكوم بأعتى دكتاتورية في العالم، والى قيود سياسية هائلة فرضتها الظروف العالمية في ذلك الوقت، والى تجارب سياسية فاشلة في أثنائها لم يستطع أحد أن يفكر بتغيير الواقع القائم آنذاك، ومن تلك الاعتبارات الحقبة الزمنية القصيرة التي أجري هذا المشروع التغييرية فيها،

إذ إنّه كان زمناً لا يكاد يستوعب ضخامة هذا الحقبة وأبعاده ومفرداته ومجالاته، إذ استطاع السيد الشهيد في بضع سنوات انجاز ما لم يمكن انجازه في عقود، بل استطاع بهذا المشروع أن يحقق طفرة نوعية في تأسيس وعي إسلامي جديد من طريق بناء قاعدة شعبية رسالية تكون كل مفردة منها حافظة لذلك المشروع ضمن الزمان والمكان التي هي فيه، وبذلك لا يموت هذا المشروع الإصلاحي الكبير بموت المصلح أو الرمز كما كان يحصل في التجارب الإصلاحية السابقة.

وكذلك تكمن خصوصية هذا المشروع ومؤسسه في الشكوك والشبهات حول مرجعية السيد الشهيد قَدِّيرٌ وقيادته، إذ حامت الشبهات حوله وآتهم بمختلف التّهم، وكان عليه أن يزيل تلك الشكوك من أذهان الناس لكي يبني قاعدة شعبية رصينة في ممارسة عملية التغيير.

وكذلك برزت خصوصية هذه الظاهرة في المفاهيم التي أوجدها السيد الشهيد المغايرة لسابقتها من المفاهيم، إذ إنه أسس منظومة من المفاهيم الخاصة: دينية، واجتماعية، وأخلاقية، ومفاهيم حول شؤون القيادة، ومفاهيم حول الشؤون الثقافية والسياسية الأخرى شكلت بمجملها نسيجاً معرفياً اجتماعياً، وهذا ما ميزه من غيره من الفقهاء، وحدد ملامح مشروعه وتجربته^(١).

إنّ حركة الشهيد الصدر الثاني كانت تحمل عذابات السنين ومشاريع

(١) يُنظر: معالم الحوزة الناطقة، كريم المنفي / ٣٣، النجف الاشرف، ٢٠٠٤م.

الإسلام المعطلة ورائحة الدماء الزاكية التي سقطت من اجل استمرار المسيرة التي حملها مفكرو الأمة وشبابها الواعي، لذلك استوعب الشهيد الصدر في حركته تلك الأحداث كلها، ورسم ملامح مشروعه الإسلامي والإصلاحي على خلفية تلك الأحداث، واستطاع أن يقرأ الماضي بحنكة فريدة، ويفهم الحاضر والواقع بموضوعية، وبقراءة صريحة ليس فيها من الغلو أو المبالغة من شيء، فجاءت حركته مطابقة للواقع بكل تداعياته وتفصيله وتنوعه الفكري والثقافي فضلا عن التنوع الديني والعربي والقومي.



والحديث عن الإصلاح والمصلحين حديث ذو شجون؛ لأن الإصلاح والمصلحين غالباً ما يصطدمون بتماثيل الماضي السحيق، وبالرؤى التي بنيت على معتقدات خاطئة، والإصلاح الذي حققته حركة السيد الشهيد الصدر الثاني كان إصلاحاً شمولياً أستهدف جوانب الساحة العراقية كلها.

وهناك أطروحتان طرحهما السيد الشهيد الصدر رحمتهما لإصلاح الواقع العراقي، الأولى: نظرية العودة إلى الله، والثانية: انتشال المفردة الإنسانية، أما الأولى كانت العودة إلى الله أي حركة قوس الصعود، وأستهدف بذلك إصلاح النخب، الذي سيعود بالنفع على طبقات المجتمع بفضل دور المبلغ الرسالي وأثره الكبير في تفعيل حركة المجتمع، والثانية انتشال الإنسان من واقعه المتدني إلى رتبة الرقي.

ثانياً: محاور الإصلاح الذي استهدفته حركة الشهيد الصدر الثاني:

١ - الإصلاح الاجتماعي:

طرح الشهيد الصدر الثاني الإصلاح في أكثر فئات المجتمع العراقي تعقيداً من حيث البنية الاجتماعية والمرتكزات الذهنية الخاطئة التي تركزت عبر الأجيال فبدأ بتهديم البناء الاجتماعي الخاطيء بمعول الإصلاح، مبتدئاً بالسنن العشائرية ومنتهاً ببعض الخرافات التي كرسها ثقافة الانغلاق الاجتماعي؛ ولأنه يعي جيداً خطورة الطرح الديني في المجتمع، إذ أخذ بتهديب عدد من العادات والسنن التي تعود عليها المجتمع، وأصبحت عنده حالة اعتيادية.

دعا السيد الشهيد موظفي الدولة في العراق إلى التوبة والعودة إلى الله وعدم مواجهة الدين وعقائد الناس، وتتضمن هذه الدعوة إدانة صريحة وواضحة لكبار هؤلاء الموظفين ممن عاضدوا السلطة وظاهروها في تعدي حدود الله وشريعته على امتداد ثلاثين عاماً من حكمها البغيض...، وكانت هدفاً إصلاحياً كبيراً اختزن مع دعوات سماحته إلى السدنة في مرآقد الأئمة عليهم السلام وبراءته من بعض ممارساتهم غير الشرعية، وكذلك مناشداته إلى شيوخ العشائر وأبناء الطائفة المسيحية وحتى العجور والتماسهم العودة إلى القيم الفاضلة التي دعا إليها الإسلام والسيد المسيح عليه السلام فضلاً عن دعواته المتكررة إلى التزام الحجاب، وترك السفور، والتمسك بأحكام الدين،

والوقوف عند الحدود الكريمة للشريعة الإسلامية^(١).

وحتّ المجتمع على أن لا تتحول الأفراح القائمة على المواقف لينال بذلك المجتمع سخط الرب بدلاً من رضاه سبحانه وتعالى، فكانت ردة فعل المجتمع إيجابية لغالبية قطاعات المجتمع التي ذابت في روح الإصلاح الديني وتناغمت مع فطرة المجتمع التي فُطرَ الناس عليها.

وأسس السيد الشهيد المحاكم الشرعية مقابل محاكم الدولة، ومن طريق هذه الخطوة لفت نظر الأمة إلى هويتها الدينية المضيفة من جهة، وتبيان المسافة البعيدة بين أحكام السلطة الظالمة وأحكام الدين العادلة من جهة أخرى.

وهذه بحد ذاتها خطوة إصلاحية كبيرة، إذ يبين ما يريده الناس ويطمحون إليه، وما تريده السلطة وتحرص على ترويجه لما يخدم توجهاتها ومصالحها وأهدافها^(٢).

ومن طريق هنا المشروع الإصلاحية الشامل قام السيد الشهيد بمواجهة التيارات الفكرية المنحرفة ومن هذه التيارات الظاهرة السلوكية التي برزت في حقبة السيد الشهيد عليه السلام، وهذا يدل لنا حرص هنا المشروع على الثوابت الدينية وممارسته لنبذ الخرافة والبدع والصور القشرية التي تحاول تسطيح الدين وتهميش دوره في حركة الأمة والمجتمع وواقع الحياة.

(١) يُنظر: معالم الحوزة الناطقة: ٤٥.

(٢) يُنظر: معالم الحوزة الناطقة/٧٥.



٢- الإصلاح الديني:

هناك نوعان من الإصلاح الديني، الأول: على مستوى تجديد المفردة الحوزوية ويسمى بذلك مجدداً، والنوع الثاني: ما نستطيع أن نسميه بإصلاح النظرة التقليدية التي لم تأت أكلها عبر تجارب أثبتت عدم جدوى قيادة هذه النظرة إلى المجتمع العراقي (الراديكالي)، وسبب ركوداً وسكوتاً لدى أفراد المجتمع، وإطفاء جذوة الدين المتوهجة في نفسية المسلم، وانطلق الشهيد الصدر الثاني بهذا الإصلاح من رؤية وتجربة عاشت خلالها الأمة بشيء من اليأس والقنوط، فأراد بذلك عودة الأمة إلى استحقاقها الطبيعي في احتضان الدين والسير تحت رايته وقيادته نحو جادة الحق.

الشيء المهم الذي استهدفه الشهيد الصدر الثاني بالإصلاح الديني استبدال الرأي المشهور وتبناه بعض رجالات المؤسسة الدينية والقائل (لا نظرك باب الناس إلا إذا طرّقَ بابنا) فأثبت بالدليل التاريخي والدليل العملي الذي تبناه بنفسه عدم أهلية ذلك المبنى وعدم فعاليته فاستبدلت الأمة بعض مرتكزاتها بأخرى جديدة، وثبت لهذه الرؤية الجديدة فلسفة خاصة، أصبحت لها أدبيات رصينة وعمق جماهيري يضرب أطناب المجتمع بعد أن أصبحت له رمزية متحركة تعيش مع الأمة آلامها وتتداعى مع جسد الأمة بالسهر والحمى.

ويعدّ المرجع الشهيد الصدر الثاني أول مرجع من مراجع العصر الحديث يقتحم ميدان الأمة، ويخوض في بحرها ويخاطبها مباشرة بصلاة الجمعة، بسابقة لم يعرف لها التاريخ نظيراً إذ من طريق صلاة الجمعة أحيّا

شعبيرة إسلامية ظلت مغيبة قروناً عديدة، وعاد من طريقها الفكر الإسلامي الحركي النائر إلى الوجود، منفتحاً على الحياة، متحركاً على أرض الواقع بلا تردد، ومن طريق هذه الصلاة أعاد حرية المستضعفين وانتمائهم، مشكلاً من طريقها مائماً إسلامياً شعبياً يتلقى الناس فيه الوعظ والإرشاد، ويتعلمون الروح الأصيلة للإسلام التي تكمن في حركيته على أرض الواقع بعيداً عن الطقوس والشعائر الباهتة التي أبقَت الإسلام محنطاً متصخراً في معزل عن الأمة والناس وواقع الحياة.

٣- الإصلاح السياسي:

هناك سؤال يطرح نفسه هل كانت حركة الشهيد الصدر الثاني حركة سياسية أم حركة دينية؟ ومن ينظر بعين البصيرة إلى حركة الصدر الثاني سيجد بوضوح أن تلك الحركة تحمل في طياتها بعداً سياسياً تبلور في مراحل لاحقة بعد نضجها على هيئة مشاريع طرحت على نحو واضح من على منبر الجمعة المباركة، تمثلت بمطالبته للنظام في إطلاق سراح المعتقلين من رجال الحوزة العلمية، وهي أول مطالبة حقيقية للنظام في تاريخ العراق الحديث، إذ قال سماحته: "إن اعتقال طلبة الحوزة العلمية هو اعتقال لي شخصياً، ولم يقف عند هذا الحد بل امتد إلى مساءلة النظام عن سبب منع الزيارة مشياً إلى كربلاء المقدسة على الرغم من مزاعم السلطة بأنها ترعى الحملة الإيمانية المزعومة، كل هذه التحركات تقترب من حركة المعصومين عليه السلام في وجودهم في دويلات السلاطين؛ فهم حملوا



التقية في يد، وواجهوا السلطة غير الشرعية باليد الأخرى، من طريق الدعم الشرعي لبعض الثورات التي حدثت كثورة التوابين وثورة زيد بن علي وغيرها.

وهو ما فعله السيد الشهيد الصدر الثاني عندما كان يحث أنصاره على التقيد بالتقية ويلزمهم بها، وفي الوقت نفسه كان يوجه سهام النقد إلى الدكتاتور، فعمل الشهيد الصدر الثاني على بناء دولة الإسلام في داخل دويلة الهدام؛ لأنّ للإسلام دولة وللطغاة جولة.

تمثل ذلك البناء في توجيه أنظار المثقفين والفنانين والشعراء إلى مراجعة الحوزة الناطقة لتنظر في أعمالهم مبيناً لهم الصالح من الطالح، وهو بهذه الحركة كان يسحب البساط من تحت أقدام السلطة بعد سيطرتها على غالبية أفكار المثقفين وأعمالهم وتسخيرها لخدمة السلطة الحاكمة، فهو إذن عمل على بناء أركان دولة المؤسسة الدينية المبنية على الطاعة والولاء لله بدلاً من الطاعة إلى الشيطان، وبمجموع هذه الجهود الكبيرة وارتفاع الخوف المسيطر على المجتمع بفعل سلطة القوة والحديد فهو يشكل أصلاً حقيقياً وتحرراً من سيطرة الحكم آنذاك.

وعند تحليل شخصية السيد الصدر عليه السلام وملاحظة الظروف المحيطة به نستطيع تحصيل عدة عوامل يمكن استعراضها باختصار، وهي أسس نجاح كل قائد يريد أن يتصدى لإصلاح الأمة:

١- تهذيبه لنفسه وسيطرته على غرائزها.

٢- شجاعته في قول الحقيقة.

٣- نزوله إلى المجتمع وفهم واقعه.

٤- استناده إلى مبدأ أن يكون رجل الدين أول من يضحى وآخر من

يستفيد.

٥- مخاطبته الناس بلغة سهلة يتيسر عليهم فهمها والتفاعل معها.

٦- انتصاره على ذاته بحيث أصبح هو يملك زمام نفسه، وليست هي

التي تملكه وكان معروفًا بئكران الذات، وطالما كان يكرر أنه يدوس ذاته

بقدميه، ونجح بدرجة كبيرة في الجهاد الأكبر مما سهل عليه النجاح في

ساحة العمل الاجتماعي وهو الجهاد الأصغر.

٧- كان يحب الموعدة لأن فيها إحياء للقلوب، فكان يبحث على

مطالعة كتب الموعدة كإرشاد للقلوب.

٨- ارتباطه بالله تعالى وإدامة ذكره وجعله الهدف الوحيد الذي

يسعى من أجله، فكان ينقل في خطب الجمعة مقطعاً من دعاء أو آيات

قرآنية أو خطبة لأحد الأئمة عليه السلام، لتعميق الصلة بالله تعالى وتعرف صفاته

الحسنى، وبيان حاجتنا وفقرنا إليه تبارك وتعالى.

٩- معاشته مع القرآن وتفاعله مع مضامينه، ففي وقت مبكر من حياته

كان له دفتر يسجل فيه ما يقدر في ذهنه من نفحات في أثناء تلاوته

القرآن، ويثبت فيه الآيات التي توحى له بخلق قرآني أو موقف إزاء حل

معينة أو سلوك عليه أن يطبقه.

١٠- دراسته لسيرة الأئمة عليهم السلام بدقة وعمق وشمولية لمعرفة أدوارهم

التي أدوها والمسؤوليات التي قاموا بها، وكيف كانوا يتخذون المواقف



المناسبة اتجاه مختلف القضايا، ومن حكمة الله تعالى وعظيم مننه على الأمة جعل أدوارهم تجربة للأمة وظروفهم مختلفة ومدة إمامتهم طويلة، لتتضح تجربة الأمة وتحصل على كل ما تريده من سيرتهم المباركة، فعرف ذَئِبَرِي متى ينكمش ومتى يتحرك؟ وماذا عليه أن يفعل؟ وكيف يتعامل مع الآخرين أفراداً أو طوائف أو سلطات؟

- ١١- جلته واجتهاده في تحصيل العلوم؛ لأن العلم من الركائز الأساسية في بناء شخصية القائد المصلح حتى بلغ أسنى درجاته، ونال ملكة الاجتهاد.
- ١٢- عدم انفصاله عن واقعه وما يجري فيه ومواكبته له، فتراه مثقفاً بثقافة العصر، ويتابع تطوراتها العلمية والسياسية والاجتماعية^{(١)(٢)}.

٤- الإصلاح التربوي:

كان السيد الشهيد يرى أنّ الناس متفاوتون في قدراتهم العقلية والجسدية، وأن هذا التفاوت لحكمة، منها تأكيد قدرة الله تعالى الخلق وبتدبير صنعه ودقيق علمه، وكذلك إيجاد مجتمع متكامل ومتوازن ومتعاون، وعلى ذلك فإن الإصلاح التربوي يختلف من فرد إلى آخر بحسب درجة كل إنسان، ولكل درجة من هذه الدرجات منهجاً خاصاً بها ينفعها في التكامل. وفي الرسالة الجوابية التي أرسلها السيد الشهيد الصدر إلى تلميذه

(١) يُنظر: محمد الصدر سيرته الذاتية ومنهجه العلمي، مجلة الفكر الجديد / ٢٣٤،

العدد ١٨، ٢٠٠٠م.

(٢) يُنظر: معالم الحوزة الناطقة / ٢٤.

الشيخ محمد يعقوبي في عام ١٩٨٧، وقد نشرت في كتاب حديث الروح مع الشهيد الصدر الجزء الثاني. نجد توضيحاً لاختلاف قدرات الناس ومضمونها إنّ الإسلام عشر درجات أعلاها أول درجة الإيمان، والإيمان عشر درجات أعلاها أول درجة التقوى، والتقوى عشر درجات أعلاها أول درجة اليقين، واليقين عشر درجات، والناس قد تمسكوا بأقل درجة الإسلام، وجاء في تعقيبه على هذه الرواية أنّ هذه الدرجات التي أشارت إليها هذه الرواية ليست اعتباطاً ولا هزلاً بل هي درجات حقيقية وهذه الدرجات تختلف في المضمون، والنتائج، والأسباب، ومنهج التكامل. وجاء في تعليقه السيد الشهيد عليه السلام على بحث الجاهلية الحديثة وأسلوب مواجهتها، للشيخ يعقوبي قوله: في كتاب (قناديل العارفين) من الضروري سلوك طريقة القرآن الكريم الإصلاحية، وهل لنا غيرها بالحق والعدل، كل ما في الأمر أن القرآن الكريم، قد تكفل لكل قوم تربيتهم، فإننا كنا نتعامل مع أناس مسلمين لا مشركين بأننا نربيهم تربية القرآن للمسلمين والمشركين. وقد علل السيد الشهيد وجوب الأخذ بأسلوب القرآن الكريم، بقوله: إنّ القرآن الكريم ومدرسته المعصومة هي التي استطاعت أن تجمع بين الأمرين فتعطي للعامة ما ينفعهم وللخاصة ما يكملهم من دون إيجاد (مضاعفات) على أي منهم بلطف لله وحسن توفيقه) وكان يقصد بالخاصة هم الذين لهم استعداد أكثر من غيرهم للتكامل^(١).

(١) قناديل العارفين، الشيخ محمد يعقوبي، مطبوعات جامعة الصدر الدينية، النجف



وكذلك كان السيد الشهيد يرى إن توزيع حقول المعرفة على درجات الناس يكون لخيارات، منها :

١- الحاجة العامة في المجتمع أو المستوى العام لغالبية الناس، مع الفحص الدقيق عما يناسب تربية ذلك مع عدم المضاعفات الأخرى.

٢- إن الفرد قد يشعر بنقصه من شيء أو عدة أشياء ؛ فيركض وراء هدايته أينما يجدها، وسوف يركز في الغالب على منهج خاصٍ ينفعه في التكامل طبقاً لمواصفات الفرد عموماً، ولا يمكن أن تحمل الفرد ما لا يطيق، إذ قد تحصل من ذلك مضاعفات غير محمودة... وهل تستطيع أن تعلم (كفاية الأصول) لمن لم يقرأ الاجرومية، أو رياضيات التفاضل والتكامل لشخص ضعيف في الرياضيات. وعقب على ذلك في قوله: " إن إعطاء الدواء الزائد ظلم للمريض كما إن إعطاء الدواء الناقص ظلم له أيضاً لأنه يقتصر على اقل من استحقاقه وقابلياته، إذأ فالأمر مهول جداً أمام هذا العدد الضخم من البشر بدرجاته المختلفة دينياً وثقافياً وعقلياً واجتماعياً.

وكان السيد الشهيد عليه السلام يؤكد سلوك طريقة القرآن الكريم في التربية والإصلاح، إذ إن القرآن تكفل بتربية كل قوم بتربية خاصة تتلاءم والمستوى العقلي والنفسي لهذه الجماعة، ويراعي كذلك متغيرات الزمان والمكان، وكذلك نوع ودرجة التربية التي تحتاج إليها جماعة معينة دون أخرى، وهذا ما نراه واضحاً، إذ إن القرآن الكريم سلك منهجاً خاصاً في مكة يختلف عن المنهج الذي استعمله في المدينة، وعندما نستعرض السور المكية والمدنية يتجلى لنا ذلك بوضوح على ما يحتاج إليه، وهو اعلم بنفسه

بطبيعة الحال.

٣- إنَّ المربي سوف يعرف مستويات من يربيه فرداً أو جماعة ويشخص تدريجياً، ومن طريق تجاربه المستمرة سوف يعلم ما يحتاجون إليه من تربية علمية ونفسية وغير ذلك.

من طريق هذه النقاط الثلاث بيَّن السيد الشهيد قدس سره كيفية توزيع الاختصاصات على المتعلمين، إذ بيَّن في النقطة الأولى حاجة المجتمع الى اختصاص معين بهذه الاختصاصات، والسيد الشهيد في هذه النقطة ينطلق من مسألة فقهية وهي أنَّ تعلم العلوم فرض اجتماعي، ولكن يصبح فرض عين على المسلمين إذا لم يتصدَّ له أحد. وفي النقطة الثانية يثير مسألة الاستعداد الذي يتمتع به كل متعلم وقابلياته لتعلم فن معين من فنون العلم والمعرفة. وفي النقطة الثالثة يبين دور المعلم أو المربي في تحديد قدرة كل فرد من المتعلمين ومستواه من طريق تجاربه، وعلى هذا يمكن تزويدهم بالاختصاصات بحسب مستوياتهم وقدراتهم التي تؤهلهم لهذه الاختصاصات.



المبحث الثاني

القيم الأخلاقية عند السيد محمد الصدر

بعد أن اطلع الباحث على عدد من كتب السيد الشهيد محمد محمد صادق الصدر وخطبه، توصل إلى أنها تشتمل على كثير من القيم التربوية الأخلاقية الإسلامية الأصيلة، وسيعرض في ما يأتي من هذا المبحث عشر قيم على سبيل التمثيل لا الحصر بوصفها نماذج للقيم التربوية الأخلاقية التي توافرت في فكر السيد الشهيد، مع نبذة ومثال لكل قيمة تربوية أخلاقية:

أولاً: قيمة الشجاعة

الشجاعة: شدة القلب عند البأس، والرجل الشجاع الذي فيه خفة كالهوج لقوته، وقد عرفها ابن الأزرقي بأنها: "الخلق الذي يصدر به الفعل المتوسط بين فعلي التهور والجبن"^(١). وعدّها الغزالي من أهمّات الأخلاق وأصولها فضلاً عن الحكمة والعفة والعدل^(٢).

ويقول السيد الشهيد: "كثير من الأمور سرّت من المصالح التي رآها

(١) بدائع السلك في طبائق الملك، ابن عبد الله ابن الأزرقي، تحقيق د. علي سامي

النشار، منشورات وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية، ١٩٧٧م.

(٢) يُنظر: إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي ٨ / ٧، كتاب الشعب، دار الشعب، القاهرة،

المجتمع ضرورية وحيوية، بعد أن كانت منسية ومطمورة، ومنها الشجاعة، وأنها حاجة للتقية المكثفة، والخوف المتزايد، بعد وضوح أن كثيرا من الأمور فيها مصالح أكيدة، وليس فيها نقاط ضعف من هذا القبيل، إذن فيرفضها أو يتجنبها ألا المدخول في عقله، ولو كانت للمصلحة الشخصية - لاحظوا - ولو كانت المصلحة الشخصية إذن لبادر إليها وأسرع إليها، ولكن المصلحة العامة لا يهتم بها، مع شديد الأسف، ومن بوادر الشجاعة ما حصل هنا في مسجد الكوفة وغيره، من الهتافات، والأهازيج، وكنت أنا اعتبرها بصراحة نصراً للدين، وعزة للمذهب^(١).

ثانياً: قيمة الحلم

الحلم بالكسر: الأناة والعقل، وفي حديث عن النبي ﷺ في صلاة الجماعة: "لَيْلِي نِي مِنْكُمْ أَوْلُو الْأَحْلَامِ وَالنَّهْيِ"^(٢)، أي ذوي الألباب والعقول، ومن الحلم الأناة والتثبت في الأمور^(٣).
وقد عرف مسكويه الحلم بأنه: "فضيلة النفس تكسبه الطمأنينة فلا تكون شعبة ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة"^(٤).

(١) دستور الصدر، خطبة ٢٧/ ٢٨٨ - ٢٨٩.

(٢) صحيح الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي / حديث ٢١١، مطبعة بولاق، القاهرة،

١٢٩٢هـ

(٣) ينظر: لسان العرب ٥٧٩/٢.

(٤) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أبي علي أحمد الرازي مسكويه / ٤٢، ط ٢، دار

مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.



ويقول السيد الشهيد: "الحلم هو كظم الغيظ. قال رسول الله ﷺ: ما عزّ الله بجهل قط، ولا أذلّ بحلم قط. وقال أمير المؤمنين عليه السلام أول عوض للحليم على حلمه: إن الناس أنصاره على الجاهل. وقال الإمام الرضا عليه السلام: يكون الرجل عابداً حتى يكون حليماً. ومن الواضح من هذه النصوص أن اللغة قد جعلت الجهل ضد الحلم. وليس ضد العلم كما هو المتعارف عليه الآن. ومنه قول الشاعر:

ألا لا يجهلنّ أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فإذا كان الحلم هو كظم الغيظ، كان الجهل إظهاره، وهو ما يسمى الآن بالعصية والغضب. وهو مم قد تحمل عليه النفس وتدعو إليه وخاصة في أوقات الحرج والتحدي. مع العلم إن الاستجابة لها قد تكون حراماً. كما لو كان غضباً ضد بعض الأولياء أو العلماء، وما أخلاقياً فلاستجابة لها مطلقاً ممنوع، إلا في موارد الغضب الواجب، وهو الغضب لله ضد وقوع المحرمات أو ترك الواجب أو هتك الحرمات"^(١).

ثالثاً: قيمة التسامح

التسامح: التساهل والمسامحة أي المساهلة والسماحة الجود"^(٢). وذكر ابن أبي الربيع ان المسامحة هي "ترك بعض ما يجب عند الحاجة إلى

(١) فقه الأخلاق ١٢٦/٢.

(٢) يُنظر: مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي / ٣١٢، دار

ذلك^(١)، لذا فإن الجذر الأصلي لمعنى التسامح قد أشير إليه في تاريخ الفكر الإسلامي بكلمة (سماحة) ففي حديث للنبي محمد ﷺ يقول: "رحم الله عبداً، سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى"^(٢).

ويقول السيد الشهيد: "والحافظين فروجهم والحافظات) يعني الزنا والشبهة، مع حسن الالتفات والتدقيق في هذه الأمور جيداً، وعدم إهمالها أو التسامح بها، كما يفعل جماعة من غير المتفهمين، أو غير المتورعين، فإن الاحتياط في الدماء والفروج واجب بإجماع الفقهاء، جيلاً بعد جيل"^(٣).

"من حيث أن هذا التسامح أو التساهل، إنما هو تسامح في الدين، وتساهل في ولاية أمير المؤمنين، بعد اتضاح المعاني الأساسية لهذه الصلاة المقدسة، وما فيها من مصالح، وعبر، وجلالة، والمفروض بكل فرد أن يطيع أمر الولاية، ويذهب إلى الصلاة"^(٤).

رابعا: قيمة التضحية

التضحية هي تقبل الخسائر من أجل الأهداف السامية، وفي الإسلام بذل كل ما في الاستطاعة من نفس ومال وبنين في سبيل الله، ووفقاً لذلك

(١) سلوك المالك في تدبير الممالك، احمد بن محمد ابن أبي الربيع / ٨١، مطبعة

جمعية المعارف المصرية، مصر، ١٢٨٦ هـ.

(٢) إحقاق الحق، نور الله الحسيني ١١ / ٤٣١، مكتبة النجفي، قم، د.ت.

(٣) دستور الصدر، خطبة ٢٦ / ٢٧٧.

(٤) دستور الصدر خطبة ٢٧ / ٢٩٢.



قسمت التضحية على ثلاثة أنواع، هي: التضحية بالنفس وتعدُّ أعلى أنواع التضحية وفيها وجود المسلم بنفسه لله سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: عيان لا تمسهما النار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله. والنوع الثاني التضحية بالمال سواء على سبيل الواجب المقدر شرعاً في صورة الزكاة، وما يفرضه الحاكم المسلم من الأموال على الرعية أو في صورة الصدقات التطوعية التي يخرجها المسلم طائعاً مختاراً طمعاً في ما عند الله، كما في قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنْأً وَلَا أذى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٢) وبين سبحانه أن الإنفاق في سبيله قرض حسن؛ فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا

(١) سورة التوبة: ١١١.

(٢) سورة البقرة: ٢٦١-٢٦٢.

فِيضَاعَفَهُ لِمَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَسْطُرُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١﴾،
وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي تشيد بمن يضحى بماله في سبيل
الله. أما النوع الثالث فهو التضحية بالأهل والعشيرة، وهذا ما حدث مع
الأنبياء عليهم السلام، فقد هاجر النبي إبراهيم بولده إسماعيل عليه السلام وهو ما يزال
رضيعاً لا يقوى على شيء ووضع في صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا
ضرع، وهاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وصحبه الكرام من مكة وهي أحب بلاد
الله إليهم، هاجروا طاعة لله تعالى وابتغاء المثوبة والأجر منه، كما قال
تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ
ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ
عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿٢﴾. وهكذا أقيم المجتمع المسلم الأول على أكف
رجال قاموا بالتضحية بأنواعها كلها: إنفاق المال، وبذل الوقت والجهد،
والتضحية بالنفس والأهل.

ويقول السيد الشهيد: "إن الإمام الحسين عليه السلام قد خرج إلى الكوفة،
وبالتالي إلى كربلاء، وهو يعلم انه سوف يموت، وان عائلته سوف تسي،
وليس الأمر منحصرًا به، بل يعلم بذلك عدد مهم من الناس، ومن هنا نصحه

(١) سورة البقرة: ٢٤٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٩٥.



المتعددون أن يعيد النظر في عمله ويستدرك مهمته ؛ لكنه مع ذلك كان مهتماً بها مقبلاً عليها، مهما كانت النتائج^(١).

خامساً: قيمة الإيثار

الإيثار لغة التفضيل، وآثره عليه أي فضله، وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾^(٢)، أي فضلك وقدمك^(٣).

أما اصطلاحاً فقد عرفه ابن أبي الربيع بأنه "كفّ الإنسان عن بعض حوائجه وبذلها لمستحقها"^(٤)، وهو أن تقدم غيرك على نفسك في الأموال والمنافع والمصالح وفي كل شيء آخر يعود على الإنسان بخير وإن كنت بحاجة إليها، لذا جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٥).

وقد روي أن الإمام علي بن أبي طالب وزوجته وأولاده عليه السلام أعطوا

(١) أضواء على ثورة الإمام الحسين، محمد الصدر / ١٥، مجموعة محاضرات ألقاها

سماعته في شهر محرم، ١٩٩٨م.

(٢) سورة يوسف: ٩١.

(٣) ينظر: لسان العرب ١/٧٦.

(٤) سلوك المالك في تدبير الممالك / ٨٢.

(٥) سورة الحشر: ٩.

طعامهم ثلاثة أيام متتالية إلى المحتاجين من مسكين وفقير ويتيم، وهم صائمون؛ فنزلت الآية الكريمة فيهم بقوله تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^(١). لتكون شاهداً بعظمة أهل البيت عليهم السلام وإيثارهم وقد أكد القرآن الكريم في الكثير من آياته تجلبي إنسانية الإنسان، وصدق إيمانه باهتمامه بالمحتاجين والفقراء في مجتمعه، ومهما بلغ الإنسان من العلم أو الاجتهاد في العبادة فإنه لن تتحقق إنسانيته ولن يصح تدينه إذا ما تجاهل مناطق الضعف في المجتمع، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾^(٢).

ويقول السيد الشهيد: "محل الشاهد الآن، هو التساؤلات عن حركة الحسين عليه السلام، إنما هو من قبيل التساؤلات عن الحكمة الإلهية فيها، وليس عن الأغراض الخاصة بالحسين عليه السلام منها كما شرحناه، ومن هنا يكون الاعتراض عليها أعني هذه الحركة، والطعن في أهدافها، إنما هو طعن بالحكمة الإلهية مباشرة وليس في أغراض الحسين عليه السلام منها، لأن أغراضه الشخصية لم تكن - بكل بساطة - إلا الامتثال وتحصيل الثواب. شأنه في ذلك شأن أي مؤمن آخر يمثل عملاً واجباً أو مستحباً"^(٣).

(١) سورة الإنسان: ٨-٩.

(٢) سورة الماعون: ١-٣.

(٣) فقه الأخلاق ٢ / ١٤.



سادسا: قيمة الأمانة

الأمانة لغةً ضد الخيانة، والأمانة تقع على الطاعة والعبادة والودعية والثقة^(١).

وقد عدَّ ابن أبي الربيع الخيانة من الرذائل الصادرة عن القوة الشهوانية، وعرفها بأنها الاستبداد بما يؤمن عليه الإنسان، وجحدته ودائعه^(٢).

وفي القرآن الكريم وردت آيات تؤكد ضرورة اتصاف الإنسان بالأمانة بعدها قيمة مهمة من القيم التي توثق علاقة الإنسان بالآخرين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٤). وكان الرسول محمد ﷺ يُسمى في الجاهلية بالصادق الأمين، فنجد أنه ﷺ قد أكد ضرورة اتصاف الإنسان المسلم بهذه الصفة فقال ﷺ: ليس منا من خان الأمانة^(٥).

(١) ينظر: لسان العرب ١/٢٢٣.

(٢) سلوك المالك في تدبير الممالك / ٨٣

(٣) سورة النساء: ٥٨.

(٤) سورة البقرة: ٢٨٣.

(٥) مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، أبو الفضل علي الطبرسي / ٥٢، ط ٢، النجف،

وانماز السيد الشهيد الصدر من غيره من فقهاء عصره بالعراق، إذ كان أميناً في نقل أحكام الشريعة والروايات الساندة لمسائل التشريع لاسيما ما يتعلق منها بأسباب النزول، ولو كلف ذلك مخالفة المشهور. فوجد قيمة الأمانة واضحة وجلية في كل أفعاله وأقواله، فمثلاً ذكر السيد الشهيد في الخطبة الثانية والثلاثين التحقيق الدقيق في مسألة نزول الوحي على النبي أول مرة؛ فقد رفض السيد الشهيد تلك الرواية التقليدية التي تقول أنّ النبي لم يكن يعلم بنبوته حتى نزول الوحي أي في غار حراء أول مرة، لتتقل الرواية أنّ الوحي جبرائيل عليه السلام قال للرسول ثلاث مرات اقرأ، والنبي يقول ما أنا بقارئ إلى آخر الرواية، وفي حينها عاد النبي لزوجته خديجة يقول: زملميني زملميني، من الخوف؛ فهل من المناسب لوحي بجهد الرسول من غير ذنب؟ وهل أنّ ورقة بن نوفل أعلم من الرسول بكونه نبي؟ وغيرها من الأسئلة التي طرقتها السيد الشهيد في عشرة نقاط يضعف فيها أنّ النبي لم يكن يعلم بكونه نبي قبل البعثة، إذ أشارت الروايات أنّ كثيراً من الأحبار والرهبان والعارفين قد تنبؤوا للنبي محمد ﷺ بنبوته وهو صغير حينما كان مع جده عبد المطلب، أو مع عمه أبو طالب في التجارة.

وتدلل هذه الرواية عمق الأمانة التي كان يحملها السيد الشهيد في مشروعه الإصلاحية على الرغم من الظروف القاسية التي كانت تحيط به^(١).

(١) يُنظر: دستور الصدر، خطبة ٣٢ / ٣٥٧-٣٦٢.



سابعاً: قيمة الحرية

يقصد بالحرية قدرة الإنسان على فعل الشيء أو تركه بإرادته الذاتية، وهي ملكة خاصة يتمتع بها كل إنسان عاقل ويصدر بها أفعاله، بعيداً عن سيطرة الآخرين؛ لأنه ليس مملوكاً لأحد لا في نفسه ولا في بلده ولا في أمته. والحرية في الإسلام حق من الحقوق الطبيعية للإنسان، فلا قيمة لحياة الإنسان من دون حرية.

ويقول السيد الشهيد: الحرية من الأفكار المسبقة المفروضة على الفرد والمجتمع من الخارج، كأحكام العقل، وأحكام الدين، فلا حاجة بحسب مدعاهم، إلى تحكيمهم أية فكرة، أو نظام خارج قناعتهم، ومصالحهم الدنيوية، من أي دين من الأديان، ومن أي عقل من العقول^(١).

ثامناً: قيمة الكرم

إنَّ الكرم واحدة من الصفات التي تميز العرب لا سيّما أهل البيت عليهم السلام، والكرم بفتح الحاء على الكاف والراء ضد اللؤم، (والكريم) الصفوح^(٢).

والكرم هو إعطاء بيسر وطيب نفس، وقد عرف ابن سينا السخاء - الذي يأتي بمعنى الكرم والدلالة عليه بأنه: "يسلس قوته لبذل ما يحوزه من الأموال التي لأهل نوعه إليها حاجة، وحسن المواساة بما يجوز أن يواسي به

(١) دستور الصدر، خطبة ٢٥ / ٢٥٤.

(٢) يُنظر: مختار الصحاح / ٥٦٨.

منهما^(١).

وقد ذكر ابن حزم أن الحرص متولد عن الطمع، والطمع متولد عن الحسد، والحسد متولد عن الرغبة، والرغبة متولدة عن الجور والشح والجهل^(٢).

ولقد نهى الله سبحانه وتعالى عن البخل وعده من الصفات الذميمة التي على الإنسان تجنبها، إذ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٣).

وحذّر من الحب المفرط للمال والحرص عليه، إذ قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾^(٤)، ودعا إلى الإنفاق. لأنه دلالة الإيمان، إذ قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^(٥). وفضلا عن الآيات الكثيرة التي تدعو إلى ضرورة تحلي الإنسان المؤمن بالكرم والعطاء، وردت الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تدعو إلى ذلك منها

(١) تسع رسائل في الحكمة والطبيعات (الرسالة التاسعة في علم الأخلاق)، الحسين

بن عبد الله ابن سينا / ١٠٠، ط ١، دار الجوانب، ١٢٩٨هـ

(٢) يُنظر: رسائل ابن حزم، ابن حزم الأندلسي / ٣٨٠، تحقيق د. إحسان عباس، ط ١،

منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م.

(٣) سورة النساء: ٣٧.

(٤) سورة الفجر: ١٩ - ٢٠.

(٥) سورة آل عمران: ٩٢.



قوله ﷺ: "السخي قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الجنة، بعيد من الناس، قريب من النار" (١). وروي عنه ﷺ انه قال: "لا ينبغي خصلتان في مسلم: البخل، وسوء الخلق" (٢).

ويقول السيد الشهيد: "سبحان الله كلما سبح الله، وكما يحب الله أن يُسبح وكما هو أهله، ينبغي لكرم وجهه عزّ وجلاله. والحمد لله كلما حمد الله شيء، وكما يحب الله أن يُحمد، وكما هو أهله وكما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلالة" (٣).

تاسعا: قيمة العدل

العدل لغةً: الاستقامة والحكم بالحق، وهو ضد الجور (٤). وفي الشريعة الإسلامية عبارة عن الاستقامة في طريق الحق بالاختيار عما هو محظور، واصطلاحاً هو أن يعطي المرء ما عليه ويأخذ ما له، أما الإحسان هو أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له (٥).

(١) مشكاة الأنوار/٢٣٢.

(٢) مشكاة الأنوار / ٢٣١.

(٣) فقه الأخلاق ١/١٤٤.

(٤) يُنظر: لسان العرب ٢/٧٠٦.

(٥) يُنظر: الكلبيات، أبو البقاء ٣ / ٢٥٣، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري،

وأقرب التعريفات التي توضح مفهوم العدل ما قاله بعض الحكماء: انه إعطاء كل ذي حق حقه ، بلا إفراط ولا تفريط، فالعدل هو التوازن بين الفرد والمجتمع ثم بين المجتمع وغيره من المجتمعات، ولا سبيل إلى هذا التوازن إلا بتحكيم شريعة الله سبحانه وما أنزل من كتاب وحكمة، وليس معنى العدل المساواة المطلقة ؛ فإن المساواة بين المختلفين كالتمييز بين المتماثلين كلاهما ليس من العدل في شيء، فضلاً عن أن المساواة المطلقة أمر مستحيل. لأنه ضد طبيعة الإنسان وطبيعة الأشياء.



إما بسط العدل برحابه ومناهجه جميعها فهو من أهم ما عني به الإسلام في جميع تشريعاته قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١)، وما بعث الله أنبياءه إلا لنشر العدل وإشاعته بين الناس ، قال تعالى ﴿لِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^(٢)، ولتأكيد أهمية العدل قال رسول الله ﷺ: " عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة قيام ليلها وصيام نهارها "

(١) سورة المائدة: ٨

(٢) سورة الشورى: ١٥.

ويقول السيد الشهيد: إن المقصود الأساسي من الجهاد هو حب البشرية وإدخال البلاد الأخرى في العدل والرفاه وإخراجها من الظلمات إلى النور، وهداية المجتمع إلى الصراط المستقيم^(١).

عاشرا: قيمة الصدق

المطابقة تعني توافق ما لدى الإنسان من قول أو فكر أو قصد أو عمل - مع الواقع الخارجي؛ فالصدق يرتبط إذن بمفهوم الانسجام والعلاقة الصحيحة بالله عز وجل وبالنفس وبالآخرين واصطلاحاً: استواء السر والعلانية والظاهر والباطن، والصدق عموم مطلق، إذ إن كل صادق مخلص، وليس كل مخلص يمكن أن يكون صادقاً^(٢). ويُعدُّ الصدق ركناً من أركان الدين وهو أفضل خصال الإنسان وأوضح دلائل الإيمان، ومقدمة لجميع أنواع الخير فهو يهدي إلى البر، وركيزة مهمة لاستقرار المجتمع وتنامي الثقة بين أفرادها، ولأهمية الصدق فقد وصف الله عز وجل به نفسه، وأضافه إلى ذاته قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(٣)، وإن الله تعالى يحب الصادقين الذين يوفون بوعودهم لذلك ذكر الله تعالى نبيه إسماعيل عليه السلام ومدحه بقوله تعالى: ﴿وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ

(١) فقه الأخلاق ٢/٢١٧.

(٢) يُنظر: إحياء علوم الدين / ٢٤٨.

(٣) سورة النساء / ١٢٢.

الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿١﴾.

فالصدق جنة واقية من العذاب، لأن حركة الصادق تتطابق مع كل معاني الخير وتتناغم، وحركة الكون في كل ذرة من ذراته وكل جرم من أجرامه السماوية، وقد وضّح لنا الرسول الكريم ﷺ أهمية الصدق وقيّمته العبادية والأخلاقية فقال ﷺ: "إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَالْفُجُورُ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَأَنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ حَتَّى يَكْتُبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا"^(٢)؛ فالصدق قيمة أخلاقية عُلّيا تُبنى عليها الحضارات بنيانها والمجتمعات أسسها، وبغيره سيصبح البناء بلا قواعد، ينهار عند أول هزة وأضعف ربح تعصف به؛ لأنّ للصدق أصالة الحياة ووسيلتها وغاية وجودها، والوفاء بالعهد لون من الصدق بل توأم له، وأشار الإمام علي عليه السلام إلى ذلك بقوله: "إِنَّ الْوَفَاءَ تَوَامُ الصِّدْقِ، وَلَا أَعْلَمُ جَنَّةَ أَوْقَى مِنْهُ، وَلَا يَغْدُرُ مَنْ عِلْمَ كَيْفِ الْمَرْجِعِ، وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدْ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْغَدْرِ كَيْسًا، وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حَسَنِ الْحِيلَةِ مَا لَهُمْ قَاتِلُهُمْ اللَّهُ قَدْ يَرَى الْحَوْلَ الْقَلْبَ وَجِهَ الْحِيلَةَ وَدُونَهُ مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ

(١) سورة مريم: ٥٤.

(٢) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ٣ / ٣٤٥، تقديم احمد



عليها ويتهز فرصتها من لا حرج له في الدين^(١).

ومن هنا كان الوفاء بالعهود أمراً لازماً، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(٢).

ويقول السيد الشهيد: "فلا تعجبوا من ذلك فإني أروي لكم قصة بسيطة لها معاني كثيرة، فقد نقل عن أسرة مسيحية إن أفرادها يقولون أنّ البابا الذي هو أعلى مسؤول أو رجل دين في نظرهم لا يقول لنا ذلك، فمن أين جاء السيد محمد الصدر ليقول لنا ذلك، حينما قلت أن مريم العذراء عليها السلام ليست سافرة، وإن عيسى بن مريم عليه السلام لا يشرب الخمر، فلماذا أنتم ملتزمون بالسفور وشرب الخمر؟ والعياذ بالله البابا لا يقول لهم فضلاً عن غيره من رجال دينهم، فمن أين جاء السيد محمد الصدر ليريد هلايتنا^(٣)."

(١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ميرزا حبيب الهاشمي الخوئي ١ / ١٨٩، ط ٤،

المكتبة الإسلامية، طهران، ١٤٠٥هـ

(٢) سورة الإسراء: ٣٤.

(٣) دستور الصدر، خطبة ٥٣٧/٤٥.

الخاتمة

لقد أنجز هذا البحث بحمد الله أولاً وآخراً، بعد رحلة ممتعة، طوفت
بالباحث في رياض فكر السيد الشهيد محمد صادق الصدر قدس سره،
وقد توخى منها، إمطة اللثام عن القيم التربوية الأخلاقية في فكره، ويضع
الباحث عصا ترحاله، عند الخاتمة، التي تبرز أهم النتائج التي توصل إليها
البحث، وهي :

١- إن الخطب التي ألقاها السيد الشهيد محمد صادق
الصدر قدس سره سار فيها على منهجية تربوية أخلاقية من طريق استعمال
الاساليب العلمية لغرض تحقيق الإصلاح في الفرد والمجتمع بشكل علمي
مدروس.

٢- إن تراثنا الإسلامي زاخر بالإبداع لاسيما في مجال التربية
والإصلاح، وإن المفكرين والعلماء المسلمين كانت لهم الريادة في هذا
المجال من طريق التنظير والتطبيق وبوساطة استعمال الأساليب العلمية
التربوية وجعلها وسيلة تساعد على تكامل الفرد والمجتمع.

٣- إن العلاقات في القيم التربوية الأخلاقية كلها ترتبط ارتباطاً وثيقاً
بثقافة الأمة الإسلامية؛ لذا فإن فصل القيم التربوية الإسلامية عن إطارها الثقافي
السليم، ودمجها في مناخ من الازدواجية الثقافية، أو تركها تحت طائلة الغزو



الثقافي من التأثير بالقيم الغربية، يعرضها للذوبان ويتزعم منها الفعالية في صياغة الشخصية الإسلامية القوية وصنع الواقع الحضاري السليم.

٤- إن المنهج التربوي الإسلامي الأخلاقي في فكر السيد الشهيد محمد الصدر كيان مترابط الأجزاء تتشابك فيه العقيدة مع العبادات، وهذه مع الأخلاق، والكل يعطينا تلك الثمرة الطيبة التي هي الإنسان المسلم، وبالنتيجة المجتمع الإسلامي الفاضل.

واستناداً إلى ما سبق يوصي الباحث بتوصيات، هي:

١- اهتمام التربويين والمصلحين بالأساليب العلمية التي استعملها السيد الشهيد محمد صادق الصدر عليه السلام في خطبه، لتحقيق الأهداف العملية لحركة الإصلاح.

٢- التعريف العميق بشخصية السيد الشهيد محمد صادق الصدر عليه السلام ونتاجاته عن طريق عقد المؤتمرات العلمية، لرفع الضبابية عنه.

٣- زيادة اهتمام المؤسسات التربوية بالفلسفة التربوية عند السيد الشهيد محمد صادق الصدر عليه السلام وتوظيفها في العملية التربوية.

٤- دراسة محتوى الخطب التي ألقاها السيد الشهيد محمد صادق الصدر عليه السلام وتحليلها تحليلاً تربوياً.

٥- على الباحثين الاهتمام بإحياء النفائس التربوية الإسلامية التي تغيب عن أذهان الكثيرين في هذا العصر فالاهتمام بهذا الجانب مسؤولية كل مرب لإبراز دور تراثنا الإسلامي الكبير وفضله على المدنية العالمية.

وآخر دعواتنا أن الحمد لله رب العالمين

مصادر البحث

١. أبو حامد الغزالي فلسفته وآراءه في التربية والتعليم، محمد نبيل نوفل، رسالة ماجستير مطبوعة، تربية عين شمس - قسم أصول التربية، ١٩٧١ م.
٢. إحقاق الحق، نور الله الحسيني، مكتبة النجفي، قم، د.ت.
٣. إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، كتاب الشعب، دار الشعب، القاهرة، ١٤٣٧هـ.
٤. الإصلاح، حسن الترابي، ٢٠٠٧/٤/٨ م.
٥. <http://www.gudsway.com>
٦. الإصلاح، محمد تقي المدرسي، مطبعة ذي القربي، إيران، ١٩٩٨ م.
٧. الإصلاحية، محمد باقر الناصري، مجلة الفكر الجديد، العدد ٩، لندن، ١٩٩٨ م.
٨. أضواء على ثورة الإمام الحسين، محمد الصدر، مجموعة محاضرات ألقاها سماحته في شهر محرم، ١٩٩٨ م.
٩. آمالي الصادق، محمد الخليلي، النجف الاشرف، العراق، مطبعة النعمان، ط ١، ١٣٨٣هـ.
١٠. بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، طهران، شركة طبع بحار الأنوار، ١٣٧٦هـ.
١١. بدائع السلك في طباق الملك، ابن عبد الله ابن الأزرق، تحقيق د. علي



- سامي النشار، منشورات وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية، ١٩٧٧م.
١٢. تأسيس الشيعة بالعلوم الإسلامية، حسن السيد هادي الصدر، شركة النشر للطباعة العراقية المحدودة، ١٩٥١م.
١٣. تخطيط الدروس في المواد الاجتماعية، علي عثمان سرحان، دار الفرقان، السعودية، ١٩٨٨م.
١٤. تسع رسائل في الحكمة والطبيعات (الرسالة التاسعة في علم الأخلاق)، الحسين بن عبد الله ابن سينا، ط ١، دار الجوانب، ١٢٩٨هـ.
١٥. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف مجموعة ورام، أبو الحسين بن أبي الفراس الاثري ورام، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ط ٣، ١٩٦٩م.
١٦. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، أبي علي احمد الرازي مسكويه، ط ٢ دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.
١٧. دستور الصدر (مجموعة خطب ولقاءات السيد الشهيد محمد الصدر في جامع الكوفة)، اسماعيل الوائلي، قم، ايران، ٢٠٠٤م.
١٨. دور الأئمة في الحياة الإسلامية محمد اليعقوبي، شرح وتعليق السيد الشهيد محمد الصدر، دار أنوار الهدى للطباعة والنشر، ٢٠٠٣هـ.
١٩. رسائل ابن حزم، ابن حزم الأندلسي، تحقيق د. إحسان عباس، ط ١، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠م.
٢٠. رسالتنا الإسلامية بين الأصالة والتغريب، فؤاد كاظم المقدادي، ط ١، مطبعة المعارف، مجمع الثقلين العلمي، ٢٠٠٢م.

٢١. سلوك المالك في تدير الممالك، احمد بن محمد ابن أبي الربيع، مطبعة جمعية المعارف المصرية، مصر، ١٢٨٦ هـ.
٢٢. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، تقديم احمد محمد شاكر، دار الجيل، بيروت، ب.ت.
٢٣. صحيح الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٩٢ هـ.
٢٤. العقيدة الإسلامية، جعفر سبحاني، سوريا، دار التعارف للمطبوعات، ١٩٩٨ م.
٢٥. العلاقة بين الفلسفة والتربية من منظور الاعتزال دراسات خلقية، سعيد إسماعيل علي، تقرير إبراهيم مدبور، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦ م.
٢٦. عناصر شخصية المسلم في آثار أهل البيت عليهم السلام، محمد يعقوبي، مكتبة الشيخ يعقوبي للنشر، إيران، قم المقدسة، ٢٠٠٥ هـ.
٢٧. فلسفة التربية في القرآن، علي خليل أبو العينين، رسالة ماجستير مطبوعة، دار الفكر العربي، ١٩٨٠ م.
٢٨. فن التعليم عند ابن جماعة، حسن إبراهيم عبد العال، مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٩٧٧ م.
٢٩. قناديل العارفين، الشيخ محمد يعقوبي، مطبوعات جامعة الصدر الدينية، النجف الاشرف، ٢٠٠٦ م.
٣٠. الكليات، أبو البقاء، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، دمشق، ١٩٧٤ م.



٣١. لسان العرب، ابن منظور محمد بن مكرم الأفريقي المصري، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٥٦.
٣٢. محمد الصدر سيرته الذاتية ومنهجه العلمي، مجلة الفكر الجديد، العدد ١٨، ٢٠٠٠م.
٣٣. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الرسالة، الكويت، ١٩٨٢.
٣٤. مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، أبو الفضل علي الطبرسي، ط ٢، النجف، المكتبة الحيدرية، ١٩٦٥.
٣٥. معالم الحوزة الناطقة، كريم المنفي، النجف الاشرف، ٢٠٠٤م.
٣٦. مقتل الإمام الحسين، محمد الهنداوي، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م.
٣٧. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ميرزا حبيب الهاشمي الخوثي، ط ٤، المكتبة الإسلامية، طهران، ١٤٠٥هـ.
٣٨. نحو فلسفة التربية، وودرنج، ترجمة سعد مرسي احمد، فكري حسين ريان، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٦٦م.
٣٩. نحو منهج تربوي معاصر، نجاح الجمل، ط ٥، عمان، الأردن، ١٩٨٨م.